

من إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

نخادة الكاميليا

إعداد وتقديم
الدكتور وحّاب عكاوي

تأليف
الكسندر رومالوين

www.liilas.com/vb3
^ RAYAHEEN ^



غادة الكاميليا



موضوع رواية «غادة الكاميليا» من الموضوعات المحببة إلى الكتاب الرومانسيين جميعاً، وقد انتقلت إليهم من طريق روايتي من كتاب القرن الثامن عشر الذين يُطلق عليهم اسم جيل ما قبل الرومانسية ألا وهو القس أنطوان بريفور في روايته الشهيرة «ماتون ليسكو».. ثم انتقل هذا الموضوع منه إلى رومانسيي القرن التاسع عشر من أمثال فيكتور هيغو والفريد دو موسيه وألكسندر دوما الأب.. وكان بعض هؤلاء يعطف على المرأة الحاطنة عاطفًا شديدًا ولا يجد فيها إلا ضحية من ضحايا المجتمع.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ رواية «غادة الكاميليا» الملبتة بالأحزان والخطايا أصبحت الطفل المدلل لدى الكثير من مخرجي السينما في جميع أنحاء العالم إلى درجة أنها ظهرت في السينما المصرية وحدها ست مرات بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٩٥.



الكسندر دوما الابن

١٨٢٤ - ١٨٩٥

ولد الأديب الفرنسي الكسندر دوما الابن في باريس في ناحية مارلي - لي - روا سنة ١٨٢٤ ، وهو الابن البكر للمكاتب الروائي المعروف الكسندر دوما صاحب الروايات التاريخية العديدة وأهمها «الفرسان الثلاثة» و«عقد الملكة» ، وكان عمر الكسندر الكبير يوم ولادة ابنه واحداً وعشرين عاماً ، فقد ولد الأب سنة ١٨٠٣ . وقد تأثر الكسندر الابن بوالده تأثراً كبيراً ، وامتلأ به إعجاباً ، فلا بدع أن بدأ يكتب الروايات غداة إتمام دراسته الثانوية ، وكانت أول رواية ينشرها هي «غادة الكاميليا» التي كتبها - كما يقول هو نفسه في مقدمة هذه الرواية - في أسبوع .



الكسندر دوما الابن

تحول عن كتابة الرواية إلى المسرحية فغذى المسرح الفرنسي بمسرحيات تمتاز بحسن السبك والبناء وتمييز بروح الفكاهة والسخرية . ومسرحياته على الدوام هادفة ، وكانت فكرته الرئيسية التي يدعو إليها في جميع مسرحياته هي إعادة بناء المجتمع من طريق إصلاح الأسرة التي ينبغي أن تبنى على الحب لا على المال .

أهم مسرحياته هي : غادة الكاميليا ، وادي الزفاف ، أنطونين ، مغامرات أربع نساء ، العلية الفضية ، أقاصيص وقصص ، غادة اللؤلؤ ، صديق النساء ، المجتمع الثانوي ، الابن غير الشرعي ، الأب

الميلتر ، الأميرة جورج ، أفكار منام أوربي ، فرانسيلون ، ديانا خادة
الليس ، استراحة ، مسألة طلاق ، قصة امرأة ، المسرح الكامل ، مسرح
الأخوين ، وديس .

قبل ألكسندر دوما الابن عضواً في الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٧٤
وتوفي سنة ١٨٩٥ .

والواقع أنّ الفرنسيين لا يعتبرون دوما الابن من كتّاب الدرجة
الأولى ، ولذا فقللما يدرس لثقته في الجامعات ، وإنما يدرس عادة
ضمن كتّاب الدرجة الثانية من أمثال إميل لوجيه وجول سابلو . غير
أنّ كل من يدرس المسرح الفرنسي في القرن التاسع عشر دراسة
خاصة لا بدّ أن يمرّ به . ومن عجائب القدر أنّ المسرحية التي منحت
الشهرة ، والتي قدّر لها أن تؤلّف في الأدب العالمي ، هي أول مسرحية
كتبها في حياته حين كان بعد فني يافعاً غراً ناقص الخبرة غير
مكتمل النضج ، وهي مسرحية «خادة الكامييليا» ، وهذا يعود دون
شك إلى صدق المظاهر التي كانت تهرّج حين كتبها ، ولطرافه
الموضوع واستفاته من صميم المجتمع الفرنسي ، ولعاجته لداء من أعم
الأدواء الاجتماعية التي نشأت في المجتمع في ذلك العصر . وفي
ذلك يقول ألكسندر في مقدمة الطبعة الكاملة لمسرحياته :

«التصرف إذاً يا صديقي الغارّي أنني كتبت هذه المسرحيات بكل ما
أدين به لفني من حب واحترام ، فيما هذا الأولى «خادة الكامييليا»
التي وضعتها في ثمانية أيام دون أن أدري كنه ذلك ، تدفعتي جرأة
الشباب وما يصادفه من حظ حسن . وكان الدافع الخفي لي هو
الرغبة في الحصول على المال لا الإيحاء المقدس . وقد دفعت الجزء
الأكبر من ديوتي ، واستطعت أن أولي المسرحية التالية مزيداً من
العناية والوقت (وهي مسرحية «ديانا خادة الليس») ، ومع ذلك

فأخشي أن نحمدها أقل من الأولى . ولما كنت بعد عرض هذه
الأخيرة قد سبّحت جميع ديوتي ، فقد استطعت تخصيص أحد عشر
شهراً بطولها لتقيد المسرحية الثالثة «المجتمع الثانوي» التي يصرّ الناس
على اعتبارها أحسن من سابقتها . لما أنا فاسر على تفضيلها جميعاً
بالتساوي ، فقد منحتني لذة في العمل وشهرة أكثر مما استحق ،
وعرفت من خلالها أنبل عواطف الفكر والاستقلال الذي جعلني
سحباً وطنياً .

خادة الكامييليا

مسرحية ورواية

قبل الخوض في دراسة الظروف التي أوجت إلى ألكسندر دوما
الابن بمسرحيته وروايته لا بدّ من ملخص لهذه وتلك ، أمّا للمسرحية
فتدور أحداثها كما يلي :

الفصل الأول : مرغريت جوتييه وسط أصدقائها في حياة ماجة
صاحبة رغم الداء الذي أخذ يتخرق عظامها . وبداية التعارف بينها
ورين أرمان ديفال الذي أحبها دون أن يعرفها ، وكان لا يكفّ عن
الوقوف ببابها والسؤال عنها في أثناء مرضها . مرغريت تتأثر لصديق
مشاعر أرمان تحوها فتبادلته حباً بصحبه .

الفصل الثاني : بداية حياة الحب الحميد بينهما رغم استمرار
مرغريت في حياتها المأجنة ، وإن كانت قد بدأت تقطع علاقاتها
بعشاقها ومنهم الكونت دي ج .

الفصل الثالث : مرغريت وأرمان يصادران باريس إلى الريف .
مرغريت تقطع جميع مواردها المالية من عشاقها وكذلك من
الدوق ، وهو الرجل المسنّ الذي كان قد تولّى تسديد نفقاتها الباهظة
لمعطفه عليها لأنها تشبه ابنته التي ماتت بداء مرغريت نفسه . وقد

كف الدوق عن الاستمرار في الدفع لأنه كان يعتقد أنها في الرفق والراحة والعلاج ، فحضر لزيارتها فجأة فوجدتها تتناول الغداء مع خمسة عشر شخصاً من الأصدقاء ، كما أنه علم بعلاقتها بأرمان . مرغريت تبدأ ببيع ما تستطيع الاستغناء عنه من مظاهر الترف مثل المركبة والمطبخ وترهن مجوهراتها . والد أرمان يحضر لزيارتها في غيبة ابنه ، ويطلب منها التضحية بسعادتها وحباها من أجل ابنته التي يرفض خطبتها إتمام الزواج ما لم يقطع أرمان صلته بمرغريت ، رغم أن هذا الحب هو ومضة السعادة الوحيدة في حياتها ، والشرهان الوحيد الذي كان يمدّها بالحياة ، إلا أنها توافق على التضحية من أجل سعادة أرمان وأخته ، وتؤكد قبول التضحية بقيلة طاهرة طلبتها من والد أرمان . تحاول مرغريت إخفاء الأزمة التي تجتازها عن أرمان ، وتخرج بحجة الإبعاد عن البيت بعض الوقت فربما يحضر والده لزيارته . ثم تبحث له بكلمة مع خادم تقول له فيها إن كل ما بينهما قد انتهى وأنها الآن عشيقة رجل آخر .

الفصل الرابع : مرغريت تعود إلى حياة الصخب وتسوء حالتها . أرمان يعود كذلك إلى الحياة الماجنة نفسها ويلتقي بها في كل مكان ليوجه إليها الإهانات علناً ، لأنه أساء تأويل الطريقة التي هجرته بها . مرغريت تستدعيه وترجوه أن يرحمها ويكف عن توجيه الإهانات إليها ، لأنها تخشى أن يارزعه عشيقها الكونت ويقتله . أرمان يعرض عليها حبه من جديد فترفض ، فيوجه إليها إهانة شديدة في حضرة جمع كبير من رواد هذا الوسط الماجن ويرميها بحزمة من الأوراق المالية تمناً للحب الذي لم يكن قد دفع حوضه حتى الآن .

الفصل الخامس : ترى مرغريت في فراشها في حالة مرض

شديد . إنها لا تزال محاطة بالأصدقاء الذين يعطفون عليها وينفقون عنها ديونها ، وهي ما زالت تفرح صديقاتها بالهدايا وتعطي لبرودنس مالاً هي في أشد الحاجة إليه . والد أرمان يرسل لها خطاباً يؤكد فيه أنه رجع في تصميمه ، وأنه سوف يكتب لابنه ليعود إليها ، لأنه نأكد الآن من أنها خير من ستين أنفسهن بالفتيات الشريكات . أرمان يعود في المحطات الأخيرة لمرغريت ويعد أن يشت من عودته . مرغريت تشعر لفطر سعادتها أنها شغيت ، ولكنها تموت بعد قليل بين ذراعي أرمان ووسط قبالة ودموعه . وآخر كلمة - في المسرحية - تنطق بها صديقتها « نيشيت » إذ تقول : « .. نامي في سلام يا مرغريت ! سوف يغفر الله لك كثيراً لآلك أحييت كثيراً » .

أما الرواية فتختلف اختلافاً كبيراً عن المسرحية ، ويبدو واضحاً فيها أن المؤلف منحها مزيداً من العناية الفنية في الأسلوب والحبكة القصصية ، واستعاد من طبيعة هذا اللون الأدبي لون الرواية ليقدّم للقارئ وصفاً مفصلاً لحياة مرغريت وجمالها وثيابها ، وفي تصوير المجتمع الباريسي حموراً ورائات الهوى خصوصاً . وثمة الاختلافات الجوهرية في مجرى الأحداث بين المسرحية والرواية ، وهناك شخصيات تظهر في المسرحية ولا تظهر في القصة وبالعكس ، وتتركز أهم الاختلافات في الخاتمة .

في الرواية ، وبعد أن تهجر مرغريت أرمان لزولاً عند رغبة والده ، يعود كل منهما إلى الوسط الماجن نفسه ، ويعقد أرمان صلة بإحدى قتيات الهوى تسمى أوليمبيا ربما تكون أجمل من مرغريت خُلُقاً ولكنها مختلفة عنها خُلُقاً اختلافاً تاماً ، فلا يلبث أن ينفر منها ، وتحضر مرغريت إلى شقة لتسول إليه أن يرحمها ويكف عن توجيه

الإهانات إليها ، فيضرب كل منهما أمام الآخر ويعودان إلى حيهما رغم حمى الداء الذي ينخر في عظامهما . وفي اليوم التالي نصر مرعريت على إعادة قطع العلاقة تمسكاً منها بهما ، فيعود أرمأن إلى إهانتها . تسافر مرعريت إلى إنجلترا بحثاً عن التيسار ، وكذلك يسافر أرمأن في سفر طويل . ثم تسقط مرعريت أمام ضربات دلائها المتوالي ، وتتلقى من والد أرمأن غفراناً وشفعاً ومساعدة مالية . ولكنها تنتظر عودة أرمأن دون جدوى ولموت وحيدة يائسة ، لا يحضر لحظة إسلامها الروح إلا صديقة واحدة - جوليا - وياع أثلتها ومغلفاتها بعد ثلاثة أيام وفاء لديونها الكثيرة . يعود أرمأن ويصحح خبر وفاتها ويصرّ على نقل رفاتها إلى مقبرة أخرى ليتمكن من رؤيتها ، وتؤدي أزمته النفسية إلى أزمة جنسية ثم يشفى . وتختتم الرواية بمذكرات مرعريت المؤثرة .

ولا شك أنّ السبب الذي حدا بالمؤلف إلى ابتكار هذا الاختلاف البين بين الرواية والمسرحية ، ولا سيما في الطريقة التي ماتت بها مرعريت في كلتا الحالتين ، إنما يرجع قبل كل شيء إلى رغبته في التأثير في المشاهدين أو القراء ، فلو أنه جعل مرعريت - في المسرحية - تموت دون رؤية حبيبها أرمأن ، لاضطره الأمر إلى أن يعرض في تصوير مشهد الاحتضار الطويل أو الدخول في حوار بين مرعريت وصديقها في جو جنائزي مضر . فلا بد إذن أن يكون احتضار مرعريت قصيراً أو مؤثراً ، ولا يكون كذلك إلا بعودة أرمأن في اللحظات الأخيرة . أما في الرواية فمجال الوصف شاسع أمام المؤلف ، كما أنه يتجه بتصويره إلى خيال القارئ ومشاعره في وقت واحد ، فلهذا في هذه الحال فرصة للتأثير فيه وإسالة دمعه بوصف

الاحتضار الطويل والألام المبرحة التي قاستها مرعريت على قرائ الموت . ويقدّم المؤلف من ثمّ للقارئ مذكرات مرعريت ليقرأها بترت ويكي ما شامت له دمعه وأسخط عينه .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المؤلف صايف صعباً جمة ليحصل على إذن بعرض مسرحية . فقد كتبت المسرحية سنة ١٨٤٩ وقدمت إلى المسرح التاريخي الذي أغلق قبل العرض ، ولم تقبل في مسرح «الفوديل» إلا بتدخل من الممثل هيبوليت دورمز ، ولم تعرض في هذا المسرح إلا في ٢ شباط / فبراير ١٨٥٢ . وقد منعت الرقابة هذه المسرحية عاماً كاملاً في وزارة ليون فوشيه ، رغم المساعي الكبيرة التي بذلها المؤلف ووالده ، والتي وصلت إلى رئيس الجمهورية ، فقد كتب ثلاثة من الكتاب المعروفين هم : جول جانان وليون جوزلان وإميل أوجيه توصية بصلاحيتهما للعرض ، وأرسلت هذه التوصية إلى الكونت دي مورني ، الذي كان يتولى حمايتها ، ثم إلى رئيس الجمهورية الذي حوّلها إلى رئيس الوزراء الذي رفض قبول هذه التوصية رفضاً باتاً . وتدخل ألكسندر دوم الأيب فتلقى الجواب عنه ، وقيل له إنه طالما كان ليون فوشيه في الوزارة فلن تعرض المسرحية ، وكان على ألكسندر الأبن أن ينتظر .

وفصلاً تنتظر . وعُيّن الكونت دي مورني ، الذي كان يرمي المؤلف ، في الوزارة محل فوشيه ، وكانت تلك مصالحة من مصالقات الحظ . وقد حدث ذلك في ٢ كانون الأول / ديسمبر وحققت المسرحية نجاحاً هائلاً ، إلا أن الرقابة عادت فمنعتها ، ثم أجازتها ، ثم منعتها ثانية مشرطة بإجراء بعض التعديل عليها ، وكان بعض هذه التعديلات تافهاً لا ضرورة منه وبعضها ذا فائدة . وبعد

التعديل أقرتها الرقابة وصارت منذ ذلك الوقت في حضي الفاتون ، وكانت أول من أدّى دور غادة الكاميليا المثلثة مدام دوسن فأصبحت الأداء إلى درجة أن اسم غادة الكاميليا التصق بها بعد ذلك .

ولا بدّ من التوقف قليلاً لتعرف على الفتاة التي ألهمت للمؤلف بشخصية البطلة مرغريت جوتييه ، وفي أي ظروف عاشت تلك الفتاة ، وفي ذلك يقول ألكسندر في مقدمة روايته : «إن الشخصية التي كانت لي مثلاً في الرواية والمسرحية كان اسمها القموسيين بليسي ، وهو اسم كوّنْت هي نفسها منه اسماً أكثر رقة وعذوبة هو ماري دي بليسي . كانت طويلة القامة نحيلة القوام ذات شعر أسود ، وكان لونها أبيض مشرباً بالحمرة ، وكانت رأسها صغيرة وجناها لامتعتين كميون اليابانيات ، ولكنها كانت ملبّسة بالحرير والرقّة ، وشفتاها في حمرة الكرز وأسنانها أجمل أسنان في العالم . وكان المرء إذا رآها يظنها مثلاً من «الساكر» . ولما رأيتها سنة ١٨٤٤ لأول مرة كانت في أوج عزمها وجمالها . وماتت سنة ١٨٤٧ بمرض صدري وهي في الثالثة والعشرين من عمرها » .

«كانت واحدة من فئة من بنات الهوى ، تتميز بقلب كبير ، ولا شك أنها ماتت في شرح شبابها لهذا السبب . كانت لا يقصها لا الذكاء الأعمى ولا التعفّف . وقد انتهت فقيرة في شقة فاحرة حجير عليها الدانتون . كانت متميزة تنسج ملابسها بلون رفيع وقشي في رشاقة وربما كذلك في نبل . وكان الناس يظنونها أحياناً إحدى سيدات المجتمع ، ولو عاشت إلى اليوم لاستمر الناس يظنونها كذلك . كانت فلاحه من إحدى قرى غربي فرنسا ، وقد خصتها ثيوفيل جوتييه ببعض آيات رثاء تصوّر هذه النفس الصغيرة الريفية

التي سوف تخلد الخطيئة .

ولا شك أن ماري دي بليسي قد لفتت نظر كثير من الكتاب في ذلك الوقت ، فأفرد لها جول جاتان مقدمة طريفة للرواية دلت على المجتمع الذي عاشت فيه تلك الفتاة ، والذي صورّه ألكسندر دوماس الابن في روايته ومسرحيته على السواء . وقد أثارت ماري هذه عطف من عرقها ، وخصوصاً عطف المؤلف ألكسندر ، وانتقل هذا العطف إلى بقية بنات عالمها من يالعات الهوى ، فانبرى ينافع عنهن ويحاول معالجة الأسباب التي تدفعهن إلى الرذيلة ، فنراه يقول : «إن الضرر الذي تسببه يالعة الهوى ضرر لا سبق إصرار فيه ولا يفرق المرء فيه إلا إذا كان غراً ولا يعجب به إلا إذا كان غاسقاً . لكنه ضرر له هذه وهو الخمر والجمل والفتنة السيئة والوراة التي لا حيلة فيها وأتانية المجتمع والمبالغة في الحضارة والمشكلة الأبدية : الحب . والمذنب هنا تدعو إلى القسادة والعطف ولا تستلزم العقاب ، ودنباها هو ذلها ولا يمكن أن تكون فضلة طيبين في الوقت نفسه الذي تكون فيه نصحاء سواه » .

والواقع أن المجتمع الفرنسي قد مرّ في الفترة التي عاشت فيها يالعة الهوى ، التي قدّر لها أن تخلد في رواية ألكسندر دوماس الابن ، بمرحلة يسر مالي أدّى إلى تفتش الخطيئة ، يشكل دقت له نواقيس الخطر . فقد كان من السهل لإقاع المعاملات المغيرات في الخطيئة ، كما كان من السهل عليهن بعد ذلك أن يعشن في حماية رجل ثري يرعاهن مع تركهن مستحرات في عملهن . وأحياناً كان هذا الثري يضع المعاملة على رأس محل من محلات الأزياء ، وقد كانت تلك هي حالة القموسيين بليسي ومرغريت جوتييه . ولما اخترعت السكة

الحديد أثرى بعض الناس ثراءً فاحشاً واستلأت باريس بظلاله كبيرة من الشبان الأثرياء من فرنسيين وأجانب ، وكان أغلبهم يخرج من أسطر الطبقات ، وكان هؤلاء يخشون على سمعتهم من التواطع مع هؤلاء الفتيات .

وما لبثت هذه النوبة العارمة من الثروة والبقاء أن انحطت ، وقد أحسن الكسندر دوما الابن صنماً بكتابة روايته في إيان الأرملة وهو متأثر بأحداثها وبشخصية البطلة ، ولو أنه ترك الأرملة تمر لما كان من الميسر له بعد ذلك أن يلقى ما لقي من نجاح ، وفي ذلك يقول بعد خمسة عشر عاماً من كتابة روايته : «إن غادة الكاميليا التي كتبها منذ خمسة عشر عاماً لا يمكن أن تعاد كتابتها اليوم لأنها لن تكون صادقة بل حتى لن تكون ممكنة ، فسوف لن يجد الناس حولهم مثلاً لهذا النوع من الحب والندم والتضحية .

إن موضوع بائعة الهوى من الموضوعات المحببة إلى الكتاب الرومانسيين جميعاً ، وقد انتقل إليهم من طريق روائي من كتاب القرن الثامن عشر الذين يطلق عليهم اسم جبل ما قبل الرومانسية ألا وهو القس برغوز^(١٠) في روايته الشهيرة «مانون ليسكو» ، ثم انتقل هذا الموضوع منه إلى رومانسي القرن التاسع عشر من أمثال فيكتور هوجو وألفريد دو موسيه والكسندر دوما الأب . وكان بعض هؤلاء يعطف على العاهرة عطفاً شديداً ولا يجد فيها إلا ضحية من ضحايا المجتمع إذا أخذ بيدها فقد ترتفع إلى درجة القديسين ، ومنهم فيكتور هوجو حين صور شخصية «فانتين» في قصته المعروفة «البؤساء» .

وقد كتب هوجو «ماريون دي لورم» ، وموسيه «برنوييت»

(١٠) أنطوان فرانسوا برغوز ١٦٩٧ - ١٧١٣ .

والكسندر «فروتاندا» ، وفتح المفكرون والشعراء في جميع العصور العاهرة عطفهم ورحمتهم ، وحدث أحياناً أن ردّ لهنّ رجل ذو قلب كبير الاعتبار بعب وأحياناً باسمه . كما اهتم كثير من الكتاب الفرنسيين ، من غير الروائيين في ذلك الوقت بموضوع «البغي» فأفرد لها ج . ميشليه في كتابه «المرأة» ١٨٥٩ فصلاً مبرّحاً عن رأيها فيها ، وهو يرى أن الأمل ليس مفقوداً في إصلاحها ، كما أنه ليس مفقوداً في إصلاح حتى المرأة الفاتلة ، وهو يسميها «شبهات وقديسات البغاء» ويقرّ في ذلك بين المرأة بهيمية الشهوة وتلك التي تضطر إلى ذلك بدافع البتة أو الأمومة .

وعسود روائي فرنسي (رومان رولان في «الغنى المسحورة» ١٩٥٠) تحدث إلى هذا الموضوع في منتصف القرن العشرين فيلمس الأعداء للمرأة الحافظة ويقرّ بين دنس الجسد ودنس الروح ، ويرى أن دنس الجسد من اليسر غلبه ، أما دنس الروح فهو الذي لا يمكن تطهيره ، وفي ذلك تقول البطلة «أنت وبشير» : «لقد دنست جسدي وبدي وعيني ولذا أغسلها في صف ، ولكن قلبي ظاهراً لم يمس فإنّ الوحل لم يعلل إليه» .

غادة الكاميليا في الأدب العربي

كان لرواية «غادة الكاميليا» أثر كبير في الأدب العربي ، فقد حرّرت المسرحية في أوائل القرن الماضي ، ومثّلت فترة طويلة ، ومن الممثلات اللاتي تلقن في هذا الدور السيدة زهبة صديقي ، إلا أنه ليس ثمة ترجمة أدبية دقيقة لا للمسرحية ولا الرواية ، ولا يدخل في الحيزان «مذكرات مرغريت» للمنفطوطي رغم النجاح الذي حققته تلك المذكرات في القراء العرب في مطلع القرن العشرين ، إذ إن

المفلوطي لم يكن يجيد الفرنسية ، وكان يعتمد في التعبير على صديق له يذكر له موضوع القصة ثم يتركة يتممه بأسلوبه ويضيف إليه ما شاء مما يحمده به المحسنات البيانية والبديعية ، ولذلك فإن صلة القرى بين الأصل الفرنسي ومذكرات مرغريت كما عربها للمفلوطي بعيدة كل البعد ، ولا يقلل ذلك من أهمية تأثير القارئ العربي بهذا الموضوع ، رغم بعده عما يلقاه العرف والتقاليد في مصر والشرق .

كما أن أحد كتّاب القصة العرب ، هو نجيب الحفاد ، أراد الخوض في تجربة من نوع جديد لتقريب موضوع «العاهرة» التي يطهرها الحب من الذوق العربي ، فكتب رواية «عواء الجسيدة» أو «يطهرون مونا» - ولكن كيف أمكنه جعل العاهرة بطلّة للرواية والذوق العربي يأبى حتى وجودها؟ كان لا بد له إذاً أن يجعل بطلّة روايته فرنسية لا عربية ، وقد خلط الكاتب في شخص بطلته بين «فانتين» بطلّة «البؤساء» لهوغو ، التي اضطرت لاحتراف تلك المهنة لثروة ابتها ، وروين مرغريت جوتييه التي احترفت البغاء بدافع الضبط الاجتماعي وحب البذخ والترف ، ولذا جاءت شخصيتها متفككة غير مقنعة وغير مشيرة للشفقة كما قال جورجي زيدان في تعليقه على قصة الحفاد .

ونجد الإشارة إلى أن رواية «عاهرة الكاميليا» المليئة بالأحزان والخلطايا أصبحت الطفل المدلل لدى الكثير من مخرجي السينما في جميع أنحاء العالم ، إلى درجة أنها ظهرت في مصر وحدها ست مرات بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٨٥ (فيلم «السكاكيني» لحسام الدين مصطفى الذي ظهر عام ١٩٨٥) .

وعادة الكاميليا في هذه الأفلام حكاية وردية دامية بلا أمل من

غاية جميلة يخطف بعض رجال المجتمع ودعها ، فيحبها شاب من أسرة بسيطة ما يشكل تهديداً لسمعة هذه الأسرة ، ويدفع بها إلى اللجوء إلى المرأة ، وأن تحطم حبها له فوق ملبح السمعة المهنددة ، فيقتلها الحب والتفحيط ومرضى السل . وهذه الحكاية هي إحدى «الحوايت» المحببة بشكل غريب لدى صناع السينما في العالم ، وفي مصر ، حيث تم إخراجها خمس مرات لتصبح مرغريت جوتييه فتاة عربية تنطق بلغة الفصاة .. وفي «ليلي» لتوجو مزراحي وعهد الهوى» ليدوخان تصبح الغاية امرأة رقيقة يقع في غرامها طالب قادم من الريف ينتمي إلى أسرة إقطاعية ثرية ، وعلى الأب أن يأتي خصيصاً من الريف حيث يعيش كي يقابل الفتاة ويخطب ودّها من أجل أن تهجر لته . وقد اعتمد كلا الفيلمين على الفناء ، سواء من قبل ليلي مراد التي قامت بالدور في فيلم توجو مزراحي عام ١٩٤٢ ، ثم من قبل فريد الأطرش الذي جسّد دور الشاب الذي يرسل زهور الحب دائماً إلى حبيته ويقضي لها في عام ١٩٥١ .

في هذه الأفلام تموت الغاية بمرض السل ، وهي أداة طيّعة لدى المجتمع الذي يتعامل معها ، وتهب الأشياء جسدها لمن يدفع ويقدر ، وتهب واحداً منهم التضحية . ولأنها غاية فهي خاطئة في نظر أبناء هذا المجتمع ، ولذا عليها أن تموت بشكل تام مساوي ما يزيد في حدة الإعجاب بها ، فهي الضحية دوماً ، وإذا كان السل لم يعد مرض العصر القاتل ، فإن تماطي المخدرات آفة تقتل «مرغريت جوتييه» في فيلم «السكاكيني» لحسام الدين مصطفى عام ١٩٨٥ . أما أحمد ضياء الدين مخرج فيلم «عاشق الروح» عام ١٩٧٢ المتقرب عن «عاهرة الكاميليا» فيقول : «ليست كل الأعمال صالحة

الفصل الأول

من يوم امتشقت القلم لأكتب كان الرأي عندي أن على الإنسان ، لكي ينتكر شخصيات خيالية ، أن يتوفر على دراسة طبائع البشر ، كما أن عليه ، لكي يتكلم إحدى اللغات ، أن يفقه أصول هذه اللغة وقواعدها .

ولمّا لم يكن لي من السن والتجارب ما يجعل في طوقني أن أنتكر الشخصيات الخيالية ، فبقيت أفتح هنا بأن أكون مجرد رواية لا أكثر ، وأرجو القارئ أن يتصور بأن القصة التي أسردها فيما يلي حقيقية ، لا أثر فيها للمصانعة والخيال ، وجميع شخصياتها - فيما عدا البطلة - لا يزالون على قيد الحياة ، وفي باريس شهود عديدون على أكثر الحوادث التي أسجلها هنا ، وعند هؤلاء الشهود ما يثبت القصة ويوضحها ، فيما إذا افترت روايتي حقاً إلى الإثبات والإيضاح .

وقد شابت بعض المصادفات ، والظروف الخاصة ، أن أكون الشخص الوحيد الذي يملك جميع المقومات اللازمة لتسجيل هذه القصة ، لأني الوحيد الذي عرف من التفاصيل النهائية ما يستحيل من دونه أن تكون القصة تامة ومثيرة للاهتمام . ولما كيف وضعت أنا إلى هذه التفاصيل فلايكم ما يلي :

حدثت ذات يوم أنني كنت أسير في شارع لانيت فوقع نظري على لوحة كبيرة تحمل إعلناً عن بيع أثاث ثمين نادر بالمراد العلني ، ولم يرد في الإعلان اسم صاحب الأثاث ، وإنما ذكر أن البيع سيبدأ في يوم ١٦ من ذلك الشهر ، بالمرزول رقم ٩ بشارع دانتان ، وأن في استطاعة الراغب في الشراء مشاهدة الأثاث في المنزل المذكور في

للاقتباس ، فالقصص الإنسانية قصص عالمية من الممكن اقتباسها في أي بيئة وأي عصر ، أما القصص التي تعتمد على الأحداث فتكون على العكس من ذلك مقصورة على العصر والظروف التي حدثت فيها وبالتالي إلى رواية «غادة الكاميليا» فلا يمكن اقتباسها كما سبق القول كلاماً .

قائمة بالأفلام المكتوبة عن «غادة الكاميليا» :

١٩٣٥ : «الغندورة»

(ماريو فولبي - عهد

السلام النابلسي) .

١٩٤٢ : «ليلي» توجو

مزارحي .

١٩٥٥ : «عهد الهوى»

علي يدريخان .

١٩٧٧ : «رجل بلا

ملاح» محمود قو

الفقار .

١٩٧٣ : «صباثق

الروح» أحمد ضياء

الدين .

١٩٨٥ : «السكاكيني»

حسام الدين مصطفى .



غادة الكاميليا

بين غريتا غاربو وروبرت تالبور



«عاشق الروح» للمخرج أحمد ضياء الدين

بين عماد حمدي وحسين يحيى

ولسناً كتب من هواة جمع الأثاث الثمين النادر ، فقد حوت رلمي
على انتهاز هذه الفرصة ، إن لم يكن للشراء ، فللمشاهدة على أقل
تقدير . وهكذا قصدت في صباح اليوم التالي المنزل رقم ٩ بشارع
دانتان المذكور .

وعلى الرغم من أن الوقت كان مبكراً فإني وجدت المنزل
هائلاً بالزائرين والزائرات . .

كانت ثيابهم الخفيفة الندية ، ومظاهر الحمرة التي تبدو عليهم ،
والتركيبات المحممة التي تطرحهم في الخارج . كل ذلك كان يدل
على أنهم من ذوي اليسار ، ولكنهم مع ذلك كانوا ينظرون في كثير
من الدهشة والإعجاب والاهتمام إلى ما يحيط بهم في ذلك المنزل
من أثاث قديم ومن أسباب الرفاهة ومظاهر الترف .

وهم أهتم أن اكتسبت سر هذه الدهشة وهذا الاهتمام . فقد
فطنت بعد جولة قصيرة بين الغرف إلى أن المنزل كان لإحدى
الغنيات العائلات ، وكانت ملكة الباردة في عالم اللهو والعبث ، تم
بعض في كعب واحد ، أو أكثر ، من البلاء الأثري . الذين ليست لهم
صلة الزوج أو الأب أو الأخ بأولئك المقتنيات .

ولا شك في أنه إذا كان في الوجود شيء تحرق ساء الطيفه
الراقية شوقاً إلى معرفته ، وصاحبه ، فهو ذلك الجور الخائن والظلام
الداخلي في منازل أولئك العائلات اللاتي ينفسن في مظاهر الترف
والرفاهية ، وينزعسن ، لأسقية في ميدان الأثراء ، والأولوية في صدر
المجتمع ، ويشعلن مثلهن المقصورات الباردة في دار الأثرياء وسائر

المسرح ، ويهرق باريس بجمالهن الجريء ، وحديث فتشهن
ومكائدهن ومغامراتهن .

وكانت العاتية التي نحن في منزلها الآن قد توفيت ، فلا جناح إذا
على المرأة الشريفة أن تدخل بينها ، وتعد من ثم إلى صميم مخدعها
دون خوف أو وجل . لأن الموت طهر ذلك المخدع الذي كان عتاً
للعوام ووكراً للردبله والإثم . وإذ كان لا بد من موع آخر لوجود
البيات الشريفة في ذلك الزوكر فهو ذلك الأثاث الثمين الذي يباع
بأراد العتي ، والذي يستطيع كل إنسان أن يراه ويستأهه دون أن
يكون تزامناً عليه أن يعرف صاحبه .

وهكذا لم يكن عجباً أن نحلق غرف امرد بسيطات الطيفه
الرفيعة . فبدي أنهن قرآن الإحلال . وطبعي أنهن أردن شهود قطع
الأثاث واختيار ما يروغن منها لمهيداً لانتهاجهن . كل ذلك في الواقع
طبيعي لا مدع فيه ، ولكن ليس ثمة ما يمنع أولئك البياتات
الشريجات من إشباع عريضة العصور التي نعتل في موسهن ،
والبحث ها وهناك ، وسط مظاهر الترف والنعيم التي يربها
حولهن . من سر من أسرار هذه تلك الفخية التي سمى بها كثيراً
وتحلى عنها أكثر مما سمى .

ولكن من سوء حظهن أن هذه الأسرار قد ذهبت بدهاب ربة
الهيكل ، ولم يبق مثلاً إلا ما قضى الموت بعرضه للبيع والشراء وما
أعذر وما تمس ما كان معروفاً من أثاث وتبر منقطع النظر ، وأتية
من أبداع ما صنع الصائغون ، وغائب صعيبة وملابس وحلي .

رُحمتُ أنقل بين الغرف في أثر الميلاط المصليات اللاتي
سبقتني إليها

ودخلت السيدات إلى غرفه يسدل على بابها ستار ناعم ،
فهيمت بالدخول في أثرهن ، ولكنهن خرجن فجأة وعلى شعاعهن
انسانة غامضة ، وكأن ما شهدته في تلك الغرفة قد خدش ما
يزعمه لأفئسهن من الجهاد والاحتشام .

والأثر فلك المصولي ، قد دخلت الغرفة

كانت غرفة نيات الصانية التي أحترمها الموت وكل ما فيها
يشهد بالنعيم الذي كانت تفرل فيه صاحبها .

رأيت بالغروب من أحد الجدران مضمة كبيرة قد رثت فوقها كثير
من أدوات الرينة . . وكلها من الذهب والفضة .

وكان من الواضح أن هذه الأدوات قد جُمعت تدريجاً ، فهي
ليست هدية عائق واحد دون ريب . ولما لم يكن ثمة عضاضة في
أن أفحص أدوات امرأة ذات سمعة معيبة ، ولأنني ما لبثت أن
اكتشفت أن كل أداة من هذه الأدوات العيبية تحمل اسماً وشعاراً
مختلفين .

نظرت إلى هذه الأدوات التي تمثل كل منها إحدى محضرات تلك
العناية المتكررة ، وقلت لصبي إن السماء ولا شك قد ترققت بهذه
العناية المسكية ، فلم تجد في أجلاها وتبسط في ليائها حتى تستوي
العقوبة العادية التي يعرضها الإثم على الحاضرات أمثالها . بل هي
سمحت لها أن توث وسط مظاهر الجحيم ، وهي دروة مجدها

وجملتها وشبهها قبل أن تدركها الشبحوخة التي هي المنة المبررة
الأولى لجميع القاتلات

والحق أنه ليس هناك ما يدعو إلى الرثاء والإشفاق كشبحوخة
الإثم ولا سيما في الساء . فالحظفة المتقدمة في السن لا تفرح
بكرامة ولا تثير اهتماماً فهي فيما بقي من أيامها مبهمة الحسرة
والدم على ما مرط من دهوحاتها وفاد تقديفها وسوء تصرفها
فيما انتهى إليها من مال من طريق الإثم والخطيئة .

وقد عرفت في وقت مضى مجوراً من هذا الطراز لم يبق لها من
ماضيها غير دابة تستمتع بمثل ما كان لها من حمال وقتها وأغراء

وتم نقل المجبور للنساء قالت ابنتي : إلا سلنمن لشبحوختها مثل
المساعدة التي بللتها للفتاة في طفولتها .

وكانت الفتاة المسكينة - واسمها لوبر - طيعة لأمرها ، فالتفاتت
حياة البعد التي راضتها عليها ، كما كان يمكن أن تغد لور ووعت
على لثة حياة أخرى

وأصالت حياة الإثم في نفس الفتاة فضيلة التمييز بين الطيب
والخبث ، ولست أنسى ما حست منظر هذه المسكينة وهي تتجوزك في
الشوارع في ساعات مهيبة ، وأمرها تراقبها كما تراقب الأم الشريرة
ابتها . . ولكن مع اختلاف في القدر .

كنت في ذلك العهد في ريمان الصب ، وعلى استعداد لقول
بوميس المجمع على ما هي عليه ، ولكنني أذكر أنني لم أقالك من
الشعور بالامتصاص والاشمزاز لهذا الاستعمال الإثم لأقدس الصلوات

أصعب إلى ذلك أنني لم أر قط على وجه أظهر فتاة عذراء ما كنت أرى على وجه هذه الفتاة العسة من مظاهر السعادة والبساطة وشدة الاحتمال والجلد

ويبدو أن العناية الإلهية كانت لا تزال تنصير لهذه الخاطئة المسكينة موحاً من السعادة ، فقد اكتشفت الفتاة هي أحد الأيام أنها ستصبح أمّاً واستحال كل ما بقي بيلاً وحزناً في طبيعتها إلى عبث لا يوصف ، وأصبح الحزن الذي يتحرك في أحشائها المدمج الوحيد الذي يبرع إليه روحها المصدنة ، ونجدد هذه السوى والعراء . وكشفت الفتاة هي سرّها لأُمّها .

والذي حدث بعد ذلك يجعل سرده ، وربما كان من الأفضل ألا سرده ، لولا أننا معتقد بأنه من الجدير في بعض الأحيان أن نبحث اللثام عن مصروب الشقاء والعاسة التي تعانيها هذه المخلوقات المائعات ، اللاتي يحكم عليهنّ دون أن نسمع دفاعهنّ ، ويحقرهنّ دون أن نتدخل في شؤون وشجون حياتهنّ

فأجاب لأم لاستنها منعه كلاماً يحمرّ له وجه الأمومة . قالت لها إنهما لا يجعلان عوب يومهما ، فكيف إذا جاءهما ثاثة؟ وبعد ، فما فائدة الأطفال؟ أفليس الاحتفاظ بأحبي مضيعة للوقت؟

وفي اليوم التالي جاءت بها معجور تمرها ، ففقت المعجور مع لوبرا ساعة أو بعض ساعة .

وبرمت لوبرا بعد ذلك لفرشها مضجعة أيام ثم عادت تجوب الشوارع ضعيفة شاحبة .

وبعد ثلاثة شهور على وجه التقريب ، عرفت بعض الخبيرين بهذه القصة المبررة ، فأخذته الشفقة بالفتاة ، وقرروا أن يمس بها وأن يعيد إليها الصحة ، ويردّها إلى سواه السيل ، ولكن ما استهدت له الفتاة قبل ثلاثة شهور كان قد أثر في صحتها . فمرمت المراض لأسابيع ، ثم فقت نحبها .

لما الأم فلا تزال حية تروق ولكن كيف تحب وتررق؟
ذلك ما لا يعلمه إلا الله خالقها

عادب هذه القصة إلى ذاكرتي وأنا لئاس أدوات الرية ولا بد أنني استعرت في التفكير وقتاً طويلاً لأني عذوب أفقت من مهولي وجذني وحيداً في المرونة . وليس معي إلا أحد الرجال المتكلمين بحراسة الأثاث النفيس .

وكان الرجل ينظر إليّ غلصة ويرمقي بين العينة والعينة بعين الحفر والرية . فلدنوت منه وسألته :

- هل لك يا سيدي أن تذكر لي اسم الشخص الذي كان يقيم في هذا المنزل؟

فأجاب :

- هذا بيت الأكة مرخيت جوتييه .

وكتت قد رأيت هذه الفتاة مراراً فهتفت :

- ماذا تقول؟ هل ماتت مرخيت جوتييه؟

- نعم . . منذ ثلاثة أسابيع .

- ولماذا فتح بيتها لكل هابر سيل؟

- ذلك لأن الدائنين يمتثلون أن هذه هي أفضل وسيلة للحصول

على أعلى ثم ألتصتها وحلقاتها والواقع أن عرض الألتعة في
حكيم الطبعي ، وسط هذه المظاهر الخلاقة ، من شأنه أن يصدف
إقبال المشتريين .

- الماتون؟ إذا فقد كانت مدينة؟

- نعم . - كانت مدينة بمبالغ طائلة

- وهل يكفي ثم ألتصتها لسداد ديونها؟

- بل يكفي ويهي على قبة الديون جميعها .

- وإلى من تؤول الزيادة؟

- إلى أسرته .

- فلها أسرة إذا؟

- أعلن ذلك .

هشكرت الرجل لمصومته وأديه وزالت شكوكه في مولاي
لحياتي باحترام وانصرف .

•

سكنة تلك الفتاة! لا بد أنها ماتت مئة محنة فإن مثيلاتها
لا يستمتعن بصداقة الأصدقاء إلا بشروط أهمها وفرة الصحة
والجمال !

ولم أقال من الشهور بالشفقة على مرصرت جوتييه وقد يند
ذلك صرياً وشاداً في نظر الكثيرين ، ولكن في الواقع أنشئ على
هذا الطراز من الساء ، ولا أحاول كسره هذا لأشواق

حدثت ذات يوم أنني رأيت شرطي يمشي فنتاة إلى دائرة
الشرطة

لم أعلم ماذا جئت هذه الفتاة . . كل ما أعلمه أنني رأيتها نيكى

بدموع حرة وتقبل طلبة صغيرة يوشك اعتقالها أن يفرق بينهما
ومن المحتمل أن تكون هذه الصاة الترتت إلماً ولكن بما لا شك
به أنها كانت تفتن في أعناق نساء أنبل عواطف الأمومة
ومن ذلك اليوم ولنا رأياً بخصي عن أن أصدر حكمي على أولئك
النساء بمجرد الظواهر دون معرفة الجواهر .

الفصل الثاني

حين يوم ١٦ آذار / مارس ليح الأثاث .

وحدث في ذلك العهد أنني كنت قد عدت لسو من رحلة
طويلة ، فلم أعلم بموت مرصرت جوتييه ، وكان من الطبيعي ألا
يذكر لي أصدقائي بآ موتها ضمن الأبناء الهامة التي يسارع الأصدقاء
إلى ذكرها للإنسان بعد عودته من سفر طويلاً الأمد

كانت مرصرت جميلة حقاً ولكن على الرغم من الشهرة التي
يستمتع بها أولئك الساء في حياتهم فإن الإنسان لا يسمع عنهم
إلا الدرس اليسير بعد موتهم . فهو في الواقع شمس تعيب كس
تشرق فلا يعطى إليهم أحد إلا وهم في كيد الساء

ولو ماتت إحدى أولئك السوء في مقتبل العمر لذاغ بآ موتها
بين عشاقها جميعاً في وقت واحد لأن مرصراً من الصداقة ينشأ
عادة بين عشاق المرأة الواحدة وهم عندئذ يتبادلون عنها بعض
الذكريات ثم يتخفون حياة لا تنفصها عبوة واحدة على المرأة
للتعة التي كانت ترطبهم بها تلك العدة الوثيقة

والواقع أنه في مدينة لاهة كهايس نصبح الدموع عروة على أصحابها ، فلا يسكبونها في كل ماسة - إذ يكفي أماناً - الذين يدفعون ثمن حرب - أن يألوا من دموعنا ما يعادل الثمن الذي يدفعونه إلينا في شكل تركة موروثه .

أنا أنا شخصياً - فعلى الرغم من أن الحروب الأولى من اسمي لم تكن منقوشة على شيء من أدوات المينة في غرفه مرعريت جوتييه - فإن شفقتي الضعيفة على هذا الفرار من الساء دفعتني إلى التفكير في أمرها أكثر مما تستحق .

تذكرت أنني رأيته مراراً في حقائق الشاترليزيريه ، حيث كنت نذهب كل يوم في مركبة محملة بجواري بيهان - وتذكرت أنني كنت أميرها بمسحة من الأناقة والبلى تمرّد بها من ساء طبقتها

وقد جبرت عادة أولئك الساء أنهم - إذا خسرنا لدرره استطعن مهن كلفتاً من كان .

ولمّا كان كل رجل يضر بكرامته أن تلوكها الألسنة - وبمعاراته اللبنة أن تصبح مثل حدث الناس في كل مجتمع . وكنت أولئك النسوة يفر من الوحدة - فلهنّ أعداء أن يصطحبن في ربياتهنّ ربيته من طبعتهن لا تلك مركبة مثلهنّ - أو محموراً شمعاً لا نحس ماضيتها ويستطيع لشذكون من الرجال أن يملأوا إليها في طلب المعلومات من كل نوع - عن الحساء صاحبها المركبة

ولكنّ مرعريت شدت على هذه القاعة - فكنت نذهب إلى الشاترليزيريه بمفردها - وتتكمش في ركن مركبتها - كانت وكأنها لا

تريد أن يشعر بوجودها أحد - وإذا حلّ الساء التمت في معظم كبير يحجب منها ، وإذا قبل الصيف بررب في ثوب بسيط لا يلفت إليها الأنظار - وإذا وقع بصرف على واحد من اصداقاتها المعبدين - التمت له ابتسامة لا يراها أحد سواه - كانتهامة أية امرأة شريفة بيالة في مثل هذه الظروف .

كذلك لم تكن مرعريت تتكأ بمركبتها في ميدان الشاترليزيريه كما نعدن مثلاتها - بل كانت تقعد توتاً إلى العانة - وهناك تهبط من مركبتها - وتسير بين الأشجار تترنض ساعة أو بعض ساعة - ثم تعود إلى بيتها بأقصى سرعة جواردها الكريه .

•

تذكرت كل ذلك من مرعريت جوتيه - وأسمت لونها كما يأسف الإنسان على ماء عمل في مطبخ الطير والواقع أنه يصعب بل يكاد يستحيل أن يصادف الإنسان امرأة أكثر جمالاً من مرعريت . .

كانت بحسوبة القامة صغيرة الجسم - تعرف إلى دوحه إلفان كيف تحمي بحافتها الدرة - بل وتعرف بمهاريه في اختيار لباسها كيف تجعل من هذه الحافة جسداً عاماً يحسها عليه أترابها وكان رأسها أحجوبة في دانت - فهو صغير جداً - بعد ما هو مناسب للعاطاف

وإذا أردت الاحتفاظ بصورة وجهها بصادق القدم والرسم وجهاً بيضاً منتظماً - وخُطاً فيه عيبة تالان مائلاً على حدب - ثم رسم بالقدم فوق العينين قوسين رفيفين - وهذه العينين ماهدات طالته يترنض ظلالاً إلى الخدين - ورسم بعد ذلك - دة دة - دة دة - دة دة

وقبلاً يشر من أسلاف ميضاء كالثلج - وأصبح الخدين بلون ناعم
كلون الخوخة الناعمة التي لم تمسها يد إنسان - فتري أمام
باصبريك وجه مرغريت جوتييه .

أما كيف احتفظ هذا الوجه - رغم إصراف صاحبة في النهو
والعبث - بتلك البسابة والدعة اللتين تحتكرهما رجوه العذارى
والأطفال فذلك ما أسجكه ها - دون أن أحاول تعليقه وتخليقه

•

كانت مرغريت شديدة الحرص على حضور المرض الأول في
جميع المسارح ، فهي تقضي معظم لحياتها تقريباً في المسارح
والمرافق - وحيثما تعرض إحدى المسرحيات ، للمرة الأولى ، نجد
مرغريت جوتييه صحة ثلاثة أشياء لا ندرقها - انتظار الكبير ، وحرمة
من الحلوى ، وباقية من رهور الكاميليا .

ولم يعرف من مرغريت أنها استعاضت يوماً عن الكاميليا برهور
أخرى - فكان أن اشتهرت في كل باريس باسم «عذبة الكاميليا»
وقد علمت منها حفائظ أخرى يعرفها سائر المترددين على
مجالس معروفة .

علمت مثلاً أنها كانت في وقت ما عشيقة شاب في مقتبل
العمر من شباب الأوساط الراقية ، وأنها كانت تعترف بذلك في
صراحة .

وعلمت أنها رحلت إلى بانير منذ ثلاثة أعوام - وقبل وقتئذ إنها
تعاصر هناك حرقاً أجياً مطلقاً في الس ولكنك وسمع الرند - وإذ
هذا الدوق حاول أن يردّها عن حياة النهو والعبث وأنه أقس فيها
ميراً وإرتياعاً إلى تحقيق هذه الرغبة

وقبلاً يلي خلاصة ما أشيع في هذا العدد :
حدث في ذلك الربيع - منذ ثلاثة أعوام - أن طراً على سحنة
مرغريت من الانقلاب ، وعلى صحتها من الضعف ، ما حمل الأطباء
على أن ينصحوا لها بالاستشفاء في بانير .

وكانت ابنة الدوق الذي أشرب إليه تستقي في ذلك المكان
ولم تكن مصابة بمثل ذاء مرغريت فحسب - بل كان لها كذلك
مثل قوامها وسحتها - ويعد من دقة الشبه بينهما أن كان الباطر
إليهما يتوهم أنهما توأمتان !

وكانت ابنة الدوق مصابة بالسل في طوره الأخير فما لبثت أن
توفيت عقب وصوله مرغريت إلى بانير .

ونفس الدوق المجرور مضعة أيام متسكماً في بانير كما يشكع
الإنسان حول القبر الذي يضم أسر أعلامه وأمهاته - وحدث ذات يوم
أن صادف الدوق مرغريت - فشبّه إليه أنه رأى ابنته التي انزعجها
الموت من أحضانه - فذهب إليها والدموع تتفرق في عيبيه
وهو يده بين يديه - وطبع قبلة على جبينها . . وتوكل إليها -
دون أن يعرف شيئاً عنها - أن تسمح له بزيارتها وأن يحبها كما
يحب المودجاً حياً لابنته العمرة الشرفاء

وكانت مرغريت وحيدة في بانير - ولم يكن هناك ما يهدد
صحتها إذا صادفت ذلك الدوق المسن - فسم تتردد في إجابة
المسكين إلى رجلته .

ولكن كان في بانير أناس يعرفون مرغريت - فجعل هؤلاء
همهم أن يكتموا للدوق عن حقيقتها - وكانت صدمة مسخرة
للشيخ المسكين - فقد أضحى عند ذلك وجوه الشبه بين ابنته
ومرغريت .

ولكن تخدير الناس جاء متأخراً بعد أن عرف الدوق الشمس في
صحبة مرغريت راحة النفس وهناء القلب وأصبحت الفتاة
بالسيرة إليه من ضروريات الحياة . .

ثم يحبب عليها إذ لم يكن من حقه أن يحبب ولكنه
سألها إن كانت ترضى عن حياتها لأولى بدلاً وعرض عليها ما
تشاء فقام هذه التضحية فوعدت بتحقيق رغبة

وتجدر ملاحظة ها أن مرغريت كانت في هذه الفترة عليه
سلبية وكانت قد بدأت تشعر بأن حياة اللهو والموت والريفة هي
أساس عفتها وسقمها

واستولى عليها مع هذا العرض نوع من الوهم جعلها ترجو أن
تزد العاية الإلهية صحتها عليها وأن تحفظ لها جمالها جراء
لذتها وتوحيها . إذا هي تلعت وتليت . .

والواقع أن آيداء المدينة في باير والرياض المنظمة والحياة
الهائلة الودعة والراحة المستمرة كل ذلك مالت أن ردت عليها
صحتها وقوتها

ثم عادت مرغريت من بعد إلى باريس برفقة الدوق سارل
بالعافية وراح الدوق يروها كل يوم كما كان يعمل في باير

•

ولاحظ الناس الصلة بينهما ولم يعرفوا أنها أو طبيعتها
ولكنهم جميعهم لم يحتفظوا في تأويلها وتعليلها . وكان الدوق
مشهوراً بسعة ثروته . فأصبح مشهوراً بمسقه وتلكه

والواقع أن الناس ظنوا في هذه الفترة كل الظنون إلا
الحقيقة والحقيقة هي أن شعور الشيخ التاكن نحو الفتاة المشوقة

كان من أظهر المشاعر الأبوية وأقبلها فلم يسمها قط كلمة تجعل
أبته من سماعها

وليس في بيتي أن أجعل من بطة هذه القصة حبر من هي ،
هاتون إنهم لم تبر يروهم للدوق إلا ريثما انقضت أيام لهدوء
والسكينة والاستجمام في باير ، فلما عادت إلى باريس أحسّت -
وهي التي ألفت أجواء المثل والنمو والحياة الطرية الصاخبة - بأن
الوحدة والسكينة مستغلاتها سامة وملافة ثم هت عليها أناس
الحياة السابقة فلمحت وجهها وقلبها وأيقظت مشاعرها
المكتومة

أنصت إلى ذلك أنها عادت إلى باريس أكثر جمالاً وأشد فتنة . .
وأنها كانت لا تزال في العشرين من عمرها . . وأن طامعاً الذي جمع
ولم يتأصل . . كان لا يزال يحرك في أعماقها تلك الغرائز الجاهلة
التي تلازم أسرارها المرة فلا تعارفها

لكل هذا وفلك تعذر على مرغريت أن تخلص إلى الوحدة أو
الفرقة والسكينة في باريس

وحسنت في أحد الأيام أن علم الدوق الكبير من بعض
أصدقائه أو على الأصح من أصدقاء ثروته عن مهمهم إقصاءه
عن مرغريت أن الفتاة قد عادت سيرتها الأولى وأنها تسبق
الترتيب في بيتها في ساعات معينة بعد انصرافه وأن بعض هؤلاء
الترتيب يطيلون إقامتهم إلى تياثير الصباح .

وسأل الشيخ المتنازع الفتاة وكانت هي من الصراحة والشجاعة
بحيث اعترفت له بكل شيء وصحبت له ألا يرجع نفسه من
أجلها لأنها لا تقوى على حلة الجسود والمزلة والرهدة وإنكار

الذات كما وعدم وبالتالي لا تستطيع المضي في قبول الهيات
والعطية التي يسببها عنها لقاء وعد عثرت عن الود به
راح الدوق في سلكه ومر أسبوع لم يرها في حلاله ولكن
هذا الأسبوع كان مبلع مدونه على إنكر دته لأنه عاد إليها في
الأسبوع الثاني متوسلاً أن تسمح له برؤيتها . . وأخيراً بها كما هي . .
واعداً بالألا يعود إلى إرهابها ولومها مهما بنا من أعمالها

الفصل الثالث

مصدت إلى شارع دسك في اليوم المحدد للبع وما كدت أمبر
الباب الخارجى حتى سمعت صوت (الدلال) وهشاً جلياً
كان امرئ عاصاً بالناس وبهم مطبقة الحال العائيات المبررات
في ميدان الردفلة (الرافضة) وعدد كبير من ساء الطبقة المتارة
جئ في الطاهر للشراء وفي الحقيقة لانهار هذه الفرصة المرمدة
والاحصاع من قرب بأولئك العباب اللاتي ينظرون باحتفالهم
وهن في الواقع يحسبن سرّاً على ما هن عليه من ترف
وأبت البدوة (د) تخطو جياً إلى حب مع الأسة (أ) التي
أصبح يتها موتلاً للعناق وأبت الموكبة (ت) تردد في ابتاع
أداء من أدواب الربة تنامسها فيها مدام (د) أشهر المروجيات
الحفلات في باريس

وأبت الدوق (س) الذي يعتقد الناس في باريس أنه يعق كل
ثروته على غنيات مدريد ويعتقد الناس في مدريد أنه يبعثر
أمواله على غنيات باريس وهو في الواقع لا يعق معشر ثروته

هذا هو هناك وأبت هذا الدوق واقفاً يتحدث إلى السيدة (ها)
الكاتبة للشهرة ويحتس النظرات في الوقت نفسه إلى السيدة
(ن) تلك المرأة الأثقة التي احتارت لثابتها اللون الأزرق السماوي
وأبت الأسة (ر) الموسيقية المبدعة التي احتلت بمواهبها مكانة
دومها لمكانة التي مالتها أولئك التيلات بوفرة أموالهن أو نالنها
أولئك العائيات بكثرة مغامراتهن وقد جاءت بهنوها - رغم شدة
البرد - لابتاع متاع من مخلفات مرمرات جوتيه .

وكان هناك غير هؤلاء ولولئك صس لا يسمع المقام لذكرهم
وعد احتلتهم جميعاً رغم ثلبس مراكزهم في الهيئة الاجتماعية شهرة
المرأة التي يباع ألقاها اليوم بالمرأة الطلي .

كانوا جميعاً مريحين محتلين شاعراً وحيوية وعلى الرغم من أن
البعض منهم كانوا يحرمون مرمرات حق المعرفة فقد أحداً منهم
لم يأت على ذكرها بكلمة واحدة .

وارتفع من هنا وهناك رنين الضحككات ودرى صوت (الدلال)
هوى جميع الأصوات وهشاً حاول الشجار الذين جاؤوا بقصد
الشراء حمل الحاضرين على التزام الهدوء والسكينة

وفي الواقع لم أشهد في حياتي اجتماعاً متباين العناصر شديد
الجملة كذلك الاجتماع لم أقالك معه من الشعور بالأسى وأخرون
عندما سمعت صخب الضحككات في الغرفة فيها التي لعلت فيها
تلك المخلوقة للسكينة أعمسا الأخيرة من أيام مدودة

كان غرضي من الحضور مجرد التسلية لا الشراء فذهبت أنامل
وجوه الفاتين الذين يباع الأثاث الحماهم ولقد كنت أسأروهم

تبسط كلما بيعت إحدى القطع بئس أعلى من الثمن الذي ختموه بها

كانوا جميعاً من التجار الشرفاء الذين استثمروا أموالهم في بقاء تلك المرأة الثمينة وبيعوها من التعامل معها أكثر من مائة في المائة ثم أرحموها في مساعيها الأخيرة بالمطالبة بديونهم المرحومة وقد جاءوا الساعة بعد موتها فجاء ثمن مخريراتها الشريفة ونحصيل فائدة أموالهم التي استرقوا قيمتها مراراً وتكراراً عما أحكم أولئك لاقتصاديين الذين كانوا يسبون طعمة التجار إلى خصيلة اللصوص!!

بيعت الثياب والحلي وأدوات الرينة بسرعة مذهشة ولم يكن في هذه الأشياء ما يهم المصور عليه فانتظرت صابراً إلى أن يصاح الدلال:

- ها هي نسخة من كتاب هامون يسكوه مجلدة لمجداً ماعزاً أيتها وفي صفحته الأولى بضع كلمات والنشر الأساسي المخذ عشرة فرنكات ..

فقال قائل بعد صمت طويل:

- اثنا عشر فرنكاً

فقلت:

- خمسة عشر فرنكاً.

ولا أدري لماذا أردت المصور على هذا الكتاب ربما كنت الكلمات التي في صفحته الأولى هي ما أخرجني بشرائه وصاح الدلال:

- خمسة عشر فرنكاً ..

فقال الرجل الذي تقدم أولاً لشراؤه:

- ثلاثون فرنكاً.

وكان صوته يتم عن التحدي فصاحت:

- أربعون ..

- خمسون

- ستون

- سبعون

فصرخت بعزم

- مائة فرنك

وساد صمت عميق ونظر إلي القوم في فضول ولا ريب أن لهجتي قد أفتت سامعي بأنني عازم على الحصول على هذا الكتاب مهما كان الثمن فأخفى فادته باحترام وقال:

- إنه لك يا سيدي

وهكذا أصبح الكتاب من حفي.

ثم كسفت أنه تسوّني حرارة المنافسة على شراء سواه إلى مثل هذا الإسراف فتركت هوائي للدلال وانصرفت دون أن ألقى نظرة أخرى على القوم لمعرفة مدى التأثير الذي تركه في هوسهم إنديمي على دفع مائة فرنك نمناً لكتاب أستطيع ابتاعه من أية مكتبة يمشي هذا الثمن الباهظ.

وبعد ساعتين أرسلت في طلب الكتاب وتصفحته ووقع بصري في الصفحة الأولى على هذا الإهداء مكتوباً بخط أنيق

«مانون تقدم خضوعها لمرحيت»

التوقيع لومان ديفال

وسكنت نفسي . . ما معنى كلمة «خضوعها»!

عن رأى السيد لومان ديفال أن «مرحيت» تعوق مانون في وجوه
العراية وأبعت حتى لتقدم إليها مانون فروض الخضوع؟!!

لم رأى أنها تعرضها في شدة الحساسية . وبين الماطمة
فاستحلت منها هذا الخضوع لتقدم إليها؟

كان الاقتراض الثاني اقرب إلى الاحتمال . لئلا الاقتراض الأول
فإنه لؤم لا يمكن أن تكون «مرحيت» قد سمحت به

وشغفتني شذوي الخاصة بعد ذلك من الخوض في هذا
الموضوع . ودخلت في باريس .

ولكني قرأت كتاب «مانون ليكوز» للمرة الثانية ، حتى صار
يخيل إلي أنني قابلت هذه المرأة شخصياً ، وهرفتها حق المعرفة ،
وشمرت بما هنالك من وجوه الشبه بين مصير مانون وعائلة
«مرحيت» ، وأحسنت حينها بالشفقة ، بل وبالعطف على المنة
التي أضلعت هذا الكتاب من مخططاتها .

وقصة مانون . كما وضعها الأب برينو . هي قصة خالدة لفئة
حسباً أحببت شاباً يدعى الشيفالييه دي جريو ، ثم كان من ولع
الفتاة بمظاهر الشرف والنعيم ، وإدخال الشب وفقره ، ما حصل
العاشقين على ابتزاز المال من بيل فاسق وقع في حبائل مانون ، ثم

شعر السبيل بما ذبواه واستسلم بعوده حتى أبعث مانون إلى أميركا ،
حيث كانت ترسل اليها والساخطاب ، وهناك ماتت الفتاة التبعة في
الصحراء من شدة البرد والتصب . .

قرأت هذه القصة مراراً كما أسفنت . وبم الثالث من المقاربة بين
مصير مانون تلك ونهاية «مرحيت» هذه .

لقد ماتت مانون في الصحراء حقاً . غير أنها ماتت بين دواهي
الرجل الذي أحباها بكل جوارحه . فحضر يوم قضت قبرها بيده
ولرؤاه يدمعه . . ثم دفنها . . ودفن قلبه معها .

أما «مرحيت» وهي خاطنة ضالة مثل مانون . ولعلها اعتدت
أجيراً كما اعتدت مانون . فإنها ماتت وسط الميم . وفي مثل
العرفه نفسها التي كانت هيكلها معجوراً . ولكنها ماتت وقلبيها في
صحراء لشد غواء وجباناً من الصحراء التي طنت جثمان مانون .

والواقع أن «مرحيت» . كما عدت من يصرغونها . لم تجد من
يسمها كلمة مرء أو ملوان طيلة الشهرين اللذين قضتهما في
فرائس المرض قبل أن تنفض أنفاسها الأخيرة .

ولجوت أفكارني وتآلاني عن مانون . وعن «مرحيت» إلى
فتيات أعرفهن . وما رلت أراهن مسرعات دون أكثرات . وهن
معمضات العيون . وعلى شعاهن ابتسامة . أو أهية . في الطريق
إلى موت محقق مخوف بالتمسة والوحدا .

فما تشقى أولئك المخلوقات؟ إتهن معرومات من الحب والعطف
على النساء .

إنما يشفق على الأعرج الذي لم ير ضوء النهار قط . ويشفق على
على الأصم الذي لم يسمع أصنام الطبيعة مطلقاً . ويشفق على
الأنكم الذي لم يعبس عن إحساناته ومشاعره لحظة . ولكننا
مومنون . نحكم العقائد الجارية الجوفاء . من أن شفق على عسى
القلب وصمم المروج وجمود الصمير تلك الصاعقة التي
تذهب بألياف هذه المخلوقات المتعيسة . وتعمي بصائرهم عن
العقائل الإنسانية . وتعم أذانهم عن سماع كلام الله . وتعمل
الستهم عن النطق باللغة الطاهرة الخفية لغة الإيمان والحب
الصحيح .



لقد ابتكر فكتور هوغو شخصية «ماريود ديلورم» وصور دو
موت شخصية بورتريت . . وتكلم هوما عن «فراندا» ولم يحل
المفكرين والشعراء في الأجيال السابقة بالمطعم على هذه الطبقة
الثمة من النساء . وحدث في كل زمان ومكان أن يعض المظما
ردوا بعضهم إلى سواه السيل . وذلك بأن أوقعوا عليهم عظمهم
ورعيتهم بل وأعطوه كذلك أسماهم وكنيتهم

وإذ كنت أطيل الكنية في هذا الموضوع فلأن كثيراً من
سيفع هذا الكتاب بين أيديهم سوف يقرأون صحفاته الأولى ثم لا
يترددون في إلقائه بعيداً عن أيديهم أنه كتاب يشفع على الرذيلة
وسرع اليقاع . ولكن ما أحد ظنهم عن الصواب فليحس
هؤلاء في القراءة دون خوف أو وجل



إنني على اعتقاد تام بأن المرأة التي لا يعنى التعليم حبيها إلى

الطريق القويم . تدفع بها الإقدام في غالب الأحيان إلى طريقين
طريق الحب وطريق الألم . وهما طريقان شديداً الوحشة تسلكهما
المسالكات بأقدام دامية . ولابد جرحية . ولكنهن يتركن أوسمة
الروية على أشواك الطريق . ويصن إلى بهايه الرحلة في حالة من
الحرى لا تجعلهن في نظر خالق الأكران .

فعلى الذين يصادفون أولئك المسالكات المقدمات أن يسطروا إليهم
بد المساعدة . وأن يديعوا على اللأ أنهم صادفوه . لأنهم ياداعة
هذه الحقيقة يرشدون الآخرين إلى الصراط المستقيم

وهل يمكن أن يصع على طريقتي أخيلة نوحثن مكتوب عليهم
هذا طريق الخير وهذا طريق الشر . ثم يكون بعبير السيل «اختر
لمسك ما يحلو لك» لا بل يجب أن مهدي العايرين الذين
هملوا واتحدصوا إلى المسالك التي توصل من الطريق الثاني إلى
الطريق الأول . وأن يحمل خصيصاً على تبير هذه المسالك وإزالة
العقبات منها وإليها

لقد كان السيد اميخ يعطف أشد المطف على النعوس التي
أدعتها الشهوات الدجوية . وكان يشفي هذه الجروح ببسم من
صديدها . ألهم يقل لمريم المجدية «سيمر لك الكثير لأنت أحببت
كثيراً ؟ فلماذا بأحد يتفائيد هذا المجتمع الذي يشتد ويضو لكي
يدو صرخاً ؟ ولماذا تنكر لهذه النعوس الدامية التي يمكن تطهيرها من
صديد ناعسي ولا تحتاج جراحتها إلا إلى مة واحدة من يد كريمة
فيرا وتتمل ؟

إن جهود المفكرين جميعاً تضي إلى هدف واحد . وأعداد
المقول جميعاً يبتدون بمبدأ واحد . ويسعون إلى غرض واحد

فهم يقولون : فلأخذ بأسباب المضيلة ولكن صادقين وأهم من ذلك كله يجب ألا يأس من النوع البشري ولكن من احتقار المرأة التي ليست أمًا ولا أحماً ولا ابنة ولا زوجة ثم دعونا لا نوقف كل احترامنا على عائلاتنا ، أو سمعنا عطفاً من أنانيت . ولنترك في طريق الحياة آثار رفقا بلونك الذين ضلوا سواء السبيل

ولا شئت أنه من الجفارة أن أنتظر من هذا الكتاب الصغير أن يحيي كل هذه المسائل ولكني من أولئك الذين يعتقدون بأن الشيء الصغير يحمل قطعة الشيء الكبير فالطفل صغير . . ولكنه نواة الرجل . . والعين كرة صغيرة . . ولكنها تحيط بفضاء الكون الشاسع

الفصل الرابع

دام البيع يومين وحصل مئذناً لا يقل عن مائة وخمسين ألف فرنك الخمسمائة الفاتون تشبهه وانتهى الثلث الباقي إلى أخيه مرغريت بصمتها ورثتها الوحيدة

وقد صحت الأخت عيبتها في دهشة حين كب إليها مسجل المفقود بينها بأنها ورثت خمسين ألف فرنك

وكانت مضت سبعة أعوام لم تسمع هذه الأخت شيئاً من مرغريت التي اختتمت فجأة في أحد الأيام وقطعت أخبارها عن أهداها وعن سائر معارفها فلم يطلعهم شيء عن حياتها منذ اختتمت

ودُعيت الأخت إلى باريس لتسلم الميراث ، ولشد ما كانت دهشة أصدقاء مرغريت حين أبصروا في أختها فتاة رقيقة ساذجة بديلة

الخمس موزعة الوجتين لم يسبق لها قط أن برحت مسقط رأسها وقد عادت هذه الأخت إلى مررتها على الأثر ولم يخفف من حزنها على شقيقتها إلا شعورها بالبلغ للظن الذي يملأ جيوبها



وردت باريس - عاصمة المضائق - هذه الحقائق الأخيرة من مرغريت وأختها ثم بدأت تدخل سائر السجون على الغاية التي كانت في وقت ب ملة السجون وكان اسمها مله الأندوه وسمعتها مله الأسماك

ولكن حدث بدوري أن أنسى ولكن حدث فجأة حادث جديد حمل إلي تاريخ مرغريت كله بما فيه من تفصيلات مؤثرة أُرحت إلي أن أسجل قصتها المؤلة بنصها مسجلتها



في صباح أحد الأيام سمعت طرفاً على باب شقتي فذهب الخادم إلى الباب وعاد يحمل إلي بطاقة ويقول إن صاحب يرغب في التحدث إلي

نظرت إلى البطاقة فوجدت فيها هذا الاسم :

لوران ديفال

وحاولت أن أذكر أين قرأت هذا الاسم من قبل . . وسرعت ما تذكرت الصفحة الأولى من كتاب دانتون ليكنوا .

وتسببت نري ماذا يريد مني هذا الرجل الذي أهدى نسخة الكتاب إلى مرغريت ؟

ولمتر الخادم أن يدعو للدعوى

وما هي إلا لحظة حتى دخل علي شاب طويل القامة شديد

استقام الوجه ، يرتدي ثوب سمير أدركت من الفيل الذي يعلوه أن صاحبه لم يستبدله منذ بضعة أيام ، بل ولم يعكر في رفع العار عنه منذ وصوله إلى باريس .

ولم يحاول السيد ديفال إخماده نلغره وسمعائه ، فقال والدموع فلا عيبه

- سيدي أرجو المندرة من تطفي برزتك في هذه التيات الرثة فإن رغبتي في مقابلتك بأسرع ما يمكن حملني أخس بقضاء بعض الوقت في القصر الذي احتجرت فيه غرفة لاقامتي في باريس وقد جئت إلى ها مباشرة لأخبر بك قل أن ترح بينك .

فرجوت أن يجلس بالقرب من الموند صجس وأخرج من جيبه منديلاً جفف به عينه قال وهو يشم يأساً :

- لا أشك أنك لا تستطيع أن تدرك ماذا يأتي رجل حبيب يطلب صفيلتك في مثل هذه الساعة المبكرة وهو يريدني مثل هذا الشوب ويكي بكاء الأطفال ولكي رجل سمعته الحسود يا سيدي .. وقد جئت أطلب خدمة عظيمة على يدك .

- تكلم بحق السماء يا سيدي ! وعدم أنني سأكون سعيداً إذا استطعت أن أخدمك

- أعتقد أنك شهدت بيع مخلفات مرخيت جوتييه . واشتد به التأثير والأعمال عندما ذكر هذا الاسم فأخى وجهه بين كفيه وتمعج باكياً . ثم استرد :

- أعني أن يبدو سلوكي في عيبك مدعاة للسخرية ولكي أرجو معلونك ولأنك ذلك أنني لن أنسى ما حيت سعة صدرك وعنايتك بالإصغاء إلي .

فأجبت وأن أتمر بإشفاق حقيقي على هذا الشاب الحزين - سيدي .. إذا كان من شأن الخدمة التي تمنقذ أنني أستطيع تقديمها أن تخفف من حزنك ولك . فأرجو أن تذكرها في الحال وسيكون من دواعي سروري أن أجيبك إلى ما تطلب فقال :

- هل أبحث شيئاً من مخلفات مرخيت جوتييه ؟

- نعم .. لقد أبصت كتاباً .

- كتاب دمايون ليسكو ؟

- هو ذلك

- وهل ما قلت أخصص بهذا الكتاب ؟

- إنه لي غرة نومي .

مدت على وجهه أمداب الارتفاع وراح يشكرني كما لو كان احتاظي بهذا الكتاب هو الخدمة التي جاء يطلبها

وبهضت إلى مخدعي وجئت بالكتاب ووضعت بين يديه فقال بعد أن ألقى نظرة على الصفحة الأولى :

- نعم .. نعم هذا هو الكتاب .

واحدت من عيبه دمعان كبيرتان سقطت على تلك الصفحة ثم رفع رأسه وقال دون أن يحاول إخماده الدمع الذي يترقرق في عيبه

- أرجو أن تشي يا سيدي هل تعلق أهمية خاصة على هذا الكتاب ؟ !

- لأنني أريد أن أخرجك في أن تسمح لي به .

فأجبت بهنئ .

- معذرة من فضولي يا سيدي ولكن هل أنت الذي أعدت هذا الكتاب إلى مرغريت جوتييه ؟

- نعم

- إننا فالكاتب لك يا سيدي فعده وأنا سعيد بأن أردت ذلك

فقال في شيء من الحيرة :

- ولكن يجب أن تسمح لي على الأقل بأن أرد إليك النسخ الذي

دفعته للحصول عليه

- أخرجوك أن تقبل الكتاب مني يا سيدي أما تسمه فكان من

المنفعة بحيث لا أستطيع إلا أن أذكره .

- إنك فعلت مائة من الممنوعات ثمتاً يا سيدي

فعلتني الحيرة بدوري وأجبت

- هذا صحيح . . ولكن كيف علمت ؟

- الأمر بسيط ، مبني كنت أرجو الوصول إلى باريس في الوقت

المناسب قبل المراء الطلي ولكنني في الواقع لم أصل إلا هذا

الصباح ولما كنت مصحفاً على الحصول على شيء من

معلوماتها مبني أسرعحت إلى الدلال وطلبت إليه أن يسمح لي

بالاطلاع على قائمة الأثبات التي بيعت وأسماء الأشخاص التي

اشتاعوها ووجدت أنك الذي اشترت هذا الكتاب فقررت أن

أخرجوك في الروي عنه لي وإن يكن النسخ الذي دفعته قد لوقع

في روعي أنك لا بد تعلق على الكتاب أهمية شخصية قد يملك

وفهمت من هذه العبارة لأخبره أنه يحسن أن أكون قد عرفت

مرغريت كما كان هو يعرفها . فأجبت نكي لويل شكوكه

- أنا لم أعرف الأثبات جوتييه إلا شكلاً واسماً وقد ترك

موتها في نفسي الأثر الذي يتركه وفاة موت الصبية الجماء في نفس

شخص ضا أن يعجب بجمالها وفنتها . ولذلك رجعت في سر

شيء من أمتعتها ووقع اختياري - ولا أعلم السبب - على هذا

الكتاب ودعيت فيه هذا النسخ على سبيل الضاد تحدياً تنافس كان

يريد الحصول عليه أيضاً .

والكتاب - كما قلت - تحت تصرفك فأخرجوك في بيوتهم عربوناً

صداقه ألقى أن تكون قواصرها بيتاً في المستقبل .

فأجبت لومان وهو يشد على يدي :

- عيبك ذلك يا سيدي إني أقبل هذا العربون ومصادرك

فصمك وكرمك ما حيت .

وكت وددت لو ألقى عليه بضعة أسئلة من مرغريت . لأن

الكتاب الذي أعده إليهم وانتمامه بالحصول على شيء من

معلوماتها كذا ذلك آثار قصوري ولكنني عرفت أن ألحق عليه

في السؤال بمقد أنني رفضت ثمن الكتاب لأستبيح لنفسي الحق في

التصعل على شؤره اعتماداً على وفاته وامتنانه لي

وأكر ظني أنه أحرك ما يدور بخلدي ، لأنه قال -

- هل قرأت هذا الكتاب يا سيدي ؟

- بل قرأته أكثر من مرة .

- وما قولك حقاً في الكلمات التي كتبتها في الصفحة الأولى؟

- إنني مهتم بالأول وعلة أنك لمست في تلك الفتاة المتحيرة ما يرقى بها فوق مستوى طبقتها . ولم يحضر يالي قط أنك قصدت بهذه العبارة شيئاً من الهزء والسخرية بها .

- أصبت يا سيدي . هو ذاك . فقد كانت هذه الفتاة ملاكاً كريماً . . إليك هذه الرسالة غفراها

وقدم إليّ رسالة تذكر أطرافها على أنها مشرت وطلبت آلاف المرات ببسطة الرسالة بين يديّ . وفراحت فيها ما يلي
دهريزي أرماني .

«تسلمت رسالتك . وأحمد الله على أنك لا تزال كريماً كمهدي بك من اهتمامك بلهري . يرفقه كثيراً من الآمي . ولكم أود لو يمتد بي الأجل حتى أسعد مرة أخرى بضبط اليد الكريمة التي كتبت الرسالة التي سلمتها في الترو واللمحة . وكسبتها بلغة نكهي في دلتها دشغاني . . إن كان لعليّ دواء يشفيها .

«ولكن لا أمل لي في لغاتك مرة أخرى . لأنني أقرب ما أكون إلى حظي . . وبينك مئات للأرحل .

«يا صديقي المسكين . إن سرهيت التي هزمتها في ما مضى قد تبهكت شيدلاً صحرناً . . وربما كان من الخير ألا تراها أبداً . فذلك أفضل من أن تراها كما هي عليه الآن .

«نسألني أن أصفح حك . ولاني لأصفح عن طب خاطر . ولاني ما أصابي من صحت لم يكن . لا دليلاً على قرط حك

«إنني الأرم العراش منذ شهر . ولستقطع بعض الوقت في كل يوم على كتابة يومياتي منذ افترقنا ، وسأواصل الكتابة حتى أحجز

عن حمل القلم .

«فإنما كان يهتك آرمي حقاً يا أرماني . فاقصد إلى جوب ديار حقت هودتك إلى باريس . فتقدم إليك هذه اليوميات وسها تعلم سرّ تحوكي حك وأسيبه

«ومنى انتهت إليك يومياتي فلا تشكري عليها . فإن كتابتها كنت تذكري يوماً بأحد ساعات حياتي . فترقه الذكرى من الآمي . وبحسبك أن تجد فيها ما يسوغ سلوكي . وبحسبي أنني وجدت في كتابتها ترميها وسدوى

«ولقد كك أود أن أترك لك شيئاً من متاعي تذكري به . ولكن كل أمتني قد حجرت . وأصبحت لا أملك شيئاً حتى الثياب التي أرتديها

«اهل تهمسي يا صديقي؟

«إنني أدبو من الموت ، وأسمع وأنا طريحة الفراش وقع خطوات المرحل الذي ألقاه الدانوب في بيتي لحراسة أمتني حتى لا يُنقل منها شيء . . وحتى لا يبقى لي شيء . إذا حدثت ونجوت من الموت .

«على أن كل ما أرجوه هو أن يرجعوا البيع قبلاً حتى يقضي الله فيّ بقضائه . .

«هذه هؤلاء الناس لا رحمة في قلوبهم . ولكن لا هذه هذه الساء التي لا تُعمل ولا تعمل . .

«وإنما . لم يبق لك يا صديقي . إلا أن تشهد البيع وتشري نفسك شيئاً من متاعي . فإني إذا خبأت لك شيئاً معها كان نافعاً ثم اكتسب قد لا يتردد القوم في انهبك بالاستيلاء على شيء محجور «لأود . ما أتمنى هذه الحياة التي لو شئت على الخروج منها

وكم لود لو ترفع السماء تسمع لي يا أراك مرة أخرى قبل أن
أموت ! ولكني أرجح أنه يموت عمي الآن أن لودعت معصوا يا
صديقي إن كنت لا أميل الكتابة إليك فإن المرضي هذا قواي
وأصابعي عاجزة عن توجيه القلم .

مرحمت جوتييه

والواقع أن الكلمات لأحيوة من الرسالة كانت مضطربة لا
تكاد تقرأ .

ورددت الرسالة إلى أرماني ولا شك أنه كان سعيد مضمونها
في ذاكرته ربما كنت أتقرأ لأنه قال وهو يترجمها
- من ذا الذي يصدق أن كتابة هذه الرسالة تنتهي إلى تلك الطبقة
من النساء؟؟

وأما صيته مرارة الذكرى فنظر إلى الرسالة طويلاً ثم رفعها
إلى شمتيه
واستطرد

- كلما فكرت في أنها ماتت دون أن أراها وفي أنني لم أراها
أبداً مرة أخرى وكلما فكرت في أنها قد فعلت من أجني أكثر مما
تفعل الأحب من أجل أحييها كلما فكرت في ذلك شعرت بأنني
لن أحقر لنفسي أنني تركتها لموت هكذا .

بعم لقد ماتت ماتت وهي تمكر في وتكتب إلي
وتردد اسمي . . فيا لها من خلق مسكينة !

ودفن وجهه بين يديه وبقي كذلك لحظة ثم استطرد :

- قد يحب علي الناس أن أكتب موت فتاة كمرعيتي ولكن
الناس لا يعلمون كم تألمت لأجني وكم قسوت عليها
فصمتت وظلمتها فأذهت

كنت أظن أنني الذي يجب أن يفر ويصيح أما الآن فأرى
أنني لست جديراً بحقوقها وصحتها

لأوه - إنني أترن من عشرة أعوام من حياتي لأنني ساءة تحت
قدميها .

شعرت بالشفقة والعطف على هذا الشاب الذي كشف لي آلامه
وأحزانه بهذه الصراحة . . فقلت له :

- أليس لك أثار أو أصدقاء؟ ادعهم ليرأونهم يا صديقي فقد
يلطف لقائهم بعض ما بك - أما أنا فلا أستطيع إلا الرثاء بك
والإعجاب عليك لما كنت فيه .

فقال وهو ينهض واقفاً ويسير في الغرفة جيتاً ودعياً
- صدقت - إنني أحببتك فمعدرة إذا كنت قد سببت أن
آلامي وأحزاني لا نهلك إلا قليلاً يا سيدي

- أنت نسيء فهم كلامي - فما أردت منه إلا التعبير عن أسفي
لمجري عن تطليق حزنك ومواساتك

ولكن إذا كانت صحتي أو صحة أصدقائي ترقه من
آلامك لو كان في استطاعتي أن أقدم إليك أية خدمة من أي
نوع . . فقل لله يسرنني أن أفعل من أجلك ما تريد .

فأجاب بعين حزينتين

- إن الحزن المبرح يرهق الشعور ويضعف الحساسية واسمح

الفصل الخامس

انقضت فترة من الزمن لم أسمع في عيالاتي شيئاً من أرماني
في حين سمعت الكثير عن مرغريت . والواقع أنه يحدث في
بعض الأحيان أنك لا تكاد تسمع اسم شخص لا تعرفه أو لا يهتك
أمره حتى تبدأ المعلومات تتجمع من تلقاء نفسها حول هذا الاسم
وحتى تجد فجأة أن أصدقائك يرددون هذا الاسم ويحدثون عن
صاحبه . وهم الذين لم يتحدثوا عنه ولم يذكروه على مسمع منك
من قبل . وحيث تدرك أنه سبق لك أن رأيت صاحب الاسم
واجتمعت به مراراً فدون أن تثبت ذلك .

على أن ذلك لم يكن شأني فيما يخص مرغريت . فقد سبق
أن رأيت هذه الفتاة وقابلتها . هير أن اسمها طرق سمعي مراراً منذ
يوم بيع اثاث بيتها . وكان في بعض الأحيان - كما حدث في
الاسب التي سبقتها في الفصل السابق - مروجاً بكثير من اللوعة
والأسى ، فثارت دهشتي . وشعرت بضرب شديد إلى معرفة المزيد
من أسر هذه المرأة التي حُبل إلي أنها ليست كسائر النساء في
طبيعتها

وكانت السببة التي قابلت واحداً من أصدقائي الذين لم أجد
إليهم قط عن مرغريت . ودار بيني وبينه الحديث التالي

- هل كنت تعرف مرغريت جوتيه؟

- خلا الكاميليا؟

- نعم هي من أقصد

- كنت أعرفها حين المعرفة

في البقاء هنا بقع دقائق حتى نجو دموعي لكيلا يقول
العضويون في الطريق إنهم شاهدوا طفلاً كبيراً يبكي
لقد أدبت لي خدمة جليلة بإعطائي هذا الكتاب . ولست أعرف
كيف أستطيع أن أعبر لك عن خالص شكري وبمتاني
لما جئت :

- بل تستطيع ذلك . بأن تشرني بصداقتك وتحديثي لأسباب
حزنك وأدبك . فالإنسان يجد كثيراً من العزاء في البوح بالآلام
ومتاعبه

قال :

- هذا صحيح . ولكني لأن متعب خائر القوى وأحشى ألا
تسمع مني كلاماً معيولاً . هل أنت ستعرف مصني في أحد
الأيام . وترى إن كان يحق لي أن أكون على تلك الفتاة المسكينة
أنا الآن . فأرجوك أن تقول لي يسي لم أقتل عليك . وأنت
تسمح لي بزيارتك مرة ثالثة .

قال ذلك ولي جنبه نظرة دقيقة حبيته إلي .

ثم تلهت عنه بسحب الدمع وشاح بوجهه .

صت به بصوت خافت

- تشجع يا صديقي . . وخفف عنك .

فودعني ومشى إلى الباب . . وأقبل منه على صجل .

وحركت ستار نافذتي . ونظرت إلى الشارع . فرائته يش إلى

مركبة كانت في انتظاره . . وما كادت المركبة تتحرك به حتى دفر

وجهه في مثيله . . والفجر ياكيا

وكانت عبارة الحق المعرفة تقتصر دائماً بالمتسامية لا يحصى
معرف

- حناً وماد تعرف عنها؟

- كانت من بنات الهوى

- هل هذا كل ما تعرفه؟

- يا إلهي نعم وأعرف كذلك أنها تختلف عن مثيلاتها
بذخه روحها وثقله حساسيتها

- ألا تعرف عنها شيئاً نمتص به عن غيرها؟

- نعم أعرف أنها كانت سبباً في إفلاس البارون دي جـ
- فقط؟

- وكانت عشيقته شيخ هرم هو الدوق دي -

- هل كانت عشيقته حقاً؟

- قيل هذا - ومهما يكن من أمر فقد صعدت مبالغ جسيمة

وهكذا لم أكن أسمع دائماً غير أحفادك المطلقة بصفتها خاصة

والمعلومات الشائعة التي تلوكتها لألس عن المستهترات بصفتها عامة

بيد أنني كنت أشوق إلى معرفة شيء محقق من الصلة بين مرغريت

وأرمين ديفال - ودامت يوم فاهت رجلأ يعرف الكثير من أمور النساء

دوام الفتاة الباردة في أوساط اللهو والعميت - صالته إن كان قد

عرف مرغريت جوتيه فأجاب الحق المعرفة .

وسألته

- عن أي نوع من النساء كانت مرغريت؟

- أجاب :

- كانت حياء عليه القلب وقد لعبت لوتها أشد اللعب

- هل كان لها عشيق يدعى أرمين ديفال؟

- أرمين شاب طويل أشقر؟

- نعم -

- كان عشيقها حقاً -

- وماذا تعرف عن هذا الشاب؟

- أظن أن هذا الشاب قد أتمق على مرغريت كل ثروته الضئيلة

ثم اضطر إلى هجرها - ويقال إنه كان يحبها حب جنون

- وهي .. هل كانت تجه؟

- الظاهر أنها كانت تعظم عليه - ولكنك تعرف معنى العظم

عند هذا الطراز من النساء -

- وماذا صار إليه أرمين؟

- لا أعلم بالأسف - فقد كاتب معرفتي به محدودة - واعتقد

أنه قضى مع مرغريت خمسة أو ستة شهور في الضواحي

ولكنهما اختلفا حينما عادت إلى باريس

- ألم تره منذ ذلك العهد؟

- كلا -

•

ولما بدوري لم أر هذا الشاب بعد زيارته لي - فقلت لصبي إنه

جاء لزيارتي مباشرة بعد أن هدم على موت مرغريت - أفلا يمكن أن

يكون هذا إلا قد أحيا عرامه القديم - وأثار بالتالي حزنه وبأسه؟

علماً بأن المرأة الأولى محمد فرامه وثلاثي حزنه والمحت حسرة

مرغريت من عبه فسيها وسي تبعاً لذلك وعده بأن يأتي لزيارتي

مرة ثانية؟

كان هذا الاتراض محتملاً بصمة عامة ولكني لم أستطع أن
أذكر أنني لحست في حروبه شيئاً كثيراً من الإخلاص والصدق حتى
خطر لي أن يأسه وحروبه ربما انقلبا إلى مرضى وأن انقطاع أخباره
ربما كان دليلاً على شدة مرضه . أو هلاكه .

■

وشعرت على الرغم مني بأن أمر هذا الشاب يهمني ولعلته
اهتمام لا يحدو من الحسرية والفصول إلى معرفة سرّ صمته
واختفائه .

وأخيراً ولما لم يأت أرماء ديفال لزيارتي مررت أن أذهب
أن لزيارته ولم يكن من المتعذر عليّ التماس سبب لهذه الزيارة
ولكن من سوء حظي أنني لم أكن أحرف عنوانه ولم أجد بين
أصدقائي من يرشدني إلى مكان إقامته

فصددت إلى بيت مرعريت في شارع دانقان فقد يعرف بواب
السبت هناك عنوان أرماء ولكني وجدت هناك بواباً جديداً لم
يسمع قط باسم أرماء ديفال .

راستعسرت عن المكان الذي يوجد فيه قبر مرعريت فطلعت
أنها دفنت في مونغارتر

كان وقتئذ في شهر نيسان/ أبريل .. وأجلو بديع .. وقد خلعت
المقابر عنها وحشة الشتاء .. وصلى اللغص يطري الأحياء بزيارة
الأموات ففصدت إلى مداخل مونغارتر وأنا مفتتح بأن نظرة واحدة
إلى قبر مرعريت تكفي للدلالة عن ميلع أسى أرماء لأنني قد
أعرف من حارس المقبرة ما صار إليه أمر هذا الشاب

ودخلت غرفة الخاروس وسألته عما إن كانت فتاة تدعى مرعريت

جوابه قد دفنت في تلك المقبرة في يوم ٢٢ شباط/ فبراير
بحث الخاروس في دفتر كبير يتضمن أسماء أولئك الذين انتهى بهم
الطاف إلى مداخل مونغارتر ثم أجابني بأن هناك حقاً صبية بهذا
الاسم قد ووريت الثرى في مونغارتر في ذلك اليوم .

ودرجته أن يرشدني إلى قبرها لأن الإنسان لا يستطيع بغير
دليل أن يعرف طريقه في مداخله موتى وإن تكن لها مسالك
وشوارع كمدن الأحياء .

دعا الخاروس يستأني الدفن وذكر له مكان القبر وأمره أن
يلعب بي إليه ..

قال البستاني وهو يرافقتي :

- ليس أسهل من الاعتناء إلى هذا القبر ..

- لماذا ؟

- لأنه مزين بأزهار تختلف عن أزهار سائر القبور .

- لعلك أنت الذي تسمى بأزهاره ؟

- نعم يا سيدي . وكما أود أن يرى الناس موتاهم كما يرى

الشباب الذي عهد إليّ العناية بهذا القبر .

وبعد أن اجتاز بي بعض المسالك .. وقف وقال :

- هو ذا القبر يا سيدي

ورأيت أمامي نلأ من الزهور البيضاء لا يظهه الإنسان فبراً لولا

الشاهد الرخامي الذي يحمل اسم صاحبة القبر

كانت جميع الزهور من نوع الكليليا .

قال البستاني :

- ما قولك في هذه الزهور ؟

- هذا ببيع حقاً .

- وقد صدرت إليّ الأوامر بأن استبدل دهور الكامبلا بولعا كلما ديلت

- ومن ذا الذي أصدر إليك هذه الأوامر؟

- شاب بكى بكاء مرّاً عندما جاء إلى هنا لأول مرة . ولعله كان من عشاق صاحبة القبر . فقد قيل لي إنها كانت من بنات الهوى . وكاتب على حجاب عظيم من الجص والطينة هل كنت تعرفها يا سيدي؟

- نعم . .

- هل كانت لك بها صلة مثل صلة ذلك الشاب؟

- وارتسمت على شفتيه ابتسامة ذات مقزى .

- أجهت

- كلاّ . إنني لم ألتفت إليها قط .

- ومع ذلك تزور قبرها؟ ذلك منك علامة الكرم وسل الخلق

فإن رائي قبر هذه المخلوقة مسكينة لا يملأون يدني .

- هل تعني أن أحداً لا يزور هذا القبر؟

- لا أحد غير ذلك الشاب الذي حدثتك عنه . وقد زاره مرة

وبسلة لا غير .

- مرة واحدة فقط؟

- مرة واحدة فقط .

- أتم يأت بعد ذلك؟

- كلاّ . . ولكنني أتذكر أنه سيأتي متى عاد .

- لقد سافر إنذا؟ هل تعلم إلى أين ذهب؟

- اعتقد أنه ذهب لزيارة شقيقة أخته مرعريت جوتييه

- ولماذا بحق السماء؟

- ليرجوها أن ترخص له في إخراج الجثة وتدفنها من هذا القبر

- ولماذا يريد أن يفعل ذلك؟

- آه . أنت تعلم يا سيدي أن للناس في الموتى عقائد عجبية

عربية . وبعضها شاهد ذلك كل يوم . وهذا القبر هنا استؤجر لمدة خمسة أعوام فقط . ولكن الشاب الذي حدثتك عنه يريد لصاحبه قبراً يخلد فيه حشائنها . ويريد أن يكون القبر في مكان ضيق بالمدفن الجديد .

- أي مدفن جديد تعني؟

- ذلك الذي يُسمى الآن نصف هذا المدفن . أضف إلى ذلك أن

لحضر السيد عقائد شاذة تحمر مثل هذا الشاب إلى نقل جثمان

صاحبه من هذا المكان

- لماذا تعني؟

- أصي أن بعض الناس لا يشركون صلصهم وكبرياءهم بباب

المدفن . ولعلك تعلم أن هذه الأتسة مرعريت جوتييه كانت من

أولئك النسوة اللاتي يعشن عيشة سرية . ويعترف أكبر قدر من

لذلك الحياة هي أقل غشراً من الوقت . والآن ، ها قد صارت هذه

المسكينة . ولم يبق منها غير ما بقي من سواها ثم لا تالهم الألسنة

بالقيل والقال . ولكن بعض الناس بل أكثر الناس يرمون بوجود

جذنها بخفية من موتاهم . ويقولون إن من عاش عيشتها يجب أن

يدفن بمقبرة خاصة . . بعيداً عن مقابر الشرفاء . عهد سمعت في

حياتك يمثل هذا يا سيدي؟ غير أنني أقيت عليهم درساً بن

يسوءه . أولئك المنفقون الذين يسجدون على قبور موتاهم دموعاً لم
يسرفوها ويرعمون العطف على موتاهم وهم لا يروون قبورهم
إلا مرة واحدة في كل عام .

صدقتي يا سيدي أني لم أعرف هذه المساة ولا أعرف ماذا
صمت في حياتها وبكتي مع ذلك أحبها وأعطت عليها وأعي
بقبرها وأجلب بها أبعد زهور الكاميليا بأقل ثمن ممكن

إن قبرها أحب القبور إليّ . ونحن خدام المذاهب مرعمون على
أن يحب الموتى لأنهم يملأون عراشا . وليس لدي منسج من الوقت
لكي يحب أحداً آخر .



وأحب أني لست بحاجة إلى وصف الشعور الذي كان يمتلئ
في نفسي وأنا أصغي إلى حديث هذا الثاني المحب الأمي . ولا
شك أن الرجل لاحظ الفعالي لأنه مضى بفرق :

• يقولون إن كثيرين من الشبان حلوا على أنفسهم النار والدمار
من أجل هذه الفتاة ، وإن بعض عشاقها كانوا يحبونها حب جوي ،
وبكتي لا أملك من الشعور بالأسى والإنشاق كلما فكرت في أن
أحداً من هؤلاء العشاق الكثيرين لم يأت لزيارتها أو ليضع على
قبرها زهرة واحدة !

ولكن لا إنها ليست بحاجة إلى الشفقة والثناء من أحد
بحسبها ذلك الشاب ، فإن حرره عليها يريد على حره سائر عشاقها
مجنمين ، وأجدر بها بالشفقة والثناء فتبات على شاكلتها وهي مثل
سهب يلقين ه في المقبرة المساة مع المجهولين والمهمسين ولا يكثر
فيهن إسماء بعد دفنهن .

لأن مهتاً ليست من المهن السارة يا سيدي . ولا سيما لرجل
عقلي يعرف معنى الخنا .

إن لي أمة حساء في العشر من عمرها وكلما حيء بمساء
مينة في مثل مسها كلما أتصرف دعني إلى لبتي وحررت على الميتة
فيها تكن مكنتها في المنع .

وصمت الرجل لحظة ثم استرد

- أرى أنني أدخلت السام على نفسك يا سيدي . فإني لم تأت
بغير شك لكي تصني إلى حلفت رجل مثلي .

لقد طلب إلي أن أرسلك إلى قبر الأمسة مرغيت جوتييه . هـ
هوذا القبر فهل أستطيع أن أكرم إليك أخدمة أخرى ؟
نكتة

- هل تعرف عنوان السيد أرمان ديفال الشاب الذي رار قبر
مرغيت ؟

- نعم يا سيدي . إنني أعرف بيته . أر على الأقل البيت الذي
أذهب إليه للحصول على ثمن هذه الزهور التي تزورها
ودكر لي العنوان فشكرته . وألقيت نظرة أخيرة على ذلك القبر
الصغير المغطى بالزهور البيضاء . ووددت لو أستطيع أن أعود
بيصري إلى أحفائه لأرى ما فعل القبر البارد بالخدمة المساء التي
لقد رعت جوفه .

سأنتي البستاني :

- هل يرغبت سيدي في مقابلة أرمان ديفال ؟

- نعم .

- لكنني واثق أنه لم يعد . . ولو عاد ليدر إلى مقابلي .

- أنت منفتح إذا بأنه لم ينس مرغيت ؟

- إنني لست مقتنعا فحسب بل إنني واثق كملك من أنه لا يريد تغيير مكان قبرها إلا لأنه يريد أن يراها للمرة الأخيرة
- وكيف ذلك؟!

- لقد كانت أول حيلة قالها لي عندما دخل هذا المدفن أنه سألتني
«كيف أستطيع أن أراها مرة أخرى؟» والإنسان يا سيدي لا يستطيع
أن يرى الميت بعد دفنه إلا إذا نقل جثته من قبر إلى آخر وقد
قلت له ذلك وأوشدته إلى ما يجب عمله ولما كان من
الضروري التحقق من اجتهاد قبل نقلها، وكان لأسرة الميت وحدها
حق المطالبة بنقل جثته، فلقد قصد السيد دهقان شقيقة الأخت
مرحوم جوتي لكي يحصل منها على الترخيص اللازم ويرجوها
أن تبيعه عنها في الإشراف على نقل الجثة ومضى ثم لم يلبث أن
أول شيء يفعله دون شك هو أن يأتي إلى هنا

بلما في هذه اللحظة باب المدفن مكررت شكري للبستاني
وبعته قطعة من النضود وقصدت إلى الصوان الذي ذكره لي
هناك علمت أن أرمان لم يعد من رحلته بعد فتركت في بطاقة
رجوعه فيها ألا يختلف من زيارتي هذه عودته أو أن يدكر لي
على الأقل أين أستطيع مقابلته . .

وبعد يومين تسلمت رسالة من بيبي فيها بعودته ويرجوني أن
أذهب لزيارته لأنه منتصب إلى أقصى حد ولا يقوى على معاداة
فرائشه .

الفصل السادس

وجدت أرمان كما ذكر لي في فرائشه فحسب يده إلي

مصادفا وشعرت بيده تكاد تلتصق
قلت له

- أنت محبوم يا صديقي !
فأجاب

- ليس بي من شيء . . إلا التعب جراء رحلتي السريعة

- هل قابلت أخت مرحومتي؟

- نعم ولكن من أنباك بذلك؟

- إنني أعلم وهل حصلت منها على الترخيص المطلوب؟

- نعم ولكن أسألك مرة أخرى من ذا الذي أبسألك بأمر

رحلتي والعرض منها؟

- بستاني المدفن

- هل رأيت القبر؟

- ظم أحمر على الإحانة

كانت سررت صورته فقال لي أنه لا يزال نوبة الحمى الذي رأيت
أعراضه عندما فلقته أول مرة فكأن حديثي في هذا الموضوع يهزون
من شأنه أن يريد لله ووجده . . لذلك سمعت بأن أحيت رأسي
علامة الإيجاب

سألني :

- هل اعنتي البستاني بالقبر؟

- كل العلية .

وما تحدثت على حده دمعتان كبيرتان فأنشاح بوجهه
ليخفيهما وتظاهرت من ناحيتي أنني لم أر دمعه وحاولت أن
أغير مجرى الحديث قلت

- لقد انقضت ثلاثة أسابيع منذ رحيلك -

فأجاب :

- نعم ثلاثة أسابيع كاملة

- هل كانت الرحلة طويلة؟

- ان لم أنقض الوقت كله في السفر - فقد أقسمتني المرض
أسبوعين - ولولا ذلك لعدت منذ وقت طويل - ولكنني في الواقع
ما كدت أصل إلى نهاية الرحلة حتى انتابني الحزن فلزمت مرضي

- وقلت راجعاً قبل أن نيل من مرضك؟

- لو أنني مكثت أسبوعاً آخر في ذلك المكان لهلكت دون شك

- أما وقد عدت الآن فيجب أن تُعنى بنفسك كل العناية

- بل سأبرح القرائش بعد ساعتين -

- تلك هي الحفاقة يعنيها -

- لا بد أن أفعل ذلك -

- وماذا يرضيك؟

- يجب أن أقالب ضابط الشرطة للاتفاق على موعد نقل الجثة

- ولماذا لا تشدب شخصاً آخر في هذه المهمة التي قد تضاعف

مرضك؟

- هذه المهمة هي الشقاء الوحيد لسقمي - إنني أريد أن أراها

و يجب أن أراها ..

منذ وصل إلي بيا موتها - أو على الأصح - منذ رأيت قبرها

وأن لا يفطن لي جرحي - ولا أستطيع أن أصدق أن هذه العصابة

التي تركتها معلقة جماًلاً وشامخاً قد ماتت - يجب أن أراها لأتحقق

بنفسي - ويجب أن أرى كيف أصبحت هذه المخلوقة الحسنة التي

أحببتها بكل كيائي - قلل هول منظرها يرفه من الآلام الذكري

سسرقتني - أليس كذلك؟ أصي إن لم يكن في ذلك ما

يتمك

- وماذا قالت أختها؟

- لا شيء - فقد أدهشها كثيراً أن يهتم حبيب مثلي بشراء قطعة

لرؤس ولباء قبر مرعوت - ولكنها أمدتني بالترخيص الذي طلبته

بغير تردد

- أنصح إلي يا صديقي - إنني أنصح لك بتأجيل نقل الجثة إلى

أن تقرأ من سقمك وتسترد عافيتك -

- صديقي أنني سأتمكن من إتمام هذه المهمة إلى النهاية - بل

إنني قد أجز إن لم أفرغ منها بأسرع ما يمكن - وقد قلت لك إنني

لن أهدأ بالاً وأطمئن يوماً حتى أرى مرعوت .. وربما كانت هذه

الرغبة ولبدة الحمى التي تسري في عروني - أو ضرباً من الجول

والهذيان - ولكنني مصمم على تحقيقها مهما كانت الأعباء

قلت

- إنني أفهم شعورك - وسأصعب نفسي في خدمتك - هل قابلت

حوليا ديبار؟

- نعم - قابلتها بعد عودتي

- وهل أعطتك بومبات مرعوت؟

- نعم .. ها هي ..

وأخرج من تحت وسادته حزمة من الأوراق - ثم ردها إلي

مكاتها في الخلق وهو يقول :

- لقد حفظت محاسن هذه الأوراق عن ظهر قلب - لأنني

فراقتها عشر مرات في كل يوم من أيام الأسبوع الثلاثة الأخيرة
وسبقوا، أنت كذلك ولكن فيما بعد عندما استرد هيدوي
وسكيتي . ويصبح في مقبوري أن أوصح لك ما نضمت من حب
والتم لهما الآن فإني أسألك أن تسدي إليّ خدمة
- أنصح عما تريد

- هل مركبتك في انتظارك؟

- نعم ..

- هل لك إذاً في أن تأخذ جواز مصري ونطلق به إلى مكتب
البريد لتأتي بما قد يكون لي فيه من رسائل ؟ لقد كنت أنتظر رسائل
من أبي وأخوتي ولكنني رحلت من باريس فجاء كما تعلم قبل أن
أستمر من هذه الرسائل ..

ومني عدت من مهنتك دعنا سوياً إلى مركز الشرطة لنتفق مع
المضابط على موعد نقل ابنتي دعاً

قال ذلك وعدم لي جواز مسره فاطلقت به إلى مركز البريد
في شارع جان جاك روسو وهناك وجدت رسالتين باسمه
فحملتهما إليه .

ولمّا عدت وجدته قد ارتدى ثيابه وتأهب للخروج

قال وهو يتناول الرسالتين من يدي :

- إني عاجز عن شكرك .

ونظر إلى الرسالتين وأردف :

- نعم .. إنهما من لي وأعني .. ولا يد أن يكون صحتي قد
أدهمتها وأقلقتهما

ومضى الرسالتين .. وألقى عليهما نظرة سريعة .. ألم فيها بالقليل

من مضمونتهما .. ثم طواهما وقال :

- دعنا نذهب .. سأرد على هاتين الرسالتين غداً

وقصدت إلى مركز الشرطة ووضع أرمان بين يدي المضابط
التمريض الذي حصل عليه من شقيقة مرغريت .

وأعطاه المضابط بدوره رسالة إلى حارس المقبرة وتم الاتفاق
على أن يكون نقل الجثة في الساعة العاشرة من صباح اليوم
التالي وطلب إليّ أرمان أن أتأخيه قبل هذا الموعد لكي أرافقته إلى
الدفن



اعترف بأنني أصيب تلك الليلة بتدريسي المضبوط والتمني
ومعد العصر فلم أتم إلا شطراً قليلاً وتقيماً على ما أصابني من
الأرق والاضمحلال لا بد أن تكون تلك الليلة من أطول الليالي التي
مرّت بأرمان

وسمّا دعت إلى أرمان في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي
وجدته شاحب الوجه شحوباً محبباً ولكنه كان يادي الهدوء
والسكينة .. فلبستم لي وشدت على يدي بهرارة ..

وحانت مني الأسئلة فزابت كثر الشموع الدانة المحترقة فلو كنت
أنا الشاب لم يعضض له جفن طوال الليل .

وقبل أن يصرف لرسل أرمان خدمته إلى صندوق البريد برسالة
طويلة إلى أبيه حمّتها ولا شئت خواطره وتأملاته والامتحانات التي
صعدت بكياته في تلك الليلة المشهدة الطويلة في باريس

وبعد نصف ساعة كتأ في مونغارتر

هناك وجدنا مضابط البوليس في انتظارنا .. فحشينا ببطء إلى غير

مرغبت . . والضابط في المقدمة ونحن في ثوره

كنت أنأبط ساعد أرماد فشعرت به يرجع بشده من وقت إلى آخر ولحنا نظرت إليه في دق هم عسرى نظراتي واسم لي مطبناً

ولكنه لم يطق بكلمة واحدة

وقبل أن يصل إلى القبر شغل أرماد فيلاً ومزج يديه على وجهه . . وعند ذلك قطع رأيت العرق يتصبب على جبينه خرواً . .

وانشهرت هذه المرحه وتفتت مله رتي فمد حبل إلي بدوري كلاً لأصابع حديدية تضغط قلبي .

واني لأعجب حقاً عن أية عظمة يصدر المصول الذي يشعر به الإنسان إلى رؤية أمثال هذه المشاهد .

عندما وصلنا إلى القبر كان لبستاني قد رفع أوتني للرعود وأزال حاجز الفضيان الحديدية التي تحيط بالقبر وشرع أتاك من الرجال في حفر القبرية

ويستند أرماد إلى إحدى الأشجار ورج يطر أمامه وشيل إلي أن روحه يطل من عيه

وفجأة . . ارتطم محمول أحد الرجلين بحجر وسمع لرماد صوت الارتظام فانشق كانه من سلكاً مشحوناً بالكهرباء . .

وضغط على ساعدي بقوة ألتني .

وأحد الرجلان في إزالة الأحجار التي تعطي التنبؤ

وهنا أعترف أنني لم أحول بصري عن أرماد فقد جعت في

هذه اللحظة أن يعنه الاتعمال الذي ظل يعالجه حتى ذلك الوقت

ولكنه ظل يطر نحو القبر يعيين واسعتين ثابتتين لا تتحركان في محجرهما كأنهما عنا مجنون ولم أر من دلائل اتعاطله وآلامه عبر رجعه بسيطة حزن شعبي التريبتين

ما أنا فلا أقول عن عصي إلا كلمة واحدة هي أنني وددت في نيت تلمحظه برسي لم أحضر

وما إن أريت الأحجار عن التنبؤ حتى قال الضابط لأحد الخرجين

- افتح التنبؤ

كان التنبؤ مصبوعاً من حطب السديان فشرع الرجلان في رفع عظامه وكان الصداق علا المسامير بفعل الرطوبة فوجد الرجلان عاء شلبد في أوراها من مكانها

ورفع الحطاء . وانبعثت من التنبؤ رائحة مئة ربح أريج الأعشاب العطرية التي أحببت بها احنة

وعصم أرماد وقد اشتد شحوبه

- يا إلهي يا إلهي

وانقبض الحاضرون جميعاً فقد كان الكفن الأبيض الرقيق يكتف أكثر تقاطيع احنة وقد تطرق المطب والتلف إلى أحد أطراف هذا الكفن فأطلت منه فلما ألمت

خلعت قواي أمام هذا المظر . ولا أزال حتى الساعة أرتجف فرحاً وقهراً كلما تذكرت تفاصيله القيمة .

وصاح الضابط بالرجلين .

- أسرها -

فمضاً أحد الرجلين يده ودمع طرف الكفن وكشف عن وجه الميتة المسجاة

كان منظره يهول الإنسان إذ يراه .. ويهوله أن يسمعه ..

لم يبق من العيين غير تقصير فارغين واحتضت الشمتان وبرزت الأسنان البيضاء بروراً محمياً واستلمت خصل الشعر على عظام الفكس فأعمت بعضها وعلى الرعم من كل ذلك فوسى تبست في تلك المعظام الحرة أثر تكوين ذلك الوجه الوردي الجميل الذي طالما أعجبت به .

*

ورفع أرماد منديله إلى لحيه وراح يقصمه دون أن يتقوى على تحريك عينيه عن ذلك المنظر المريع .

أما أن فقد حيل إليّ كان كلاليب من مولاد تضغط جبهتي وإن صحابه قائمة تظلل عيني .. ودهوا صاعياً يكاد يهشم أنفي .. وكل ما استطعت في تلك الحالة أني وضعت على أنفي فيه صميرة تخنوي على مادة معشة كنت حملتها معي .

ولي أثناء هذه الضيقوبة السريعة التي عبرت بي سمحت ضابط الشرطة يسأل أرماد

- هل تحققت من أن هذه هي الجثة التي تريد نقلها؟

فأجاب الشاب بصوت غامس لا يكاد يسمع

- نعم .

فقال الضابط للرجلين :

- إننا نأخذها للتبوت .. ونقلها من هذه الحفرة ..

فأسدل الرجلان الكفن على وجه الميتة وأغلقت التابوت وحملته إلى المكان المجهد الذي سيدفن فيه .

لم يتحرك أرماد من مكانه ولم تتحرك عيناه عن القبر العارغ كان لشد امتناعاً من الحشة التي رآها في التو واللحظة وكان الرعب قد شلّ حركته .. وأمسك ألفاسه ..

وتوقفت ب سوف يحدث متى بلغ انفعاله عاينته فالتفت من الضابط وسألته :

- هل لا يزال وجود الشاب ضرورياً؟

فأجاب :

- كلاً .. وتبي أنصح لك أن تذهب به فإن حالته على ما أرى ليست على ما يرام .

فقلت ولنا أنباط ساعد أرماد :

- هيا بنا ..

- فهتف وهو يحملي في وجهي كقته لا يعرفني :

- ماذا؟

قلت :

- لقد انتهى كل شيء .. ويجب أن تعود إلى منزلك يا صديقي

فبكك بمنفع الوجه متلج الأطراف وستقتل نفسك إذا استمرت هذه الاعمالات العينة !!

فأجاب بلهجة آلية

- صدقت ميا ..

ولكنه لم يتخرج من مكانه ولمسكت بساعده واجتذته معي

وسمع لي أن أقتاده كما يفاد الطمن وهو يجمع بين العينة

والفئة كمن يتحدث إلى نفسه :

- هل رأيت تيك العبير؟

ثم أشاح بوجهه كأنما يطرد عن ماطره ذلك المشهد الخيف

•

وأبعاً في مشيبه ندرجاً واصطكت أسنانه وعثرته حرة
عصية المصطرب لها كل جملده .

تحدثت إليه ولكنه لم يجب وكل ما فعله أنه مسح لي لى
أفاده بعيداً عن الفبر .

كانت المركبة تنظراً باب المذبح وقد وصلنا إليها في الوقت
الناسب . لأنني ما كنت أجلس فيها حتى اشتد ارتعاشه ولعله
أشفق عليّ من الارتعاج فعمم وهو يضبط على يدي
- ليس بي من شيء ليس بي من شيء فقط أود لو أستطيع
البكاء .

روایت صدره يعلو ويهبط بحف واحمرت عيانه ولكن
دموعه أبث أن تهتم

•

مضت المركبة قدماً ووصلنا أخيراً إلى بيته وهو لا يزال يرتجف
بعنف . فاستمت بخادمه على نقده إلى فراشه وأمرته أن يشعل
البار في الموقد ثم انطلقت في البحث عن طبيب وسردت عن
الطبيب في أثناء المطبق ما حدث في المذبح
ولمّا عدت إلى أرميا وجدتته مسخى الوحه وهو يهذي بكلام
غير مفهوم تبتت فيه مراراً اسم مرغريت
سألت الطبيب بعد أن فرغ من فحصه

- ماذا وجدت؟

فأجاب

- لقد أصيب بحصى محببة وهذا من حسن حظك ولولا
ذلك لعقد عقله أت الآن فإن المرض لجسماني سوف يتأصل
المرض العقلي ولا يمضي شهر حتى يبرأ من الداءين معاً .

الفصل السابع

لهذه الأمراض الشبيهة بمرض أرميا فضيلة واحدة وهي أنها
تقتل بسرعة . أو تم بسرعة . فهي لا تمهل . . ولا تستهل .
وهكذا لم يمض أسبوعان على الحوادث التي سرقتها حتى كان
أرميا قد دخل في دور النفاة وحتى كانت عرى الصداقة قد
توقفت بين يديه

فذلك لأنني لم أرح حرته طيلة فترة مرضه

•

وكان الريح قد بدأ يحطر بأوراقه ورعوره وعرفة صديقي تعزل
عن حديثه بدمعه نزل في الورود والزهور رنعت إليها حبيرها
الركبي وشداها العطر
وقد سمح الطبيب لأرميا بالجلوس فأخذنا يفضي أكثر أوقات
الدع في تجارب الحديث بالقرب من النافذة

وعيث أشد العناء بالآ ذكر اسم مرغريت في حديثي حتى لا
يثير هذا الاسم في صدر أرميا عاصفة من الحزن والألم يحش عيه
معها من الانتكاس بيد أنه روح يتكلم عنها من تلقاء نفسه

وتخيل إلي أنه كان يجد في ذلك لذة وارتياحاً .

صار ينطق باسمها مطلقاً مقروناً بأهة رقيقة بعد أن كان يسميها
مضى يرويه بدموعه ما طمأنني إلى استقرار قواء العفوية

وعند لاحظت بعد ريارتنا المدهش وبعد المطر الذي أحدث في
نفسه تلك الأزمة العاطفية العيفة أن مرضه احتمائي قد رقه من
الأمه النصابية وأنه شعر سريع من العراء والسوى بعد أن تحقق
من موت مرعريت كما كان يأمل وأنه يحاول دائماً أن يطرد
ذكرياته الحادثة الخفية بإحياء ذكرى الماضي البعيد

وقد رفض بإصرار أن يسمي أسرته بالمخطر الذي كان يهدد حياته
حتى إنه أبى من مرضه قبل أن يعلم أبوه بأنه كان مريضاً

•
وفات يوم طالت جلستنا بقرب النافذة أكثر من المعتاد

وكان الجو يديماً والشمس تسعد نحو الأفق وسعد شعق أزرق
موشى بالذهب ونحن بمصل أشجار الخديفة كأننا في واد بعيد
عن باريس ونسجها وصحبها فقال أرمان وهو متصرف إلى
افكاره وتأملاته :

- في مثل هذا الوقت من السنة وفي مساء كهذا المساء عرفت
مرعريت لأول مرة .
فلم أحيه .

ولزم هو الصمت لحظة ثم تحول إلي وقال :

- يجب أن أقص عليك ما كان يبني بين مرعريت وفسما
استطعت أن تسجله في قصة قد لا يصدقها أحد . ولكنك ستجد
لا شك لذة في كتابتها .

فأجبت

- حدثني بهذه القصة فيما بعد يا صديقي أما الآن فلا ضعك
لا يمتك على بلل هذا الجهد !

فقال وهو يتسم :

- إن الحودق . . . وقد أكلت جناح دجاجة ولست
محموماً وليس لدينا ما يصحح فأسرد عليك القصة
فأجبت :

- ما دمت مصراً فعلى مهلك . وهأنذا مصغ إليك
قال :

- إنها قصة بسيطة ولكن يجب أن أسردها عليك بترتيب
حوادثها ولك أن تصوغها في القالب الذي تريد

•
وبعد بقي قصته المؤثرة كما أسردها علي دون أن أخير فيها
كلمة واحدة . .

•
قال أرمان وهو يسطجع في مقعده :

- نعم إنني عرفت في مثل هذا المساء . .

كنت قد قضيت النهار في الضواحي مع صديق لي يدعى
هامشون وفي المساء علفنا معاً إلى باريس . . ولم ندر ماذا نصنع
فقصصت إلى مسرح فليه فارتيت .

وبين المصقول خرجنا إلى أروقة المسرح وهناك مررت بنا
ميدة طويلة القامة حياها صديقي بإحتاء قلته فسأله
- لمن أحييت قدامك في هذه اللحظة ؟

فأجاب :

- مرغريت جوتييه .

فأجبت بانفعال ساؤمكر سيه فيما يلي :

- يُحِبُّ إِلَيَّ أَنَا تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا لِأَنِّي لَمْ أَهْرُدْهَا !

- لقد كانت مريضة مكيبة هذه الفتاة . إنها لم تعمر

طويلاً

وما زلت أذكر هذه الكلمات كأنها قيلت لي بالأمس القريب

قبل ذلك بعامين كنت إذا فحلت هذه الفتاة اتفقت رأساً على عقب دون أن أعرف السبب وقد سرع هذه الظاهرة أحد أصدقائي الذين يرمعون معرفة العلوم الروحانية مقال بها غرب من الجاهلية المنطوية . أما أنا فاعتقد بأنه كان مقدراً لي منذ البنية أن ألق في هرام مرغريت . وإن هذه الظاهرة لم تكن إلا التبر

ولا شك أن تأثيرها في كاد شديداً وواضحاً بحيث لاحظت بعض أصدقائي فكان مصدرراً لضحكهم وسخرتهم

وقد رأيت مرغريت لأول مرة في ميدان البورصة . إذ وقعت إحدى المركبات المحملة بباب محفل للأزياء هناك وهبطت منها هائبة ترمذي ثوباً أبيض . ودخلت المحل تشبعها عبارات الإصجاب من أفواه المارة الذين وقعت أبصارهم عليها .

وكنيت بين الذين أبصروا بها فيهمري جمالها . وجمدت في مكاني ولم أترجح خطوة واحدة حتى رأيتها تخرج من المحل وتعود إلى مركبتها .

كانت ترتدي ثوباً أبيضاً كثير التلقيب . . وتلقي على مكبيها

منديلاً من الحرير الهندي مرشش بالفضة والذهب وتضع على رأسها قبعة عريضة من القش الإيطالي . وترى مصحفاً يسوار واحد صبح في شكل سللة ضخمة من الذهب الخالص كانت هي «الموضة» الشائعة في ذلك الوقت .

وانطلقت المركبة وشيعتها بصري حتى عابت ثم حانت من العناية فركبت أحد عمال محفل الأزياء واقفاً بابه . دبرت منه وسألته عن اسم عبيته الحسناء . فأجاب - إنها الآن مرغريت جوتييه .

وردت أن أسأله عن صواتها . ثم ترددت وغسجت . وانصرف .

ولم يتلاش هذا الحلم الجميل من مخيلتي كما تتلاشى سائر الأحلام المائلة فذهبت أبحث في كل مكان عن هذه السيدة البيضاء ذات أحمال الملائكي . إلى أن دعبت إلى مسرح «الأوبرا كوميك» في أحد الأيام . . فكان أول شخص استقر عيه بصري في إحدى المقصورات هو مرغريت جوتييه .

كان يرفقتني صديق لي يدعى إريست . . فرأها يدورده وعرفها . . وقال وهو يومي تحوها .

- انظر إلى هذه الحسناء . . إنها مرغريت جوتييه .

وفي هذه اللحظة حركت مرغريت مظلمها نحواً ورأت صديقي وابتمت له . وأشارت إليه تدعوه إلى مقصورتها قال

- سادع لندحتها - وأعود في الحال

فلم أفتك أن قلت له

- أنت سعيد الحظ .

- نادا؟

- لأنك تعرفها

- هل أعجبها؟

- كلا . طبعاً

- ولكني شعرت في تلك اللحظة بالدم يصعد إلى وجهي

كنت أود لو يقدمني إليها - ولكني لم أصارحه بهذه الرغبة
قال .

- تعامل معي لقدنك إليها .

- ألا يجب أن تستأذنها أولاً؟

- كلا . كلا . لا ضرورة لهذه التقاليد مع فتاة من هذا
الطراز . . هيا بنا .

التي هذه العبارة واللمحة التي قبلت بها

بم تألمت على الرغم مني فقد كان يشق عليّ أن أسمع
ما يؤكد لي أن مرعريت ليست جديرة بالشعور الذي أيقظته في
أعماق نفسي .

في قصة من وضع «ألفونس كار» - صاحب رواية ماجدولين
الشهيرة - أن البطل - وهو شاب في مقتبل العمر - تعقب ذات مساء
فتاة حسنة وقع في حرامها من أول نظرة . . وخيل إلى العنى وهو

يتبع صاحبته أنه على استعداد لأن يضحى بكل شيء لقاء قبلة
واحدة يطعها على يد الفتاة - ويبلغ من رقة شعوره أن أحس بأن
مجرد احتلاص النظرات إلى عقيب الفتاة وهي تسير أمامه وترفع
طرفه ثوبها اتقاء الأرواح هو فسق وانتهاك لعهدة الفتاة

وبما هو يفكر في التحيلات التي يعزم الإقدام عليها للحصول
على الفتاة - إذ تألفه تلك مجلة في أحد أركان الشارع - وما إن
دنا منها حتى **إنصمت** له . . ودعت إلى عرقها .

وعند ذلك العنى على عقيقه - واجتار الشارع - وعاد إلى بيته
كاسم البطل حزيناً

تذكرت هذه القصة - وحيث أن تنتهي لمحزني كما انتهت لمحزني
ذلك الشاب فصحاً مرعريت إلى الترحيب بي . وتعطيسي من
مجلسها في عبر تمنع - كنت على استعداد لبدل كل تضحية في
سبيله

وديك هو شأن فاشاً بين الرجال - وإنه من حسن الحظ أن
ترقى خيالنا بمشاعرنا بهذه الصفة فطعها فوق مستوى شهرتنا
البهيمة - وفي الحق لو قال لي قاتل «ستانال هذه المرأة البيلة ومقتل
عداء لا ترددت في القبول - ولو قيل لي «ادفع مائة من العرنكات
فتصبح عشيق هذه المرأة» لرفضت وحررت كما يحرم الطفل إذ يهزأ
قصره الرملي الذي شلده .

ومهما يكن من الأمر فقد أردت أن أجمع مرعريت - وأن
أحدث إليها - فذلك هي الوسيلة الوحيدة لاعتبارها - وتكوين

الرأي الصحيح عنها .

ولكني اجعت مع ذلك على صاحبي في ان يستأديها أولاً قبل ان
أرأفقه إلى مقصورتها . وأخذت أسير في ردة المسرح جيئة وذهاباً
وأعدت الكلام الذي سوف أقوله في حضرتها .

فانظر إلى أي حد من سداجة الطفولة يرتد العاشق؟؟

وهذا صديقي بعد لحظة وهو يقول :

- إنها تنتظرنا ..

فسألته :

- وهل هي وحدها؟

- إن معها سيدة أخرى .

- أليس هناك رجال؟

- كلا .

- هيأ بنا إذاً .

وسار بي صديقي إلى باب المسرح .. فصحت به :

- إلى أين أنت ذاهب؟ إنك ضللت الطريق .

فأجاب :

- كلا . سأتابع لها بعض الحلوى فقد حبت إلى ذلك

وقصدنا إلى حانوت للحلوى في ميدان الأوبرا . وكنت على

استعداد لشراء محتويات الحانوت كله ولكن صديقي اقتصر على

شراء رطل من الأستاب المحمقة .. فسألته :

- هل أنت واثق من أنها تحب هذا النوع؟

- من المشهور عنها أنها لا تحس برؤا آخر من الحلوى

ثم استطرد ونحن في طريقنا إلى المسرح :

- هل تعلم إلى أية فتاة سأقدمك الليلة؟ لا تتوهم أنني سأقدمك

إلى إحدى المركيزات أو البدوقات . فما مرعيت إلا فتاة عابثة

تجش في أكتاف عشاقها . وما أكثرهم . فلا تحر بين يديها .. ولا

تضطرب أو تتلعثم في حضرتها . بل هل كل ما يتبادر إلى ذهنك

فأطرفت برأسي موافقاً وتحتة . وأنا أقول لصبي أنني أوفئت

أن أبرأ من غرامي .

ولمّا دخلنا المقصورة . كانت مرعيت عارفة في الصحنك

وكان أحبة إليّ أن أراها واجهة حزينة .

وقدمني صديقي إليها . فحببتي بإحاطة بسيطة من رأسها

ومألت

- أين الحلوى؟

- ها هي .

وتناولت الحلوى ونظرت إليّ . فمضت بصري على الرمح

مني .. وصعد القدم إلى وجهي .

وتحنت مرعيت على رميلتها . وجمت في أذنها بضيق

كلمات وتصجرت لها حكتبي

ولا شك أنني كنت صرّخ هذا الصحنك . فطععت

حورتي .. وزاد اضطرابي

وكانت لي في ذلك الوقت عشيقه . هي فتاة في ريعان الصبا

تشتعل في أحد المشاجر وتمتاز برقّة شعورها . وشدة

حماسيتها . وطال أضحككتي مشاعرها ورسائلها . فأدركت -

قيماً على شعوري - كم كانت هذه العتاة تسألم من ضحككتي

وسحرتني ومرت بي بضع دقائق شعرت في خلالها بأنني أحب
هذه الفتاة المسكينة كما لي بحبي رجل امرأة ..



وراحت مرغريت تأكل حنواها دون أن تعيرني أدنى الالتفات
وهم يشأ صديقي أن يتركني في ذلك الموقف المجهل فقال
- لا يدهشك يا مرغريت أن يهقب صديقي بين يديك صامتاً
واجماً فقد ملكك عليه مشاعره فأصبح لا يمرى على الكلام
فأجابت :

- بل أكبر الظن أنه ساء برفقتك لألك خمت أن يمشك الحضور
بمعدك .

فقلت :

- لو صح ذلك ما رجوت صديقي إرست أن يستأذك في
قدومي عليك
- فأجابت :

- لعل ذلك لم يكن إلا وسيلة لإرضاء سأمه وملات يعرض
الوقت



وكل إنسان يعرف القليل من أخلاق هذه الطبقة من النساء يعلم
أنهن يشعرن بشدة خاضعة في الهرء بالفتيان الذين يقابلوهن للمرة
الأولى ولا شك أن ذلك نوع من الانتقام لما يلقين من صفة
واحتقار على أيدي الرجال الذين يرموهن حق المصروف ولذلك
يتحين على الإنسان كي يوفق في إجاباته وأجابته معهن أن يعرف
من أسوأهن أكثر مما كنت أعرف في ذلك الوقت

أضعت إلى ذلك أنني كنت أعمل مرغريت في مجبتي محلاً ربيعاً
ما ضاعف وقع سحرته في نفسي فهضت واقفاً . وقلت
بصوت يتم من الالتماس :

- إذا كان ذلك هو رأيك في يا سيدي فإنه لا يبقى لي إلا أن
أعتذر عن تطفلي .. وأتصرف في الحال ..
وأحييت قلبي وأتصرفت ..

وما كنت أعلق باب المقصورة حتى دوت في أدبي قهقهة
صاحبة

وفصلت إلى مقعدي واستأنفت التمثيل . فعاد إرست إلى
مكانه يجلسي .. وقال وهو يجلس :

- ما أعجب سدوكك ! لقد طبت المرات أن يك ما من أخون
- ومالفا قالت مرغريت بعد انصرافي ؟

- لقد ضحكك وفالت إنها لم تر في حياتها إنساناً أعجب
مك والواقع أنك تولي أولئك النسوة شرفاً لس أهلاً له إذا
نظرت بعين الحد والأهمية إلى كل أقوالهن . إنهن لا يمرض معي
المباهة والجمالة بل إنهن أشبه بالكلاب التي تُفَسَّخ بالمطور
فترعجها الرائحة الركية وتتمزغ في التراب لتتخلص منها
فقلت متظاهراً بقلة الاكتراث .

- لقد كان ما كان وانتهى الأمر ولن أراها بعد الآن .
كنت أعجب بها قبل أن أعرفها . نعماً عرفتها استبحال الإعجاب
احتقاراً .

- ومع ذلك ظن يدهشي أن أراك في مقصورتها في أحد
الأيام وأن يلغى أنك تورد نفسك موارد الخراب والنعار من
أجلها

إنها سينة الطبايع حقاً ولكننا مع ذلك امرئة يسمى كل رجل أن يتخلها لعبة حبيقة

ومن حسن الحظ أن الستار رفع في تلك اللحظة وبدأ التمثيل فصمت إرنست .

ويستحيل عليّ أن أذكر شيئاً من المسرحية التي كانت تمثل ولكني أذكر فقط أنني لم أكف من التطلع بين العينة والعينة إلى مقصورة مرغريت وأن الرائيين الذين رأيتهم يتعاقبون على هذه المقصورة كانوا كثيرين .

كان من الصعب عليّ أن أقصي مرغريت من ذهني ولكن شعوري بحوها تبدل وأصبح كل شيء أن أنغم لما نالني على يديها من حزن وسحرة . وكأنني ذلك كل ما أملك وأن يكون الانتقام بفهرها والسيطرة عليها ودلالها

وتسبيل انتهاء التمثيل غادرت مرغريت وصاحبيتها مقصورتها فنهضت قائماً وتابعت للحاق بها ودعش إرنست وسألني :

.. هل أنت ذاهب؟

.. نعم .. لماذا؟

ولاحظ في هذه اللحظة خلو مقصورة مرغريت بهتة .

.. اذهب .. اذهب بحق السماء .. إنني أتمنى لك كل توفيق

فخرجت .. وسمعت على السلم جلبة وحفيف أثواب فالتفت ناحية .. ورأيت الرائيين تنصرفان بصحة رجلين . فتمتمهم عن كتب

وسمعت مرغريت تقول لأحد غلمان المسرح :

.. اذهب وقل للحمودي أن يتظر بباب المطعم الإنجليزي علينا .. ستذهب إلى هناك سيراً على الأقدام

بعد بضع دقائق كنت أسير أمام هذا المطعم جيئة وذهاباً .. فرأيت مرغريت واقفة في مقصورة إحدى الغرف الخاصة وهي تهتم بأصابعها إحدى زهور الكاميليا ورأيت أحد الرجسين مستنداً إلى كتفها .. وهو يهمس في أذنها كلاماً ..

فقصصت إلى صفهى أمام المطعم وجلست هناك أقرب تلك للمقصورة ولا أحول بصري عنها .

إلى أن كانت الساعة الواحدة صباحاً فخرجت مرغريت من المطعم وصعدت إلى مركبتها . ونمتها وذئها الثلاثة فاستأجرت إحدى المركبات وتطلعت بها في ألحهم .

ووقعت المركبة أخيراً أمام المنزل رقم ٩ بشارع دانتون وهبطت منها مرغريت .. ودخلت المنزل بمفردها .

والمعجب أنني شعرت بارتياح عظيم عندما رأيتهما تدخل المنزل بمفردها .

وقد قابلتها مراراً بعد ذلك في المساح وحدائق الشانزلييه . وفي كل مرة كنت أشعر بوجودها قبل أن أراها . وفي كل مرة كنت أعطرب ظهراً لبطي .

ثم حدث أن انقضى أسبوعان لم أرها خلالهما ثم قابلت صديقي غاستون وسأله عن نبأها فأجاب :

- إن الفتاة المسكينة في أشد حالات المرض .
- ومن تشكو؟

- إنها مريضة بملات الرئة . ولما كانت طبيعة حياتها لا تساعد على شفائها فقد اشتدت بها العلة حتى أرمتها العرائش . ويقال إن موتها أصبح مؤكداً .

■
يا إلهي ما أحبب القلب . .

لقد كنت أحب الفتاة . ومع ذلك لم أكره لها أن تموت

•
وبالرغم من كل ذلك فلنسي رحمت لمردد على يئنها كل يوم دون أن أذكر اسمي . للاستمرار عن صحتها إلى أن علمت يوماً برحيلها إلى يافير

•
ومرت الأيام والشهور . وشغلني الأسفار والمعشرات ومهام الحياة عن التفكير فيها . وبدأت أنظر إلى ما كان يمي وبينها على أنه ضرب من الطيش ورفق الشباب . إلى أن صادفتها - كما قلت لك - وأنا أسير مع صديقي غاستون في أروقة مسرح ألب فارينيه . وعندما وجدت أن غيبها عن عبي حامين كمدلين لم يكن كادياً مع قلبي من الوثوب بين جسدي لمررد شعوري يأنها على مقربة مني

الفصل الثامن

شعرت إذأ بأنني ما زلت أحبها . واقترب هذا الإحساس برغبة حاسمة في الاتصال بها . وذهبت أهدع نفسي بأسوأ هذه الرغبة بأنها لمررد الانتقام . وإظهاره لهذه العاتية على أنني أصبحت رجلاً لا يرقى إليه حروها وإغرائها . عياها ما أقرب أساليب القلب . وما أعجب الأعداء التي يتنصها لدصول إلى رعاها ١٩

•
عقب أن مررت في مرمرت وتوارت في أروقة المسرح . فصدت ترواً إلى مقعدي في الصالة وأرسلت بصري نحو الشرفات لأرى في ألة مقصورة مجلس .
وأينها .

حقاً . كانت قد تعبرت كثيراً فلم أجد أرى على شمتيها ابتسامتها العادية . ملك التي تجمع بين السحرة وقلة الاكتران .
كان من الواضح أنها عانت كثيراً . بل ولا تزال تعاني .
وعلى الرغم من أنا كنا في شهر يسار/ أبريل . فإنها كانت لا تزال ترتدي ثياب الشتاء . . وتضم جسمها الصغير في معطف من القبطية .

أخذت أرتو تحوها . . حتى استرعت انتباهها . فمقتني بنظرة فاحصة ثم حوكت مظاهرها بحوي . وظلت أنها عرفتني لأنها عندما رصمت المنظار من عيها . كانت تتلاعب على شمتيها ابتسامة رقيقة . ولكني لم أجب هذه التلمحة بمثلها رغبة في التظاهر بأنني سبت ما نذكرته هي

وعندئذ بدا لها أنها أعطت الظن فأشاحت بوجهها صي .

ورفع الستار .

كنت قد رايت مرغريت في المسرح مراراً ولحظت في كل هذه
امرات أنها لا تقيم أي وزن لما يجري على حشة المسرح
أما أنا فلم أعبأ كذلك بالمسرحية التي تمثل أمامي وتصرف
كل اهتمامي إلى مرغريت وحدها ولكني حرصت أشد الحرص
على ألا أدهها تشعر بذلك ..

واستطلعت وأن أرقبها أن لاحظ بأنها تتبادل النظرات من وقت
إلى آخر مع سيدة تشغل المقصورة المقابلة لمقصورتها فأرسلت
بصري إلى تلك السيدة ووجدت أنني أعرفها حق المعرفة
كأن هذه السيدة قد حاولت احتراق التمثيل وفشل ثم
اشمعت بصع الأرباء اعتماداً على صلتها الوثيقة بعنيات المسرح
ومطارد المهر والعبث .

وقد بدا لي في هذه الحال أن اتحددها وساطة لمقابلة مرغريت
فانتهرت مرصه ووقع بصرها حني بطريق المصادفة وأحييت لها رأسي
محيئاً

وحدث ما توقع . فإنها أومأت إليّ تدعوني إلى مقصورتها
كان اسمها «برودس دولروي» وهي امرأة مدينة تهاجر الأرميين
ومن أولئك النساء اللاتي لا يحنح الإنسان إلى كثير من الهداه
خمسهن على الإقضاء إليه بما يريد فذهبت إلى مقصورتها
واسهرت إحدى المرص حين رأيتها تتبادل النظرات مع
مرغريت .. وسألتها .
- إلى من تنظرين ؟

فأجبت

- إلى مرغريت جوتييه

- هل تعرفيها ؟

- إني أحيط لها ثيابها .. ثم إني جلتها .

- إننا فلتت قديمين بشارع دلتان ؟

- نعم بالمتزل رقم ٧ ، وخرفة ملابس جارتي مرغريت تطل
على غراتي .

- يقولون إنها فتاة عظيمة .

- ألا تعرفها ؟

- كلا . ولكني أتوق إلى التعرف بها .

- هل تريدني أن أدهها إلى هذه المقصورة ؟

- كلا .. إني أفضل أن أقدميني إليها أولاً .

- في بيتها ؟

- نعم ..

- هذا الأمر صعب جداً

- لماذا ؟

- لأنها تعيش في كنف ورحابة دوق عجور يعار عليها أشد

الميرة

- تعيش في وعاءه ! هذا تعبير غريب ..

- نعم ولكنه يطبق على الواقع فذلك العجور المسكين يجد

من التسلل عليه أن يصبح حقيقياً .

وهنا قصت عليّ برودس كيف قابلت مرغريت هذا الدوق في

بتيير .. ونوع الصلة الحميمة التي قامت بينهما .

وسألته :

- إننا قلنا هو سب وجودها في المقصورة بمردعها ؟

- نعم .

- ولكن من ذا الذي سيرافقها إلى بيتها ؟

- الدوق .

- إنه سيحضر لاصطحابها إننا ؟

- نعم .

- وأنت من ذا الذي سيرافقك إلى بيتك ؟

- لا أحد .

- إنني أضع نفسي في خدمتك .

- ولكنني أرى معك أحد أصدقائك .

- كلاهما يضع نفسه في خدمتك .

- ولكن من هو صديقك هذا ؟

- إنه شاب دمى الخلق حاضر البديهة سوف يسره كثيراً أن

يتحرك بك .

- هذا يدعى انفذ ولسرح المسرح عقب هذا الفصل

- ليكن ذلك . . وسأذهب لإخطار صديقي .

فقلت :

- هيا اذهب .

ثم هتفت على الأثر

- آه . . انظر . . ها هو الدوق يدخل مقصورة مرغريت .

فظنرت - ورأيت شبيحاً في نحو السبعين من عمره يجلس حلف

العانة ويقدم إليها حلوى حلوى . .

وبدأت مرغريت تتحدث إلى الدوق - فذهبت إلى صديقي

غاستون وحدثته بما أحدثت له ولي . . فوافق - وقصدنا معاً إلى

مقصورة برودنس . ولكننا ما كنا شواطئ الطريق حتى صادفنا

مرغريت وهي مستندة إلى ساعد الدوق - فأفسحنا في الطريق

مروهما - وشعرت في تلك اللحظة أنني على استعداد للزواج من

حاميل من حمري في مقابل أن أحل محل ذلك الدوق العجوز

•

بعد انتهاء الفصل استأجرنا مركبة ذهبت بنا إلى منزل برودنس

في شارع دانتان - فلما وصلنا دعنا برودنس إلى الدخول بشهود ما

حدها من أرباب مبتكرة كانت دون شك موضع إعجابها - ولست

بحاجة إلى القول بأننا رحبنا بهذه الدعوة .

•

حُبل إليّ وأنا لدخل بيت برودنس - أنني أبدو من مرغريت

مخطوطة سريعة ثابتة - فشرعت في توجيه الحديث نحو الهدف

الذي أرمي إليه . .

قلت محدثاً برودنس :

- أظن أن الدوق العجوز يقضي سهرته الآن مع جارتك الحسنة ؟

فأجابت :

- بل أكبر الظن أنها الآن بمفردها .

فقال غاستون :

- لا بد أن حياتها تدور إلى السأم والضجر إذا ؟

فأجابت برودنس :

- إننا قصي أكثر سهراتنا معاً - وهي لا تكاد تعود من الخارج

حي تطل علي من ماضيها وتدعوي لأنها لا تستطيع اليوم ميكراً
- لماذا؟

- لأنها مريضة بذات الصدر وهي دائماً تحت وطأة الحمى .
فألت :

- أليس لها عشاق إذا؟

- لم لاحظ قط أن أحد راقبها بقي في بيتها بعد انصرامي
والتي لا أستطيع أن أعرف ما يحدث بعد أن تركها . وكثيراً ما
أقابل صديها الكونت (د) الذي يعتقد أنه يستطيع تحقيق أحلامه
بريانتها في الساعة الحادية عشرة . وغصها بما تريد وما لا تريد من
الحلي والصورات ولكنها لا تلب إليه ولا تبلى من نفسها ما
يريد . وأظن أنها جده مخطئه لأن الكونت شاب واسع العى
وقد قلت بها مرة تلو المرة . هذا هو الشاب الذي يصلح بك يا
بنتي المبررة . ولكنها كانت تولي ظهرها وتقول منهجه احتظر
إته على جانب عظيم من الغباوة

وإنني أحترق بأنه شبي حذاً . ولكن ما أهمية عبادته ما دام
يستطيع بماله وجاهه أن يجعلها المل الذي تريد . بينما هذا الدوق
المعجور يحتمل أن يموت في أي يوم .

إن الشيخ من الرجال يمارون دائماً بأنانيتهم بضاف إلى ذلك
أن أسرة هذا الدوق المعجور تلوم على الدوام وتعيب عليه
صلته بمهرجيت . وهذا سيان يحتمل معهما أن يترك الدوق شيئاً
مهرجيت حد وصاته . وقد ذكرت لها كل ذلك . فأجبتني إن
الكونت رهي إشارتي وهي استطاعني أن أتحفه عشيقاً في أي يوم
بعد موت الدوق .

ومهما يكن من أمر . فإن حبيتها الأك تعبر إلى كل أسباب
الدهر والشبه . ولو كنت مكانها بطردت الدوق المعجور في يوم
وليقة

إن هذا الشيخ المشعبي يدعوها لبيتة . ويعلمها كما لو كانت
كلدت . وتعقبها إلى كل مكان يذهب إليه . وإنني واثقة من أن أحد
أسياعه يجرول الأك في الشارع أمام بيت مهرجيت مرقة الحار جين
أو على الأصح . . لراقبة الداخلين .

فقال غاستون وهو يجلس إلى البيانو ويغر عليه بأصابعه
- مكبه مهرجيت . لم أكن أعرف عنها كل ذلك . وإن كنت
قد لاحظت عليها أنها أقل فرحاً من ذي قبل .

فهتفت برودنس فجاءة

- اسكت .

فكف غاستون عن العرف

قالت برودنس :

- أظن أنها تناديني .

فأصغيتا

كان هناك حقاً من ينادي برودنس . .

قالت برودنس :

- يجب أن تصرخا الآن أيها السيدان الكريمان

فأجاب غاستون ضاحكاً :

- هل هكذا تفهمين معنى الكرم وحسن الضيافة يا سيدتي؟

وقلت :

- لماذا يجب أن تنصرف الآن؟

فأجابت :

- لأنني سأذهب إلى بيت مرغريت .

- سنتظر عودتك إذا .

- هذا مستحيل .

- سذهب معك .

- هنا أسوأ وأسى . .

فقال خاستون :

- إنني أعرف مرغريت . . ومن حلي أن أتردها !

- ولكن السيد ديفال لا يعرفها .

- سأقنعه إليها .

- لا . . هذا ليس ممكناً .

وما سمعا صوت مرغريت وهي تأتي مرة أخرى .

فأسرعت هذه إلى غرفة مجاورة وفتحت نافذتها فبينماها

ورقنا خلفها بحيث لا تروا مرغريت

قالت مرغريت بلهجة الغضب :

- إنني أدهوك منذ عشر دقائق !

- ماذا تريد مني ؟

- أريدك أن تأتي إلي في الحال .

- لماذا ؟

- لأن الكونت (د) لا يزال هنا وهو يصجري حتى الموت

- ولكنني لا أستطيع الذهاب إليك الآن .

- ماذا يحدث ؟

- عندي هنا شابان يرتشان الانصراف .

- قولي لهما إنك يجب أن تخرجي حاجة ملحة

- لقد قلت لهما ذلك .

- حسناً اتركيهما ومتى وجدنا أنك خرجت فربهما لا يطان

في الانصراف .

- نعم . إنهما يصرفان لا شك ولكن بعد أن يقلب كل شيء هنا

ولمّا علي عقب .

- ولكن ماذا يريدان ؟

- إنهما يريدان في مقابلتك

- من هما ؟

- إنك تعرفين أحدهما وهو السيد غاسبود دي ر

- آه . . نعم . . إنني أعرفه . . والثاني ؟

- إنه السيد لومان ديفال . . فهل تعرفينه ؟

- كلاً ولكن لا بأس جيتي بهما أي إنسان إلا هذا

الكونت . . إنني في انتظاركم . . فتمالوا حالاً .

وأغلقت المائدة نافذتهما

لقد تدقّرت مرغريت وجهي . . ولكنها لم تذكر اسمي . . وقد

كنت أؤثر أن تذكرني بالامتصاص على أن تساني كلية

قال خاستون :

- كنت أعلم أنها ستترشح إلى مقابلتك .

فأجابت بروعس :

- إن الأرياح لا محل له في بالها فهي لا تستبدكما إلا لتطرد

الكوت مكموا أكثر منه لباقة ولطفاً وإلا جلبتما عليّ نعمة
مرعيت ولومها .

•

وخادرت برودنس بيتها فقيمناها .
كنت أرتجف وقد خيل إليّ أن سيكون لهذه الزيارة أثرها
العميق في مستقبل حياتي .
اضطربت أشدّ مما كنت مضطرباً يوم قدمي إليها إرنست في
مسرح «الأوبرا كوميك» .

ودقت برودنس جرس الباب . فوثب قلبي بعف
وفتحت إحدى الخادمت الباب . ورافقتني إلى صديق سيدتها .
وهناك رايت تبدأ معتمداً بمرفقيه على الموقد . ورايت مرعيت
جالسة تلهب البيانو بأناملها . . وشعرت بالملالة والفجر اللذي
يخيما على جو الغرفة .
كاد الشاب متضجراً لتضاه شأته في عين العانية والعانية
متضجرة من وجود الشاب
وسمعت مرعيت صرخت برودنس . فنهضت من جلستها واقفة
ورفعتنا بنظرة شكر لأنها أسمعنا بالجدّة . وقالت لنا
- تفصلاً بالدخول . أهلاً وسهلاً بكما

الفصل التاسع

وتحوكت مرعيت إلى صديقي لالّة :
- طاب مسلاك يا هريري غاستون . يرمي جداً أن أراك لماذا
لم تأت إلى مقصورتني هذا المساء ؟

- لقد حصدت أن أبدو متفلاً
فقلت مرعيت

- إن الأصدقاء لا يكونون قط متفلاً .

قالت ذلك بهدوء . ولمهلت بعد كلمة «أصدقاء» كأنها لتؤكد
للسامعين أن غاستون لم يكن إلا صديقاً . وليس أكثر من صديق
قال غاستون :

- إذا هل تسمحين لي كصديق أن أقدم إليك السيد أرماس
ديفال ؟

- لقد سمعت لبرودنس بذلك فعلاً

- فقلت وأنا אחتي قاتني باحترام :

- وضلاً من هذا فقد سبق لي التشرف بمعرفتك يا سيدتي
فرمعت مرعيت حادجبيها اليديين . وحاولت أن تذكر أبي
قائلي قبل الآن . ولكنها لم توفق ولم تذكر شيئاً
قلت .

- وعلى كل حال فإني أشكر لك أنك سيت مقابلتنا الأولى

فقد كان سلوكي ليلتد مدعاة للهرء والسخرية من جانبي

إننا تقابلنا في مسرح الأوبرا كوميك منذ حينين يا سيدتي
حيث قدمي إليك صديقي إرنست دي . .

فقاطعتني وعلى شعنها امتسامة

- آه . تذكرت الآن . ولكن سؤدك لم يكن يذهب إلى

السحرة يا سيدتي . ولكن النسب ديني . لأنني قابلتك بشيء من
التشوية التي ما رلت أحييها في عسي . ولكنك غمرت لي دون
شك يا سيدتي . .

ومدت إليّ يدها فقيلتها

قالت :

- حقاً إن من أسوأ صغاتي أنني أسبل دائماً إلى السحرة عن
أقائهم لأول مرة - وهي عادة سيئة منها - كما يقول أطلن -
نوتر أعصابي وثقة آلامي فلرجوك أن تصدق كلام الأطباء يا
سيني

- ولكن يخيل إليّ أنك الآن في غير حال -

- ربما .. ولكنني كنت في أشد حالات المرض -

- أعلم ذلك -

- ومن أياك؟

- كل إنسان كان يعلم بمرضك - وقد ترددت مراراً على مرسلتك

للاستعارة من صحتك - وسرني كثيراً أن أعلم بأشئ منك

- ولكنني لم أتلق قط بطاقة باسمك!

- ذلك لأنني لم أكن أثرك بطاقتي -

- إذاً ، فعلت ذلك الشاب الذي اعتاد التردد على منزلي كل يوم

للمزاج عبي - والذي كان يرفض دائماً أن يذكر اسمه للخدم

- نعم .. إنني الشاب الذي نعين -

- لقد كان ذلك منك في غلة اللطف - كان حاية الكرم

- وومضني بإحدى تلك النظرات الماحصة التي تكون بها المرأة

رأيها في الرجل - ثم غرقت إلى الكونت وقالت

- مثل هذا الكرم لم يصدر منك أنت أيها الكونت

فأجاب الكونت

- ولكنني لم أعرفك إلا منذ شهرين!

قالت :

- وهذا السيد لم يعرفني إلا منذ خمس دقائق - فما أغيب

أجوبتك!

وهكذا لمزأة لا تعرف المرحمة معي - مع الرجل الذي لا يهيب

موي من يدها

مدمر وجه الكونت - وعرض شفته

وشعرت بموه بشيء من الشفقة - فقد خيل إليّ أنه يحبها كما

أحبها - وأن صراحة مرعيت - ولا سيما على مسمع من العرياء -

قد حدثت كرامته وأدلت كبرياءه

قلت لأخير مجرى الحديث :

- إنك كنت تحلين على البيالوس ساعة دخولنا .. فهل لك أن

تعتبرني صديقاً قديماً وتواصلني العرف بلا حرج؟

قالت وهي تدهونا إلى الجالوس وتهالك على مقعد ولير

- إن حاستون يصرف نوع الموسيقى التي أعرفها - وهي تروق

لرجل مثل الكونت - ولكنني لا أريد أن أزل بك عقوبة سماعها -

فقال الكونت وعرض شفته ابتسامة حاول أن يكسبها معي

التهمك

- إننا فأتت تحتكرين لي هذا الكرم؟

- إنه كل ما أستطيع أن أفدقه عليك -

كان واضحاً أن الكونت المسكين غير موفق في أحاديثه معها

نظر إليها ضارحاً أن تقلل من قسرتها عليه -

قالت مرعيت

- ولنت يا برودس هل فعلت ما طلت إليك؟

- 99 -

- نعم .

- هذا حسن . ستمردين عليّ التماسيل فيما بعد فلا
تصبري قبل أن أحلو بك فإن عني ما أقوله لك
فقلت

- أخشى أن يكون وجودنا غير مرغوب فيه يا سبنني وما
دمت قد تعرفت بك للمرة الثانية لأرسل الأمر الذي تركته في مكانك
المقابلة الأولى . عني وصديقي ستأذكرك الآن في الانصراف
فقلت :

- كلاً كلاً . قلت أضيكنما بكلامي بل على العكس إنني
أرغب في بقائكما .

وهنا أخرج الكونت من حبه ساعة نومة نظر فيها وقال

- لقد حان موعد ذهابي إلى المتلنى .

فهم تحب مرغريت .

وتحرك الكونت من مكانه بجانب الموقد وقال :

- إلى اللقاء يا سيدتي . .

فهبطت مرغريت ولقفة وهي تقول .

- إلى اللقاء . .

- نعم . . أخشى أن يكون وجودي مدعاة لهجرتك

- إنك لا تصبري أكثر من المعتاد ولكن متى سراك مرة

أخرى ؟

- متى سمحت . .

- إنفا فالوداع . .

كان ذلك منتهى القسوة منها ولكن من حسن الحظ أن
الكونت كان شاكياً مؤلماً واسع الصدر . ففزع بأن قبل اليد التي
قيدتها إليه مرغريت . وسار إلى الباب بعد أن حيّاناً وهناك رمق
برودنس بنظرة ذمت معنى . . ولكنها هزّت كتفها . . كما يريد أن
يقول :

- وما حليتي ؟ لقد فعلت كل ما أستطيع فعلة

•

وصاحت مرغريت بوحيتها :

- نائين . . واقفي الكونت إلى الباب الخارجي .

ثم سمعت الباب الخارجي يفتح ويعلق . فتنفست مرغريت
الصعداء وهضت

- لقد ذهب أخيراً . . هذا الفتى يحطم أعصابي .

فالت بيرودنس :

- يا ابنتي الحرة . إنك في الحق شديدة القسوة عليه وهو
الذي بهامتك بمتهى اللطف والكرم . وما زلت أرى على الموقد
الساعة الثمينة التي أهداها إليك والتي لا يمكن أن يفقد ثمنها من
ألف من الفرنكات !

قالت ذلك . وتناولت الساعة . . ونظرت إليها بعينين يتألق فيهما
ريق الخشع

وأجابت مرغريت

- يا عسبروني . إني إذا وضعت هداياه في كفة ميسون

ووضعت أحاديثه معي في كفة أخرى . وجدت أنني الخاسرة في
هذه الصفقة

- إن هذا ألقى المسكين بحبك

- إذا كان يتوجّب عليّ أن أصغي إلى جميع الذين يحبوني ..

لأنني لم أجد متسعاً من الوقت لتناول الطعام عدتد

ونفرت بأاملها على البيانو ثم تحوكت إليها وسألت

- هل لكم في شيء من الشراب؟ إني أريد قليلاً من اليد

فقلت بروفسي :

- أمّا أنا فأريد قليلاً من الطعام ..

فقال غاستون :

- هذا رأيي حسن . فلهموا بنا لتناول العشاء في أحد المطاعم

فأقلت مرغريت :

- كلا .. ستمشي هنا في منزلي ..

ودفت الجرس فأقبلت ناتين .. قالت لها :

- أرسلني في طلب طعام للعشاء يا ناتين .

- أي طعام تريدان يا سيلي؟

- أي طعام يروقك .. فقط أسرعي ..

وانصرفت ناتين .. وقالت مرغريت بمرور الأطفال :

- نعم هذا رأيي حسن . ستناول طعام العشاء هنا يا

إلهي .. ما أثقل هذا الكونت الصبي 11

*

كان كل ما أراه من هذه الفتاة لا يبريني إلا شغماً بها

كانت ساحرة بكل ما في هذه الكلمة من معنى حتى نحامتها

كنت في ذاتها فتاة لكظري

*

استغرقت في التفكير وليس في استطاعتي الآن أن أعلل

المشاعر التي امتلئت في نفسي في ذلك المساء فقد امتلأت عطفاً

عليها وإعجاباً بها . وكان ما بدأ من استقلالها الروحي

وصدوقها من المانة يتجهّمها لذلك الكونت الصبي الرشيق الشاب

الذي جاء يحطّب ودّها وهو على استعداد لأن يضع ثروته وشره

تحت مرطبي عليها . كان ذلك كافيّاً في نظري لأن يحمو ما مرط

من كآمها .. وفجورها .. وهشها .

كان واضحاً أنّها لا تزال تندفع في حياة الصنق والرديلة فإن

خطواتها الشائنة ومرونة قامتها وليونة جسدها واتساع

هيبتها كل ذلك كان يسم من فريسة ملتتهة لئلا أحو حولها بغير

الحاذية الجسيمة . كما لئلا أحو بشائها فارورة العطور التي لم

يحكم علقها

باختصار إن الإنسان كان يرى في مرغريت عذراء شامت

يحدى المصادفات أن لجمها بعباً وبعياً قد تردها إحدى المصادفات

لبعض عذراء طاهرة لئلا الدنيا حولها حباً وطهارة ومرحاً

كانت لا تزال تحتفظ بكريلاتها واستقلالها .. وهما شموزان إذا

حدثا كاتا جديريين بإثارة الأعمال الذي يولد لاحتشام

لرمت الصمت ولنا الفكر في هذا وأمثال .. إلى أن تحوكت إليّ

مرغريت فجأة وقالت :

- إذا فأنت الشاب الذي ذهبت تستعصر هي وأن طريحة

العراش؟ !

- نعم ..

- هل تعرف أن عملك هذا كان كريماً وميلاً؟ أمّا أستطيع أن

أعبر لك من شكري؟

- بالسماح لي بزيارتك في بعض الأحيان .

- تستطيع أن تراني كلما أردت بين الخامسة والسادسة مساءً وبين الحادية عشرة ومتصف النيل .

•

ثم راحت تعرف على البيانو وترنم بإحدى الأغاني المبتدئة وكان غاستون يعرف تلك الأغنية فاشترك معها في الترنم بها .
قلت لمرغريت في غير مجاملة : وبلمهجة التوسل :
- لا تنفي بالله عليك هذه الأغنية المبتدئة .

- فقالت وهي تبسم :

- ما أشد حرصك على العضلة !!

وهنا قالت برودنس فجأة :

- ما هذا التمثال البديع؟

وتنازلت من أحد الأركان ثنائياً صغيراً يمثل راعياً . وثلاثته بإعجاب وجشع . فقالت مرغريت :

- عليه إذا كان يروقك .

- ونكبي أحشى أن أحرمك من هذه النجمة الجميلة يا ابنتي؟

- إنني أبعث هذا التمثال . وكنت أوشك أن أترنم عنه لوصيحي ناني . فحده يد شت .

مرغريت برودنس التمثال حانياً وقالت لي

- دعهما يعرفان وترنما . وتعال معي لنشاهد الملل

ولا حاجة بي هنا إلى وصف وكر مرغريت وما كان فيه من التعاليق وأساب الترف . فإنك رأيت كل شيء يوم بيع ثنائتها بالقراد .

ولكننا عندما دخلنا غرفة الاستقبال . أشارت برودنس إلى صورة مثبتة بالجدار وقالت لي :

- انظر هذه صورة (الكوت دي ح) لقد كان يحب مرغريت حب جود . وهو الذي وضعها بماله وصودها إلى هذه المكانة بين العائيات . فهل تعرفه؟

فأجبت

- كلا . . ولكن صورة من هذه؟

وأومأت إلى صورة أخرى . . فأجبت

- هذا هو (الكوت دي د) وقد اضطر لاحقاً أن يهجر مرغريت!

- لماذا؟

- لقد أتفق عليها كل ثروته . . حتى أفس . .

- لا شك أنها كانت تحبه .

- لا أعلم . إنها فتاة صرية الأطوار . وقد كانت في المسرح ساعة رحيله .

•

وفي هذه اللحظة أتيت ناني ودعنا إلى المائدة

لما دخلت غرفة الطعام . رأيت مرغريت مستعدة إلى أحد الخدعان وغاستون يمسك بكتفها يديها . وهو يقول لها كلاماً بصوت خافت لم أسمع منه شيئاً

ولكنني سمعت صوتها حين أجابته :

- إنك مبحوح؟ أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أجيبك بشيء .

أعترف مني عاصي . ثم تطلب إليّ الآن أن أكون لك؟ نحن

السء سلم أنفسا مد البداية لو لا سلمها مطلقاً
هلموا بنا لتناول الطعام .

وأفلتت من يد غاستون واتخذت مكانها إلى المائدة بيني وبينه
وقالت لنتين :

- إذا طرق الباب طروق فقول لي إنني لا أستقبل الليلة أحداً
وكان صدور هذا الأمر في الساعة الواحدة صباحاً !!

أكلت وشربت وضحكتنا وبلغ مرحنا مبلغه وانفعلت
مرغريت من عقال لاحتشام فتبدلت بعض الكلمات المبتدلة التي
كنت أرى في الظروف العادية أنها تدس شمعاً قاتليها ولكنها
قولت منا بعاصفة من الضحك والتصفيق .

وقد أردت في البداية أن ألقي ببسي في نيلار هذا المرح
وأندمج في ذلك العبث . ثم وجدت تدريجاً أنني أصبحت بمحل
من الضجيج وأن قدحني لا يزال مليئاً وشعرت بالحر والآنم
عندما رأيت تلك المخلوقة الحسنة التي لا تتجاوز العشرين من
عمرها وهي تحبسي الحمر بمرحاة وتغمس في الضحك
كلما بعدت الدخابة من الأدب والذقافة

على أن هذا المرح وهذا الأسلوب الوضعي من أساليب الكلام
والدهانة وإن يكن في المادة مظهرًا من مظاهر الاستهتار
والعجور إلا أنني رأيت فيه - فيما يحرصت بمرغريت - نتيجة
محترمة لرعبتها الشديدة في أن تنسى أو عرصاً لا يمر منه من
أعراض اضطرابها العصبي .

كانت كلما احتست كأساً كلما احمرت وحاتها بوجهي

الحمى واستند بها السعال حتى أرغمها على إسناد رأسها إلى
مقعدها وضغطت صدرها يديها

وتهدئت عندما فكرت في فتك هذا الإسراف في ذلك الجسد
الحبي

وأخيراً جاءت الأزمة التي كنت أتوقعها وأخشاها
فقد أصيبت مرغريت بوبة سعال خيل إليّ معها أن صدرها
يتمزق . . وضغطت متدليها على شعيتها

ولمّا رفعت المتدبل من فمها كان منطخاً يرفع من الدم
فنهضت واقفة . ووثبت إلى عرقها
وهت غاستون

- يا إلهي ما الذي أصاب مرغريت !!
فأجابت بيروندس

- لقد أسرفت في الضحك حتى تمجر الدم من رثتها ولكن
لا خوف عليها فذلك يحدث لها كل يوم انركاها وشانها
فإنها تفضل الوحدة في مثل هذه الحالة .
ولكني لم أر هذا الرأي فانطلقت في أثر مرغريت رغم رجاء
بيروندس وبناتين .

الفصل العاشر

كانت الغرفة التي لادت بها مرغريت مضادة بشمعة واحدة
موضوعة على إحدى اللناضد
وعلى ضوء هذه الشمعة رأيت مرغريت مددة على أريكة

كبيرة وقد حلت لزوار ثوبها ووضعت إحدى يديها على صدرها وتلقت يدها الأخرى بجفتها .

ورأت على المنصدة بجانب الشمعة وعاء فضياً مليئاً بلحاء إلى منتصفه وقد تلوثت للحاء بخيوط من الدم ..

كانت مرعرت شديدة الشحوب وهي تهت وتلتقط أنفاسها بعناء شديد وجلست بجانبها وتناولت يدها المتدلية .

لهبت وهي تسم
- آه ... ألعذانت ؟

ولا بد أن وجهي كان يرم من حربي ولكي لأشها سألت على الأمر :

- هل أنت مريضة كذلك ؟
- كلاً .. ولكن أنت .. ألا زلت تأكلين ؟
- قليلاً .

رجعت الدموع التي أظفها السعال من عيها وقالت
- لقد ألفت هذا الألم .

قللت لها بصوت يرتجف من الانفعال :

- إنك تقتلين نفسك يا سيدي . لست كنت واحداً من أصدقائك أو أقربك إذا لحظت عليك أن توردي نفسك موارد الهلكة .

فأجبت بشيء من المروءة :

- آه أؤكد أنه ليس ثمة ما يستوجب اهتمامك إلى هذا الحد .
انتظر كيف يهتم الآخرون بي ! إنهم يملكون أنه لا يمكن عمل شيء .

من أجلي .. لا شيء .

ثم نهضت وتناولت الشمعة ووضعتها على حافة الموقد .. ونظرت إلى نفسها في المرآة ..

قالت وهي تجر أصابعها في شعرها المضطرب :

- ما أشد شحوبي ولكن لا بأس فليعد إلى المائدة أيها الصديق .. ألا تأني ؟

ولكني لم أتحرك من مكاني ..
ولا بد أنها شعرت بشدة غثري بعد هذا النظر الذي شهدته لأنها اختبرت مني . وسطت إلي يدها وهي تقول

- تعال .. علم بنا .
فتناولت يدها .. ورفعتها إلى شفتي .

وعندئذ سقطت على يدها - بالرغم مني - دفعة حينها طويلاً فهضت وهي تجلس بجانبني :

- ماذا ؟ هل أنت طفل ؟ إنك تبكي لماذا حدث ؟
- قد أبدو في نظرك خرواً سادحاً ولكن الواقع أن ما رأيته

الآن أحزنني وأليني .
- ما أكرم خلفك ! ولكن ماذا تنظر مني ؟ إنني لا أستطيع أن

أنام . ويجب أن أرقه عن نفسي بطريقة ما وبعد . لأن حياة أو موت فتاة من طرازي لا يقدم ولا يؤخر .

يقول الأطباء إن الدم الذي يبتق من فمي .. مصدره الحلق .
وأنا أنظأهر تصديقههم . وذلك كل ما أستطيع فعله

قللت لها بحدة :

- أصغي إلي يا مرعرت . إنني لا أعلم أي دور تُدرك أن

تلعبيه في حياتي ومستقبلي . ولكني أعلم فقط أنه لا يوجد في هذه اللحظة إنسان - حتى ولا أختي - يهمني أمره كما أهتم بأمرك . وقد كان ذلك هو الحال صد وقع بصري عليك أول مرة لذلك اضرع إليك أن تعني بصحتك . والأ تتهري على هذه الحياة التي نجحنا . .

- إذا صحت بنفسي كما تقول فإني أرموت . والواقع أن هذه الحياة المضطربة المحسومة هي وحدها ما يمسك رمقي . أخصد إلى ذلك أن «صاية المرأة بتعصها أمر لا ينسر إلا للساء الشريعات اللاتي يستمتعن بحياة الأسرة . وبصداقة الأصدقاء . لما نحن فئتنا لا نكاد نعجز عن إرضاء عشاقنا وإشباع صلمهم وإرضاء شهواتهم حتى ينفضوا من حولنا . وتعاقب علينا الليالي الطويلة بعد الأيام الطويلة .

إني أصرف كل ذلك . لأني لرمت العرائش شهرين فلم يزودني خلالها أحد بعد الأسبوع الثالث .

فأجبت :

- صحيح أنني لا تربطني بك إحدى الروابط لو الصلات . ولكني إذا سمحت لي بأن أسهر عيك . كما يسهر الأخ على أخته فإني لا أتركك حتى تشفي من سقمك .

ومنى استرددت فوقك . . فلك - إذا شئت - أن تعودني إلى الحياة التي نجحنا الآن . . ولكني موطن من أنك سوف تؤثر الحياة الهادئة البوادة لأنها الحياة التي نرد عليك سعادتك . وتحمض لك جمالتك

- هذه هي خواطرك الثابتة فقط . لأن الخمر أدخلت الكآبة على

نفسك . ولكن سوف يعرج صبرك ويضيق صدرك قبل أن تفعل شيئاً عما تقول .

- اسمحي لي أن أذكرك يا صرغيت بأنك لرمت العرائش شهرين . وأني كنت أتردد على بيتك يومياً طيلة هذين الشهرين للاستغفار منك والأطمئنان على صحتك .

- هذا صحيح . ولكن لماذا لم تصعد إلى غرفتي؟

- لأني لم أكن قد تعرفت بك بعد .

- وهل مع تنا من طرزي يعرض الناس على مثل هذه التقاليد؟

- من واجب الرجل دائماً أن يحترم المرأة . . أو أن هذه الاحترام

على الأقل من لولي عيادتي .

- إذا فأتت على استعداد للمصاهرة بي والسهر عني؟

- نعم .

- وهل تقضي النهار كله بجاني؟

- نعم . .

- والليل أيضاً؟

- إذا لم يكن في بقائي ما يضيقك .

- وماذا نسني هذا؟

- لسنه إحصاءاً

- وعن أية عاطفة يصدر هذا الإحصاء؟

- يصدر عني أشعر به من المطف عليك .

- فأتت تحسني إذا؟ قل ذلك في الحال . فذلك أبسط من اللف

والدوران

- ربما كنت أحبك . ولكن إذا كان مقدراً لي أن أصارحك بذلك

يوماً ما . . فإني لن أفعل ذلك الآن .

- من الأفضل ألا تصارحتي بذلك أبداً

- لماذا ؟

- لأن مثل هذا الاعتراف لا يسفر إلا عن أحد أمرين

- وهما . . !

- إما أن أرفضك فتعصب أو أرفض بك فتكون لك

عشيقه مريضة حرة . . إذا تظاهرت بالمرح يوماً كان مرحها أمر من

المرح عشيقه سمحت رشاها دماً وتنفق مائة ألف قمرتك في

العام وهو مبيع بلام شبعاً وبعاً كاللوق ولكنه لا يلام شياً

منلك والدليل على ذلك أن جميع عشاق من الشاب ما لبثوا أن

هزوا مني لعظم إنفاقي

لم أحبها . .

لقد عقد الأثم لسانني بعد صراحتي التي تشبه الاعتراف وبعد

الذي شاهدته من بواض حياتها الحسة المستهرة الكامة تحت عطاء

براق .

فالت مرغريت

- حياتنا إنما نتحدث مما لا طائل تحت هات يدك وهلم

بنا نعود إلى غرفة الطعام قبل أن يذهبهم عينا

- صودي إذا شئت . ولكني أرجوك أن تسمحني لي بالبقاء هنا

وحدي

- لماذا ؟

- لأن مرحك يحزنتني ويؤلمني .

- حسناً . . سأكون حرة إذا . . ولن أرح .

- أصحني إلي يا مرغريت دعيني أقول لك كلاماً لا شك أنك

سمعت مثله قبل الآن . . وطرق لذيذك مروراً حتى نشرت منه . .

رضاعت تقتك فيه ولكنه مع ذلك كلام حقيقي

فعالب وعلى شعيتها ابتسامة الأم حين تصفي إلى سخافات ابها

- وهذا الكلام هو . . !

- هو أنني مد رأيتك وأنت تحتلين مكانة في حياتي وقد

حاولت مبرراً أن أنسج صورتك من ذهني ولكن فشلاً حاولت

واليوم بعد عامين لم أرك في خلاليهم وبعد أن حرفتك

وعرفت ما أنت عليه من خلق أشعر بأن أصبحت أشد سيطرة

على قلبي وهقلي مما كنت في أي وقت مضى بل وأشعر بأنك

عبرت واقعاً ضرورياً لحياتي ويأتي أحسن ليس فقط إذا

صددني وإنما كذلك إذا لم تسمحني لي بأن أحبك

- في هذه الحالة أيها الشاب التمس بحبي علي أن أفعل ما فعلته

مدم (د) إذ قالت لرحل يخطب ودها أنت إذا واسع المي ؟ !

أفلا تعلم أنني أنفق سبعة آلاف من المرنكات شهرياً وإن هذا

التبذير أصبح ضرورياً لكياني ؟ !

ألا تشعر أيها الصديق المسكين بأنني إذا عاشرتك فسأجلب عليك

الدمار والعار في أقصر وقت وأن أسرتك سوف نبذك لأشد

تأثر مخلوقة مثلي ؟

أحبيي إذا شئت . . أحببي كصديقة أثيرة . . ولكن لا شيء غير

ذلك

وتعال لحضرتي كلما أردت فتحدث معاً وبضحك معاً

ولكن لا تبالي في تقويم أسري ولا تجدع قبيحتي فاني في الحقيقة لا أفسدي شيئاً مذكوراً...

إنك طيب القلب وبحاجه إلى من يحبك ولنت كذلك في مستقبل العصر . ولنت ثروة من الإحساس البيل نمر من الحياة التي نحياها مثيلاي . فامسح حيك إلى إحدى العذارى الطاهرات أو خطب ود إحدى النساء الشريعات أما أنا أنا

وصحنت لحظة واستطردت

- إنني أتحدث إليك في صراحة يا صديقي

وفي هذه اللحظة أفبنت برودس وهي تصيح

- يا نيهول . ماذا تفعلان هـ كل هذا الوقت؟

فأجابت مرغريت

- إننا نحدث . فدهيا لحظة وسلمق بكما

- حساً حساً على رسلكما يا وديي تحدثنا ما شئنا

فالت ذلك في حبث . وبدت أشد خيشاً حين أهلت الباب

وراءها

وبساً انردنا قالت مرغريت

- انتف إدا على ألا تحبني بعد الآن؟

- سأرحل

- إلى هذا الحد؟

والواقع أن الرجوع عما عومت عليه أصبح مستحيلاً . انصب إلى ذلك أن جاديتشها لي كانت لا تقاوم فهذا المزيج بين الحزن والدمع وهذه الصراحة وهذه الحبسة العظيمة بل وهذا المرض الذي يرهف مشعرها . ويحرك غرائزها ذلك أشعري بئني إدا

لم أنجح في السيطرة عليها لأول وهلة فإني أفقدها إلى الأبد قالت :

- صبراً صبراً هل أنت جاد في كل ما قلت لي؟

- نعم

- ولكن لماذا لم تصارحتي قبل الآن؟

- متى كان ينبغي أن أصرحك؟

- عدة لقلنا في (الأوبرا كوبك) مثلاً؟

- أظن أنك كنت تنهينني في لو فانتك وقتذاك

- لماذا؟

- لأن سلوكي كان سيئاً

- هذا صحيح ولكن هل كنت تحبني في ذلك الوقت؟

- نعم

- ومع ذلك فقد انصرفت من المسرح إلى دارك حيث

استمتعت باليوم الهيم دون أن يرعبك ما كان بيتنا من لقاء

- أعطت هول تعلمين ماذا فعلت تلك الليلة؟

- كلا

- إنني نبعثك إلى المطعم الإنجليزي وانتظرتك هناك . ثم

تبعت المركبة التي أتتلك مع رفاقك الثلاثة ولما رأيتك تدحلي

المنزل بمعدك . شعرت بسعادة لا توصف

فانصرفت مرغريت ضاحكة

- لماذا نضحكي؟

- لا شيء

- أرجو أن نصارحي بي - وإلا اعتقدت أنك ما رثت تسحرين
سي!

- ألا تغضب إذا صارحك؟

- وبأي حق أغضب؟

- أعلم إذا ما دمت تريد أن تعلم أنني دخلت المنزل بمفردي
لسبب معقول ..

- وهو؟

- هو أن بعضهم كان ينتظري في الداخل ..

لر أنها طمعتي بحجر ما آتني الطعمة كما تأملت في تلك
اللحظة .

نهضت واقفاً .. وسطت إليها يدي وأنا أقول

- وداعاً

فأحدثت

- كنت أعلم أنك ستخرج وتأتني ذلك شأن الرجال جميعاً ..

إنهم يصرون على معرفة ما يرجعهم وبعضهم

قلت بلهجة غائرة لكي أثبت لها أنني شعيت من جنوني إلى
الأبد :

- أؤكد لك أنني لست معصياً لقد كان طبعاً جداً أن يتنظر

بعضهم في الداخل وطبعي جداً الآن أن أستاذ في الانصراف

- لعل هناك أيتها من يتنظر في منزلك؟

- كلاً .. ولكن يجب أن أذهب ..

- وداعاً إذاً .

- انظروني؟

- كلاً .. أنا لا أطردك بلغة حال .

- لئلا تعملين إذاً على إبلاي؟

- وكيف آلتك؟

- قلت لي إن بعضهم كان يتنظر حين دخلت بمفردي

- إنني لم ألتفت من الضحك عندما تصورت مسروراً لمجرد

دخولي إلى منزلي بمفردي ربما كان هناك سبب وجيه لذلك

- في بعض الأحيان يجد الإنسان في ناحيته من بواحي ضميره

مصدراً للسعادة ومن القسوة دم هذه المادة بهدم مصلحتها

- من نظري إذاً أيتها المسكين؟ إنني لست من المصارى

الطاهرات - ولست من اللذوات لو اتركيرات؟ ثم إنني لم أعرفك

إلا اليوم . وليس من حقك علي أن أقدم لك حساباً عن أعمالي

وسلوكي! وعلى غرض أنني أصبحت صاحبك في أحد الأيام

فيجب أن تعلم حق العلم بأنه كان لي قبلك عشاق كثيرون فوذا

شرعت من الآن في مضاهني بعير شك فمافا يكون (فيما بعد)؟

إذا كان هناك (فيما بعد) على الإطلاق؟ إنني في الواقع لم أعرف

قط رجلاً مثلك

- ذلك لأن أحداً لم يحبك قط كما أحبك .

- تكلم وكس صريحاً هل نجسي حقاً إلى هذا الحد؟

- إنني أحبك إلى أقصى ما يمكن الرجل أن يحب امرأة

- وقد استمر هذا الحب منذ ..

- منذ رأيتك في أحد الأيام بدخولك متحجراً للأزياء في ميدان

الأوبرا .. وذلك منذ ثلاثة أعوام تقريباً .

- هل تعلم أن ذلك جعلك منك ومادة يجب أن أصبح لأخبر
لك عن واثني لهذا الحب الكبير؟

- فأجيب وقلبي يكاد يثب من حلقى .

- حاولي أن تحبيني قليلاً

وشعرت رغم الابتسامة الساخرة التي لم تخب عن شعبيتها
طيلة هذا الحديث . أنها بدأت تشاطر عاطفتي . وأن الساعة التي
طال انتظارها بقلبي وفروغ صبر قد دنت .

فالت

- والدوق؟

- أي دوق؟

- صديقي المعجور المعجور

- إنه لن يعلم بما بيننا .

- وإذا علم؟

- انصبيته يفر لك إذا علم؟

- كلا . وأسفاه إنه بهجري ولا أعلم ما يكون من أمرى

بعد ذلك .

- إنك تحارفين بهجرانه فعلاً من أجل رجل سواي

- وكيف علمت ذلك؟

- من الأوامر التي أصدرتها في بداية المسيرة مقفد أمرت

وصيقتك بالأسمع لكائن من كان يراوتك هذه الليلة

- ليس لك أن تأخذ على ذلك فما أصدرت هذا الأمر إلا

لأستبلك أنت وصديقك خاستون .

وكنت قد اقتربت منها فأحطت خصرها بساعدي فلم تنفر

منى وأستدت جسدها بلطف على يدي
وعمت

- لو تعلمين فقط كم أحبك؟!

- اتقول حقاً؟

- أقسم لك

- حساً هذا وعدني بأن تطيع رغبتي دون أن نسال أو

أن تعرضي لأنني ربي أحبتك

- أعدك بأن أفعل كل ما تريدن

- ولكنني أحذرك من الآن بأنه يجب أن يكون لي مطلق الحرية

منى أن أفعل ما يروقني دون أن أقدم لك حساباً أو لرضاها

لقد بحثت طويلاً عن عاشق شاب لا يعرف الحب وسوء

الظن استطع أن أحبه دون أن يرى من حق أن يكون محبوباً

ولكن لم أوفق قط إلى مثل هذا العاشق ذلك لأن الرجال بدلاً

من أن يكونوا راضين قائمين بأن يعطيهم من أنفسهم مراراً ما كانوا

يحملون به ولو مرة واحدة تراهم يطالبونا بأن نقدم لهم

حساباً عن الماضي والحاضر بل وعن المستقبل كذلك وكلمنا

اشتدت الألفة بيننا وبينهم . . كلما تصدعت وغبتهم في السيطرة

علينا واشتد حرصهم على كل امتياز يالونه منا

عندما خطر لي الآن أن أتحد لمتسي عشيقاً جديداً فإنني أشرط

فيه امتلاك هذه الصفات الثلاث البادرة وهي الثقة والخضوع

والكنمات

- هذا حسن ستجديني كما تريدن

- سوف يرى

- ومتى يرى؟

- فيما بعد .

- ولماذا لا يكون الآن؟

- لأنه يسر من الممكن دائماً تنفيد المعاهدات يوم إبرامها

قلت وإن أقسمها إلى صدري :

- ومتى لأراك مرة أخرى؟

- غداً بين الساعة الحادية عشرة ومتصف البيل فهل برغبتك

ذلك؟

- وهل أنت بحاجة إلى مثل هذا السؤال؟

- لا نقل عن ذلك كلمة واحدة لصدفتك أو لبرودس . أو

لأي إنسان آخر .

- نعمي .

- والآن .. قِئني .. ولعد إلى غرفة الطعام .

وقدّمت إليّ شمتيه . ثم أصلحت شعرها وعدا إلى غرفة

الطعام وهي تفني .. وأنا شبه مجنون .

ولمّا اقتربت من باب العرمة تريتت قليلاً وقالت في

خس .

- قد يبدو لك غريباً ما رأيت من استعدادي لقولك بمثل هذه

السرعة .. فهل تعرف السبب؟

منظرت إليّ مسائلات وناوت يدي ووصحتها على قلبها

وكان يحقق بشدة

واستطردت :

- السبب هو أنني لم أعيش طويلاً . ولتي قررت لذلك أن أحيأ

حياة سرية .

- أصرح إليك ألا تنقصي سعادتني بمثل هذا الكلام

فقلت ضاحكة :

- لا تخزن ولا تبتشي . معهما تكن حياتي قصيرة لأنها ستكون

لطول عمراً من حيك لي .

ودخلت العرمة وهي تعني في جذل

ثم لاحظت أن برودس وغاستون وحدهما في العرمة فالت

- ولين مانين !

فأجابت برودس :

- إنها مائة في حرفتك .. في انتظار موعد وفادك ..

- مكينة هذه العاء . إنني أقتلها بهراتي الطويلة . هلموا إليها

السادة . نقد حاد وقت انصرافكم

وبعد بضعة دقائق استأذنت وصدفتي لي الانصراف .. وشددت

مرحبت علي يدي وهي تودعي . ولكنها استبقيت برودس

معها ..

سألني غاستون ونحن في طريقنا :

- ماذا كنت تقول لمرحيتي؟

- إنها ملاك . واعتقد أنني مرقت في حبها يا صديقي .

- هذا ما توقّعت .. وهل اعترفت لها بحيك؟

- نعم

- وهل وعدتك بشيء؟

- كلا .

- إنها في ذلك تختلف عن برودس . ولا شك أنك لن تصدقي إذا قلت لك إن هذه المرأة البنية لا تزال تحتفظ بحرارة الشباب !

الفصل الحادي عشر

وكتب أرمين عن الكلام حين بلغ يقصته هذا الملع . وقال لي :
- هل لك أن تفتق الناعمة ؟ لقد بدأت أشعر بالبرد . وسألو
بقراشي

فأعفت الناعمة واضطجع أرمين في فراشه . ولست رأته إلى
الوسادة لحظة . شأن الرجل الذي أصابه السهر الطويل لو أنه
الدكرات المولدة
قلت له

- لعلك أسرفت في الكلام . فهل أنصرف وأتركك لتنام ورحي
سرد القصة إلى يوم آخر .
- وهل أسألك حديثي ؟
- على العكس . . . إنه أكثر فضولي
- إننا سنسفي في قصتي . . . فإني إذا تركتني وحيداً . . . فلن
يخفى لي جسر .

واستطرد :

عندما عدت إلى مرلي . أخذت أسترجع في ذهني كل ما
حدث لي في ذلك المساء . إذ رأيت مرغريت . . . إلى أن

قطعت على نفسها ذلك العهد . . وكيف حدث كل ذلك
بسرعة . ودون تدبير سابق . . حتى خيل إليّ في بعض الأحيان أن
ذلك كله لم يكن إلا وهماً أو حتماً من الأحلام

على أن هذه لم تكن أول مرة تعد فيها لقاء مثل مرغريت بأن
تسلم نفسها لأحد عشاقها عدة اليوم الذي عرفته فيه

وقد كان يحسن بي أن أفكر على هذا النحو . ولكن الأثر الذي
تركته مرغريت في نفسي . أصلي عن سبيل التفكير السليم
فرعيت أن أرى فيها يقيناً كسائر البعيا . ودعمي العزود المريري
في موسم الرجال جميعاً إلى الاعتقاد بأنها تبادلني عاطفتي . وأنها
شعر نحوي بمثل ما أشعر نحوها .

ومع ذلك فقد كانت لديّ الألفة التي تدحض هذا الاعتقاد
وطد سمعت بأن حب مرغريت سلعة تباع وتشترى . ويرتفع ثمنها
ويهبط وفقاً للظروف وبزواً على قانون العرض والطلب

ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذا الذي سمعت . وبين إصرار
مرغريت على بد الكوث الشاب الذي قبلناه في بيتها ؟

بماثل أن يقول إن هذا الكوث لم يصب هوى من نفسها . وإنما
رهي التي تسع بالرفاعة في كتب الدوق . إن خطر لها أن تتخذ
نفسها حنيئاً جديلاً . فإنها تعضل أن يكون هذا العشيئ رجلاً جميل
إليه

ولكن إذا صح هذا الاقتراض . فلماذا صبت حاسنون . وهو
الظريف العي العذب الحميت . وأترتي عليه . أنا الذي
كنت في المقابلة الأولى حقيقاً بسحريتها وهزلها ؟

إن حوادث لحظة واحدة حقاً قد تؤثر في حياتنا ومصائرنا كما لا

تؤثر حوادث عام كامل ا

لقد كنت أن الوحيد الذي آله أن يراه نصر من عزيمة الطعام
وصدرها يكاد يتحرق من تأثير الشمال فتسببها ولم أكنها
تأثري وحزني على ما ألم بها .

ولكن هذا الحادث مضاعفاً إلى أهمي بالاستمرار في
إيمان مرصها قد جعلها ترى في رجلاً يحتلف عن سائر الرجال
الذين قابلتهم من قبل ولعلها وجدت أنها تستطيع أن تتيب هذا
الشعور الكريم من ناحيتي بأن نيلني من نفسها ما أنالته عبري مرثوا
حتى لم يبق له عندها أية أهمية

كل هذه المرواح كانت محتملة كما ترى ولكن مهما يكن
الدافع إلى رضاها فهناك أمر واحد مؤكد هو أنها وضيت
وذلك كل ما يهمني .

لم يمحض لي جفن في نعت اليلة كنت مهياً موزعاً بين
النكت واليقين أشعر تارة بأنني لست من الأتفة والرشاقة والحي
بعيث بحور لي أن أملك هذه المرأة وأحس تارة أخرى بالخيلة
لأنني منكها أو على الأقل أوشكت أن أملكها

وداخلني الشكوك والريب واشفقنت أن يكون شخص مرصيت
بي مودة عارضة تدوم يوماً أو أسبوعاً أو أكثر أو أقل ثم تكون
القصيدة العجائبة والمرعة الأبدية ! وبلغ من تشاؤمي أن فكرت في
الامتناع عن مقابلة في اليوم التالي والكتابة إليها بما يهمني في
بعض .

ثم انتقلت من التشاؤم واليأس إلى الثقة التي لا حدود لها
والأمل الذي لا نهاية له . فربيت المستقبل في ملقة للورود

وقلت لمضي سوف ندين لي هذه العنة بشعاع جسدها ويره
روحها وسوف أنضي معها بقية حياتي وأجد في حبها من
السعادة ما لا أجده في حب أظهر العناري وأشرف النساء

ولا أستطيع في الواقع أن أعدد لك آلاف الأفكار والخواطر التي
انبعثت من قلبي إلى عقلي وتبحرت شيئاً فشيئاً مع بنة
العاس الذي غلبني عند مطلع الفجر .

وعندما استيقظت في اليوم التالي كانت الساعة الثانية بعد
الظهر . . وكان الجو رافقاً

ولست أذكر أن الحياة كانت في نظري أجمل ولا أتمسك بدت
لي في ذلك اليوم فقد رالت الشكوك والريب التي طاعت بعسي
في اليوم السابق ولم يبق إلا أعدب الآمال والأحلام

ووجب قلبي وتوترت أعصابي تؤثراً ممتعاً عندما تدكرت
موعدي مع مرصيت

كانت غرمتي أضيق من أن تتسع لسعادتي فارتدبت ثيابي من
عجل وانصرفت من المنزل ولكني لا أدري كيف قضيت
ساعات النهار

مشيت كثيراً . ودخلت كثيراً وتحدثت إلى الكثيرين فلما
كانت الساعة السابعة لم أعد أذكر أين ذهبت ومن قابلت
وماذا قلت .

وكل ما أذكره أنني حلت إلى المنزل ومضت ثلاث ساعات
في إصلاح هياكل ونظرت مشات المرات إلى ساعتي وإلى

ساعة الجدار ولكنهما لسوء حظي كانتا متعقتين لا تنسب
إحدهما الأخرى .

ولمّا دقت الساعة مصعاً بعد العاشرة . انطلقت إلى شارع
دلتان وظفرت إلى بواب مرغريت فرايت الدور يبعث منها

طوقت الباب وسألت البواب إن كانت الأتمة مرغريت جوتيه
في منزلها فأجاب أنها لا تعود أبداً قبل الساعة الحادية عشرة
ظفرت إلى ساعتي . .

كنت أظن أنني سرت على مهل فوجدت أنني قطعت المسافة
بين بروفانس (حيث أقيم) وشارع دلتان (حيث تقيم مرغريت) في
خمس دقائق؟

وأخذت أسير في الشارع جيئة وذهاباً وكانت حوائطه معلقة
في تلك الساعة . وقد ساد الصمت والكون وانحصر من
السبلة .

وبعد نصف ساعة أنزلت مرغريت فهبطت من مركبتها
وظفرت حولها كأنها تبحث عن إنسان ما .

وافترت منها وهي تهم بأن تفرغ الباب وقلت لها شيئاً
طاب مسألك

فهتت بصوت لا ينم عن سرورها بلقائي :
.. آه .. أهدأ أنت؟

.. ألم تسمعي لي بنارتك الليلة؟

.. آه .. هذا صحيح .. لقد نسيتم ..

وظفرت هذه العبارة أحلام الليل وآمال النهار ولكنني كنت
بدأت أحرف شلودها وغربة أطوارها فلم أنصرف وبقيت إلى
جانبها .

ودخلنا المنزل معاً . . وسألت مرغريت وصيفتها :

.. هل عادت بروندس إلى بيتها؟

.. كلا يا سيدي . .

.. قولني لخادمتها إنني أريد مقابلتها بمجرد عودتها ولكن أهبطني
حرفه الاستقبال أولاً وإذ سألتني سائل فقولني إنني لم أجد .
ولتني لا أعود الليلة .

وكان يبدو عليها أنها في شغل يأمر م . فلم أدر أيهما أنسب
الصمت أو الكلام

وتصعدت مرغريت إلى محددها . وبقيت في مكاني فقالت :
.. تعال .

دخلت فيمتها ومعلمها ونهالكت في مقعد كبير بالقرب من
الموقد . . قالت

.. ماذا حدثك من الأثباء؟

.. لا شيء . إلا أنني أخطأت في زيارتك الليلة .

.. لماذا؟

.. لأن الاترجاج يبدو عليك . . ولا شك أن وجودي يضايقك

.. إنك لا تضايقي ولكني مريضة ولم أذق طعم النوم

وأشعر بصناع شديد

.. فهل أنصرف ليتى لك بعض الرفاد؟

.. كلا . . في استطاعتك أن تبقى .

وهي هذه اللحظة دق الجرس فحسرت يدها في فمجر
وامتناع وحسرت .

- من ذا الذي يقرع الجرس ؟ !

ودق الجرس مرة أخرى فقالت :

- إذا ، فلا يوجد من يفتح الباب . ويجب أن أفتحه بنفسي
وبهتت وهي تقول لي :

- انتظري هنا . .

ومرّت بين الغرف وفتحت الباب فأرغمت السمع وأنصت

ودخل الشخص الذي فتحت له الباب وتكلمت فعرفت
في الحال صوت (الكوت دي نـ) الذي رأته عندها بالأمس
سألها :

- كيف أنت هذا المساء ؟

فأجابته بلهجة جافة

- إني مريضة . .

- هل يزعجك وجودي ؟

- ربما .

- يا إلهي . ما أشد قساوتك يا مهربتي مهربت ! ماذا افترقت
ليكون جزائي منك هذه الخشونة ؟ !

- يا صديقي العزيز إنك لم تعمل شيئا ولكني مريضة
ويجب أن أذهب إلى فراشي وأكون شاكسة لك إذا تعصفت
بالانصراف يا إلهي . ألا أعود إلي مرلي يوماً دون أن أراك
تطرق بابي بعد خمس دقائق ؟ ! ماذا تريد مني ؟ ؟ أن أكون حشيتك !
لقد قلت لك مائة مرة إنك تصابقي إلى أقصى حد . والله يحسني

بك أن تذهب إلى سواري وأقول لك للمرة الأخيرة إنني لا أريد أن
تكون لي بك صفة مهمل مهتني ؟ ! وداعاً إذاً أه هاهي
بانين . إنها احترافك إلى الباب . طاب مسألك

ولم تنطق بكلمة أخرى . . ولم تصح إلى كلمة واحدة من
العبارات التي اضطربت على شعبي الشاب . . وعادت إلى الغرفة
وهي معصية وأغلقت الباب بعنف

. ودخلت بانين بعد لحظة . . فصاحت بها مرعوت :

- قولي دالماً لهذا الأحمق إنني لست هنا أو إنني لا أريد
مقابلته . لقد نعت أخيراً من مقابلة كل هؤلاء الناس الذين
يجيئون دائماً للمعرض داته . والذين يعطوني مالاً ثم يعتقدون أننا
سواية

لو عرفت مثيلات هذه الحرفة المفضلة المينة على حقيقتها
لأكون الخدم على احترامها ولكن لا . إن الأمر
والخيلاء . وحب الثياب . والفركشات . . والمجوهرات . . كل ذلك
يجتهد إلى قرارة الهوانة . . وفي سبيلها تذهب بالتدريج قلوبنا . .
وأجسادنا . . وجمالنا . . ونحن مع ذلك مبرهونات كالوحوش
الضارية . . ومحتقرات كالسودين . . ولولئك الذين يحيطون بنا إنما
يريدون ما أكثر مما يعطون . . وسيبقى هذا حالنا حتى نهلك في
أحد الأيام كما نهلك الكلاب . بعد أن نكون قد جلبنا الطراب
على الآخرين . وعلى أنفس

صالت بانين

- هوتي على نفسك يا سيدتي . إنك مضجرة الأعصاب هذا
المساء

فصاحت مرغريت . . وهي تنزع ثوبها بعف

- هذه الثياب تضايقي أعطني دُدرًا ثم أين برودرس؟

- لم تعد بعد يا سيدتي ولكنها ستفعلك بمجرد عودتها

- فقالت مرغريت وهي تخلع ثوبها .

- ها هي مخلوقة أخرى تعرف كيف تقابلني متى احتاجت إلى

معونتي ولكنها لا تقدم لي إحدى الخدمات حتى تمرق أعصابي

إنها تعلم أنني أنظر الرقعة الليلة وأنني في أشد الفلق ولكنها

بعير شك قد ذهبت لبعض شأنها دون أن تهتم لأمرني

- ربما عوقها عائق .

- أريد بعض اللين .

- إنه يزيد مرضك يا سيدتي .

- ذلك أفضل . . وأريد كذلك جناح دجاجة وبعض السيد هيا

أمرهي . . لأنني جائعة .

ومن تحصيل الحاصل طبعاً أن أصف تأثير هذا المنظر في نفسي

فالت لي .

- إنك ستتناول طعام العشاء معي فاقرا في أحد الكتب ربما

أذهب إلى غرفة ثيابي .

وأضواء الشموع وفتحت باباً بالقرب من مراشها

واختصت .

أما أن فقد ذهبت أفكر في الحياة التي نعيشها هذه العشاء

المسكية . . وامتزج حيي لها بالإشفاق عليها .

وكت لا أزال بمعددي في الغرفة حين دخلت برودرس

هههه .

- أنت هنا؟ وأين مرغريت؟

- إنها في غرفة الثياب .

- سانتظرها إدا ولكن هل تعلم أنك أصبحت هوى من نفسها؟

- كلا .

- ألم تذكر لك هي شيئاً بهذا المعنى؟

- كلا .

- ماذا جاء بك إلى هنا؟

- جئت لزيارتها

- في منتصف الليل؟

- ولم لا ومع ذلك فإنها استطاعت أسراً استقبال

- إنها ستحسن استقبالك في الحال

- أنتظي ذلك؟

- إنني أحمل لها بياضاً

- هذا حسن . . وإذاً فقد حدثك عني؟

- نعم بعد تصبرائك أوس مع صاحبك وهذه المناسبة . . كيف

حال صديقك؟ إنه يدهي غاستون . . ليس كذلك؟

- نعم .

ونم أملكك من الابتسام عندما تذكرت الحديث الذي أسره إلي

غاستون بالأمس . . ووليت أن برودرس لا تكاد تعرف اسمه .

قالت :

- إنه شاب ظريف . . فما مهته؟

- إنه لا يؤدي عملاً على الإطلاق . . وإيراده السوي خمسة

وعشرون ألفاً من الفرنكات .

- آه . أحسناً ما تقول ؟ ولكن لتحدثت لك أنت . لقد ألفت عليّ مرغريت عشرات الأسئلة ..

أردت أن تعرف من أنت وما هو عمرك وكيف تقضي وقتك ومن هي عشقتك السافرة وبالاختصار كل ما يهم المرأة معرفته عن شاب في مثل سنك . فحدثتها بكل ما أعرف . وأضفت إلى ذلك أنك شاب ظريف ..

- شكراً لك . والآن أنتهي . ما هي المهمة التي كلفتك بها أمسي ؟

- إنها لم تكلفني أمسي بأية مهمة . اللهم إلا العمل على التخلص من الكورت . بيد أنها كلمتني اليوم بمهمة أخرى . وهي تنتظر الآن نتيجةها

وفي هذه اللحظة أقيمت مرغريت . وقد ربت شعرها الجميل بأشرطة حريرية صفراء . وما إن وقع بصرها على برودس حتى هتعت :

- هل قابلت الدوق ؟ ماذا قال لك ؟

- لقد أعطاني

- كم أعطاك ؟

- ستة آلاف

- هل جئت بها ؟

- نعم

- هل بدا عليه شيء من دلائل الضجر والسأم ؟

- كلا

- مسكين هذا الرجل !

وقد بظقت بهذه الكلمات الأخيرة بهيجة يتعذر فهم معناها ثم

سألت من برودس سب أوراق مالية واستطردت

- لقد جاء هذا المبلغ في الوقت المناسب . فهل أنت بحاجة إلى شيء من النقود يا عزيزي برودس ؟

- أنت تعلمين يا بيتي . لأن غداً هو اليوم الخامس عشر من الشهر وأنه يستحق عليّ سداد لائحة من الديون . فلماذا أفرصتني

لثلاثة أو أربعة مائة فرنك فإني تسلمين إليّ بدأ لا أنساها

- حسناً . أرسلني غداً صائحاً في طلب هذا المبلغ . لأن من كتمنر الآن استبدال إحدى الأوراق المالية .

- لا نسي

- كومي مطمئنة . هل تتولين طعام الغداء معنا ؟

- كلا . إن شارل ينتظري في منزلي

- ألا زلت مولعة به ؟

- إلى حد أصغر يا عزيزتي . إلى اللقاء غداً . إلى اللقاء يا أرماني

وانصرفت . ومنحت مرغريت أحد الأذراع . وألقب فيه الأوراق المالية

ثم قالت وهي تبسم وتشير نحو الفراش

- هل تسمح لي أن أنم في الفراش ؟

- أنا لا أسمع فقط . . بل ولوجوك

- والآن . تعال واجلس على حافة الفراش ولتحدث .

أصابت برودس حقاً . فإن الرذ الذي تسلمته مرغريت أعاد إليها

هندوها وجللها ..

قالت وهي تتناول يدي .

- هل تعرف لي ما بدا من ضجري وضيق صدري هذا المساء؟

- إني على استعداد لأن أصغر لك أكثر من ذلك

- وهل تخبرني؟

- حب جيون .

- رغم سوء خلقي؟

- رغم كل شيء .

- هل تقسم؟

فأجبت بصوت خافت

- نعم .

وعندئذ أقبلت مائمين تحمل الطعام ورجاحة من البيض وبعض
الفاكهة .

قالت مرهفت :

- ضعي الطعام على المائدة الصغيرة وفريسيها من المراتي

إني أتميتك بالسهر الطويل في الليالي الثلاث الماضية . فادعي الآن

إلى فراشتك فلت بحاجة إليك

- هل يجب أن أوصد الباب الخارجي؟

- أظن ذلك . ولا أريد أن يدخل حرفتي أحد قبل ظهور الغد

الفصل الثاني عشر

في الساعة الخامسة صباحاً . عندما بدأ ضوء النهار يتغلغل من

خلال الستائر . . . قالت لي مرهفت في همس :

. معذرة إذا طليت إليك الانصراف الآن . ولكن لا معسر من

ذلك . فالنوق يأتي لزيارتي كل صباح . وستقول له وعيمني إني

ماتة . . . ولكن يحتمل أن يقض ريشما أستيقظ .

فتاولت رأسها لحبل بين يدي . وأودعت شعيتها قبلة أحيرة

وسألتها

- ومن أولئك مرة أخرى؟

فأجابت :

- أصح إليّ . خذ المفتاح الصغير الذي تجده على حافة الموقد

وافتح به الباب ثم اهد إلى مكانه . وادع في سبيلك

وستصلك في خلال النهار رسالة تتضمن أوامري . فأنت تعلم أنه

ليس لك إلا أن تطيعني طاعة عماء .

- أعلم ذلك . ولكن مني أني أريد بدوري أن أسألك

أمراً

- ما هو؟

- هو أن تسمح لي بالاحتفاظ بهذا المفتاح . .

- إني لم أسمع بذلك لأي إنسان من قبل !

- لا بأس . فاسمحي لي به فإن أحداً من الرجال لم يحبك كما

أحبك

- حسناً . خذها إذا . ولكني أصارحك بأن فائدة هذا الاحتياح

وعدم فائدته متعلقة بإرادتي

- وكيف ذلك؟

- إن لي لياب مزليح داخلية

- ما أقصى ذلك !

- ولكنني سأمر بآزالتها ..

- فأنت تحبتي بعض الحب إذا؟

- لا أستطيع أن أقدم شعوري حق الفهم ولكنني أظن لي
أسك الآن إليث هي أنني في أشد الحاجة إلى النوم
فصمتها إلى صدري .. ثم ودعتها وانصرفت ..

•

كانت الشوارع مقفرة والمدينة العظيمة لا تزال ساكنة هاجمة .
فحسيت مفرغ الرأس تماماً كما يريد أن يبلغ الجبال طولاً
وأعدت أسترجع في ذهني أسماء أولئك الذين كنت فيما مضى
أخطبهم فلم أجد بينهم واحداً أسعد من بعد اليوم

•

واستعرفت لي يوم صبيح واستيقظت عندما حمل إليّ الخادم
رسالة من مرعريت تقول فيها هذا المساء في مسرح
المودليل ... بعد الفصل الثالث .

فوضعت هذه الرسالة تحت وسادتي لألصق يدي كلما
تروعت - كما حدث مراراً - أنني في حلم لا في نقطة

•

ولم تطلب إليّ مرعريت أن أقبلها بهراً ولم أجروا لنا على
الذهاب إلى بيتها ولكنني شعرت برغبة شديدة في أن أراها قبل
المساء ولم أجد وسيلة أفضل من الانطلاق إلى حديقة الشانلييه
حيث اعتادت أن تلعب بمركبتها كل يوم

وقد رأيتها هناك . ولكنني حرصت على ألا أدها تراتي

•

وفي الساعة السابعة صعدت إلى مسرح المودليل ولم يحدث
قط قبل ذلك أنني دخلت مسرحاً في هذه الساعة المبكرة
وأخذت الشرفات تحتلى تدريجياً ولم تنق إلا شرفة واحدة
خالية فلم أحول بعصري عنها .
وما بدأ الفصل الثالث حتى فتح باب هذه الشرفة ودخلت
مرعريت .

وكان أول ما عرفت أنها أجالب البصر في جوانب المسرح
حتى أبصرت بي فشكرتني بنظرة .

•

كانت ساهرة الجمال في ذلك المساء ..

فهل كنت أنا سبب هذه الفتنة يا تروى؟

وهل هي تحسني بحيث تعتقد بأنه كلما ازدادت فتتها كلما
تضاعفت سعادتني؟

لا أعلم ولكن لو كان ذلك غرضها فإنتها محنت دون
ذلك أمد حدود الحاح لأنها ما كادت تترنح في مكانها حتى
تحوكت إليها الأنوار وتهامس النظارة ولم يتصالح المشغول
أنفسهم من التحديق نحو العائنة العاتية التي حوكت عنهم أبصار
المتفرجين

وقد كان في حبي مضاعف بت هذه العائنة اللعوب وبعد ثلاث
أو أربع ساعات صحح هذه العائنة لي مرة أخرى فهل يوجد في
ذلك المسرح بل هل يوجد في العالم كله إنسان أسعد مني؟

•

لقد تعرفنا أن سحرى باللائمة على الشباب الذين يحبون على

أنفسهم العدو والدمار من أجل الغايات وساء المسارح ولكن ما يدهشي هو أن أولئك الشباب لا يقدمون على المزيد من الحماقات من أجل أولئك النساء وأنه ليستحقن عليك أن تعشق إحدى العانيات لكي تعلم كيف تساعد عبارات الإعجاب والإطراء التي يحسبكرها الناس لأولئك النساء على تمكين حبسهن من قلوب عشاقهن

ودخلت المقصورة في إثر مرغريت امرأة عرفت فيها برودرس ورجل عرفت فيه الكونت دي ج الذي رأيت صورته في بيت مرغريت والذي قالت برودرس إن مرغريت تدب له بالملكة التي تبوؤها .

وما كدت أرى هذا الرجل حتى غشيت قلبي منه برودة شك من الحركة

ولا شك أن مرغريت لاحظت الانقلاب الذي طرأ على سمعتي بسبب وجود هذا الرجل لأنها انسمت لي مرة أخرى ثم تحولت عن الكونت وتظاهرت بالاهتمام بالمرحبة التي تمثل

هند نهاية الفصل الثالث نظرت مرغريت إلى الكونت وقالت له كممتون فنهض الرجل وغادر المقصورة وعندئذ دعيتي مرغريت إلى مقصورتها بإيذنة من رأسها .

قالت لي وهي تبسط إلي يدها :

- طاب مساؤك . .

فأجبت أحسبها وأحيى صديقتها برودرس :

- طاب مساؤكما .

قالت -

- اجلس .

فأجبت :

- هل احتل مفعد رجل آخر؟ إن (الكونت دي ج .) سيعود دون شك .

- نعم إني طلبت إليه أن يأتي بي بعض الحصى لكي يحلوا لنا الجور فتحدثت لحظة .

إني ألق في برودرس وأطعن إلى كتمتها أمرنا .

فقالت برودرس :

- نعم نعم كونا مطمئنين . غس أبوح بكلمة

فقلت مرغريت وهي تقرب بمقعدنا حني .

- ماذا دعاك هذا لساء؟

- إني لك في غير حال

فقلت ساخرة :

- إذا ، يجب أن تلزم الفراش !

- أليس؟

- في عتلك .

- أنت تملعين جيداً أن النوم لن يجد مسيلاً إلى أجماني هناك .

- إذا لا يجب أن تتجهن لنا فغير ما سب إلا أنك رأيت رجلاً

في مقصورتني !

- ليس هذا هو السب

- إنه السب وأنا واثقة من ذلك ولكنك محطى فلتترك

الحديث في هذا الآن ومتى انصرفنا من المسرح فادع إلى بيت
برودنس وانتظر هناك حتى أدهوك هل سمعت؟!

- نعم

وهل كان في استطاعتي إلا أن أسمع فأجيب وأطيع
وسألت :

- ألا رلت غيبي؟

- هل تسأليني؟

- ومن فكرت في؟

- كل النهار

- هل تعلم أنني أصبحت أخشى الوقوع في شرك غرامك حقاً؟

سل برودنس فتبتك

فهتفت برودنس

- آه نعم هذا صحيح

قالت مرغريت

- ادع الآن إلى مقعدك فقد أوشك الكونت أن يعود

وليس من الضروري أن يجدها هنا

- لماذا؟

- لأنك تتألم إذا قبلته .

- كلاً . . لو قلت لي فقط أنك تريدني المحصور إلى مسرح

الموديل لاحتجرت لك هذه المقصورة عرضاً عنه

- أيها الناس . . لقد احتجز لي هذه المقصورة دون أن أطلب إليه

ذلك ثم توسل إلي أن أرافقه فلم أستطع رفض ترسلاته

وكل ما استطعته . . أنني كتبت إليك أنك يمكنكني . . ليستنى لك أن

تتراني . . ثم لأنه طالب لي أن أراك قبل الموعد المتفق عليه . .
ولكن ما دمت قد شكرتني بهذا التجهّم وهذا العبوس . . فلاني
سأفقد من هذا الدرس مستقبلاً . .

- إني انطقت . . فأخبرني لي .

- هذا خير ما قلت . . والآل عد إلى مقعدك حينئذ ناهم
البال . . وحذار أن تغار

واتصرفت من مقصورتها . . وصادت الكونت وهو في طريقه
إليها .

وبعد فقد كان وجود الكونت في مقصورتها أمراً طبعياً
إنه كان عشيقها في أحد الأهم . . وقد احتجز مقصورة في ذلك
المسرح . . وطلب إليها أن ترافقه . . غرامته . . فهل في ذلك خرابة؟
وما دمت أريد هذه الفتاة عشيقاً لي . . فلا يجب أن أقبل عاداتها
وطبائعها وأغض عن سوء تصرفاتها؟!

ومع ذلك فلاني كنت شديد التماسه جراً ذلك . . ونصاعفت
تعالمتي عندها رأيت مرغريت وبرودنس تنصرفان مع الكونت في
مركبته . .

ولم تنقص ربع ساعة حتى كنت في بيت برودنس . . وكانت قد
وصلت إليه لتوها

المصلى الثالث عشر

قالت برودنس تحدثني ولما عندها :

- إنك جئت بمثل مرعيتا!

فأجبت بلهجة آتية

- نعم . فأين مرعيت؟

- إنها في بيتها

- وحدها؟

- كلا . . إنها مع الكونت دي ج

فأخذت أسير للتو في الخفة جثة ودهابا

سألني

- ماذا بك؟

- ماذا بي؟ هل تحسبون أنني أجد منحة في الانتظار ها حتى

ينصرف الكونت من حفرة مرعيت؟

فأجابت

- إنك تعطى الصواب الفهم والتعكير السليم يا صديقي

يجب أن نعلم أن مرعيت لا تستطيع أن تطرد الكونت فهو

عشيقها منذ زمن طويل وقد أعطاه وما زال يعطيها مبالغ طائلة

إن مرعيت تغرق مائة ألف فرنك في العام وهي إلى ذلك

متقلبة بالدون

والدوق يعطيها كل ما تطلب ولكنها لا تغمر على تحميله كل

نفساتها وتحتفظ بالكوت الذي يملأها بصفة آلاف من العريكات

شهرياً

إن مرعيت غمبك . . ولكن لحورك وغيرها على السواء . . ألا

تخطئ الصلة بكم صبة جذبة لأنك لا تستطيع بليرادك الذي لا

يتجاوز سبعة أو ثمانية آلاف فرنك أن ترشي إسراف هذه الفتاة

من إن يرادك كله لا يكاد يكمي نفقات مركبتها لذلك يحس بك
أن تقبل مرعيت كما هي . . وألا نرى فيها إلا أنها فتاة عذبة ذكية
حسنة

كن عشيقها شهراً أو شهرين . . وحمل إليها الحلوى وياقات
الزهر . . ولكن لا تتجمل في دمث شيئاً من الأهدام والحماقات . .
وتجنب إزعاجها بعيرتك

أنت تعرف مرعيت حق المعرفة . . وتعلم جيداً أنها لا ترضى أن
يسخر عليها أحد . . وهي معجبة بك . . وأنت شعوف بها . . فاقنع
بذلك . . ولا ترعج نفسك بعيره

إنك تنعم بأجمل غنية في باريس . . وهي تتفليك في محبتها
الصميم . . ولا تكلمك ستيباً واحداً! فكيف لا تقع بكل هذا؟ إنك
في الحق رجل يستحيل إرضائه!

- لا شك أنت على حق يا بروفس . . ولكي أتألم أشد ، أألم
بهمرد التعكير في طورتها الآن . . مع هذا الرجل الذي كان عشيقها
في أحد الأيام . .

- ومن هو لا يزال عشيقها؟ إنه رجل تشرب بها جها إياه . . فم
تجر على رفض دعوته عند دعائها لمرافقته إلى المسرح . . وقد عاد
معها إلى بيتها . . ولكنها لن تسمح له بالبقاء معها لسبب واحد على
الأقل . . هو وجودك هنا

حيرني أعجب لك . . كيف تنقم على صلة مرعيت بهذا
الكونت ولا تنقم على صلتها بالدوق؟!

- إن الدوق رجل متقدم في السن . . وأنا واثق أن مرعيت ليست
عشيقته

وفضلاً عن ذلك . هذا الإنسان قد يحضر الطرف من صلة واحدة . ولكنه لا يتجاوز عن صلتين ! فسهولة التجاوز عن هذه الصلات - ولو بدافع الحب - ترون الإنسان إلى الدرك الأسفل الذي تشبعت فيه الشجرون بالأعراض .

- أنت من الطراز القديم يا صديقي العربي - حكم من البلاه والأعياء والمبريس في الهيئة الاحتشادية من يعمل بعير تردّد أو شعور بأخجل وحر الصير - ما أتضح لك الآن بأن فعله ! وهل تعتقد أن في استطاعه غاية من غايات باريس المعروقات أن تحتض بمظاهر الأبهة والزخامة ما لم تتحد ثلاثة أو أربعة من العشاق في وقت واحد ؟ إن الرجل إذا لم يكن واسع العسى فإنه يصجر من إحانة فتاة مرعوت إلى كل مطالبها .

يكون الرجل واسع العسى في باريس إذا بلغ إيرادهم خمسة آلاف من الفرنكات . ولكن هذا الإيراد على صغامتة لا يكاد يكفي لإرضاء فتاة كمرعوت . . . وإليك السب .

يتعين على صاحب مثل هذا الإيراد أن يكون له قصر وحدم وحشم وأصدقاء ومركبات وجياد وكلاب للصيد ونحوه عليه أن يقامر ويكثر من السباحة والسرّ شان أمثاله . وكل هذه نقاليد مقررة لا يستطيع أن يتجاوز عن إحداها دون أن يثير الشكوك في متانة مركزه المالي . فإذا عرفنا ما تقتضيه هذه التقاليد من مصروفات وجدنا أنه لا يستطيع أن يهب عشيقته أكثر من أربعين أو خمسين ألفاً من الفرنكات في العام . عماداً نستطيع العايب المبرزة أن تصح بهذا المبلغ ؟؟ إنها تستعين حتماً بأكثر من عشيق آخر لتتمكن من موازنة ميزانيتها والاحتفاظ بما تعودت عليه من مظاهر الأبهة والجمال

على أن حال مرعوت يختلف عن حال غيرها . وقد كان من حسن حظها أنها صادقت ذلك الموق الشيخ . . وهو رجل واسع العسى . . فقد روجته واته ولم يبق له إلا بعض الأقرباء . وكلهم أعياء مثله . فهو لا يبرح تحت ثقل من الالتزامات كما يبرح سواه . وفي استطاعته أن يجيب مرعوت إلى ما تطلب دون أن يسألها شيئاً

ولكن مرعوت لا تطالبه بأكثر من صتين أو سبعين ألف فرنك في العام . وثنا وثيقة من أنها إذا طلبت المزيد فإن الشيخ - رغم عاه وضعفه عليها - قد يرفض طلبها

وحصص الشباب الذين يتراوح إيرادهم بين ٢٠ و ٣٠ ألف فرنك - وهو مبلغ لا يكاد يكفي بمقاتهم الشخصية في الوسط الذي يعيشون فيه - والأماكن التي يحتفلون إليها - جميع هؤلاء الشباب يعلمون - متى أصبحوا عشاقاً لفتاة مثل مرعوت - أن كل إيرادهم لا يكفي لإيجاراً لبنتها . ولكنهم لا يقولون لها إنهم يعلمون ذلك بل هم يتظاهرون بأنهم لا يرون شيئاً حتى إذا نالوا بعينهم وعذبوا بمسأ تنطقوا لشأنهم ويركضون بشأنها أما من دفعه الضرور سهم إلى الاضطلاع بالمسؤولية كلها فإنه يهني حتماً إلى الإفلاس ثم إلى العز أو الانتحار . بعد أن يترك وراءه عبثاً ثقيلاً من الديون

ولا يكون يدرك كله قد مسح عظم العايبه أو استوجب شكرها بل على العكس . ستقوى الغايبه إنها غشحت بمكرها أيضاً من أجله . وإثنا فقدت في معاشرته كثيراً من أمال

ولا شك أنك ستجد هذه التخصيصات مهمة لك . مدنة لكثيرائك . ولكنها تعبر عن الخفيضة والواقع . فقد قضيت عشرين

حاشاً مع هذا الطراز من المنيات حتى عرفت قيمتهن^١ والرأي
عندي ألا تقيم ورنأ كبيراً لمواظعهن^٢.

ونكر لمرض أن حبك تمكّن من قلب مرقررت وأن الدوق
والكروت لاحظا الصلة بينكم وخيراها فاحتاروك من
دوبهم عماد يكون بعد ذلك؟؟ وعندا تستطيع أن تفصح في
سبلها لغاء نصحتها الجسيمة في سبيلك؟؟ ومى بنت منها بعينك
ومللتها فكيف تعرضها عما فقدت ولأجلك وسبك ورصاء
لك؟؟

إنك لا تملك وسيلة لتعرضها ونكون فقد فدت حرتها من
العالم الذي تعيش فيه وفي وحده مستقبلها ونورونها ونقاها
على ما هي فيه من بدخ وترف.

ونكون هي بدورها قد صيحت معك أتمس سي حباتها
وقطعت الصلة بينها وبين أصدقائها وعشاقها السمين.

وعندئذ تصبح أنت أحد رجلين إما رجلاً من الطراز العادي
تترصها بأنامها وأوزارها ونقول لها إنك لا تستطيع أن تفعل من
أجلها غير ما فعله غيرك من عشاقها ثم تتركها في شغورها
وبؤسها وتذهب في سبيلك . وإما أن تكون رجلاً شريفاً كريم
الغنى طيب الخلق يرى أن من حقها عليك أن تقيها عندك
تترصخ لهذه الكارثة مرغماً وتشر دائماً بأنها فذنى في صيبت
وشركة في حنك وعقبة كاداء في سبل مستقبل ومطامعك
وسمادتك العائلية

فاحمل بصيحتي أيها الصديق إدأ . وعد الأشياء بقيمتها الفعلية
والمرة بقيمتها الحقيقية ولا تمنح فتاة من طراز مرقررت الحق في

أن تثير غضبها فالتة لك بحال .

ثم أجد ما أقوله رداً على هذا التذليل اللطفي المقبول والذي
أدعشي صدوره من امرأة كبرودس . ولم يسمي إلا الاعتراف لها
بالوهاء وبعد النظر عشدت على يدها وشكرت لها بصيحتها
التيمة

قالت

- ربه منك إدأ . . وطرد الأوهام الحائكة التي قلا ذهنك . .
وبحكك من الحيلة تحت يد صديقي وإن اعتملت ألوانها
باختلاف للنظار التي تراها به .

سل صديقك حامتون فإنه يفهم معنى الحب كما يفهم
ويحبك أن تشعر الآن . فلههم إلا إذا كنت جامد العاطفة . بأن
على مقبرة ما فتاة حسناء تفكر بك ولحبك وتنتظر
انصراف والزها بعارخ الصبر لكي تشارك في فراشها وتفضي
حكك ليلها

والآن تعال معي إلى القاعة لرتب انصراف الكروت معاً

قالت هذا وفتحت القاعة . وراحت تنظر إلى العابرين
لما شا فتعيت أحلم . . وأفكر .

كاد كلامها لا يزال يطن في أذني . ولم يسمي إلا الاعتراف
بأنه حين الحق والحكمة . ولكن كيف يستقيم هذا الكلام مع الشعور
القوي الذي أكتة لمرقررت؟

وأنزلت من بين شعني على الرغم مني لغة حبيقة .

برودس تنظر إلي ثم تهر كعبها كما يعمل الطبيب إذا يش
من مريضه فأسلمه بيد الردي
فلت لتعسي

- لشد ما يشعر الإنسان بقصر الحياة من هذه الانتمالات السريعة
التي تأخذ برهاب بعضها بعضاً في أقصر وقت إني لم أعرف
مرغيت إلا منذ يومين ولم تصبح عشيقتي إلا منذ يوم - ولكنها
احتلت من قلبي وتفكيرتي وحياتي مكانه جعلني أرى في ردة
الكورت دي ج - لها كلرة شحبة دونهما كل الكورث

وانصرف الكورت أخيراً وأطلت مرغيت من نافذتها ودعنا
إليها

وما كنت أدخل حتى أحاطت عني بساعديها وعصمتي إلى
صدرها بحرارة
سألتني

- ألا زلت مقلباً متجهماً الوجه؟

فجالت برودس -

- كلاً لقد زال نجهمه فتني أقيت عليه محاصرة قبة

وعد على أثرها بأن يغير سلوكه

- هذا من حسن الحظ

وجلسنا إلى مائدة الطعام .

كانت مرغيت في تلك اللحظات مثال الفتنة والخيوية ودمامة
الخلق فقدت لتعسي ماذا أريد منها غير ذلك لو أكثر من ذلك؟
وحاولت أن أضح ظريقات برودس موضع التعميد وأن أكون

مرحاً طروباً كصاحبي فكان مرحي متعللاً وكانت ضحكاتي
أقرب إلى البكاء .

*

وفعت الثالثة - . وقيت وحدي مع مرغيت .

وجلست مرغيت على سجادة نفيسة أمام الموقد . . وراحت تنظر
إلى القنيران في حزن وأسى .

كأن تفكر ولكن فيم كانت تفكر؟

قالت لي فجأة

- تعال واحلن بجاني

فأطعت

فالت

- هل نعلم فيما أفكر؟

- كلاً

- إني أفكر في علة خاطرت لي

- وما هي هذه العلة؟

- لا أستطيع أن أحفظك بها الآن . ولكني أذكر لك نتيجةها

المستقرة

سيترتب على هذه العلة أن أصبح بعد شهر حرة طليقة ولا

دين علي لأحد من الدائنين فذهب معاً لمصعب العصف في

الضواحي .

- ألا تحفظني بمضمون هذه العلة؟

- كلاً ولكن يجب فقط أن تحبي كما أحبك فيسير كل

شيء في مجراء الطيبي وتنجح خطتي وأنا لن أرى

- هل دبرت هذه الخطة بنفسك؟

- نعم .

- وفي بيتك تنصدها بمفردك؟

- فأجابت وعلى شفيتها ابتسامة .

- سأحتكر متاعها لنفسي . ولكننا سنقسم ثمنها معاً

فاحسراً وجهي عندما سمعت كلمة (ثمنها) لأنها ذكرتني

كيف كانت «ماتون ليكو» تبعثر مع عشيقها أموال الشيخ البيل

الذي وقع في حبالها

قلت بحدثة . . وأنا أنهض واقفاً .

- اسمحي لي يا عزيزي سرخريت بأن أنفض يدي من (فولند

ولمار) أية خطة لا أقوم بمسعي على تدبيرها وإتمامها

- ما معنى هذا؟

- معنى هذا أنني أرثب بقوة في أن للكونت دي ج ضلعاً في

الخطة السعيدة التي تتكلمين عنها . والتي لا أتبل مستوليئتها لو

فرائدها .

- أنت طفل كبير لقد حست أنك غشي . ولكني كنت

واضحة؟

ثم هضت إلى البيانو وراحت تعرف الأشرطة التي عرفتها وترغمت

بها ليفة أن عرفتها لأول مرة .

ولا أعلم هل عرفتها لشعاعها بها . لو لأنها أرادت أن تدكرني

بتلك الليلة؟

وكل ما أعلمه هو أن مع هذه الأشرطة عاودني الذكريات

هدوب منها . وأسكت برأسها بين يدي وبتت جيها

وبأنتها

- هل تصححين عني؟

- فأجابت

- أنت ترى أنني صمعت . ولكني أرجو أن نلاحظ بأن ما رل

في يومنا الثاني فقط . ومع ذلك فهناك ما يستوجب تصحي

بنت لا تقسم كبير دون لوجودك في بالطاعة الصمياء . ألا ترى

ذلك؟

- ماذا نظنن مني يا سرخريت؟ إني أحبك كثيراً . وأغار من

مجرد الخواطر التي تطوف بلمحك .

وهذا الاقتراح الذي عرضته عليّ من لطالب مد جعمني أظير

مرحاً . ولكن السر الذي يحيط بالخطة التي تزدي إليه أحسني

وهعني . . وأثار شكوكي فندني .

فأسسكت بكلتا يدي . وقالت وعلى شفيتها تلك الابتسامة

الحلالية التي لا تقاوم :

- دعنا نتفهم أنت تحبي . ليس كذلك؟ ونكون سعيداً بد

خلوت بي شهرين أو ثلاثة في الصوامي؟ أن كذلك أكون سعيدة

بهذه الخلق المرموجة . ليس فقط لأنني أجد فيها المنعة والهاء وفي

كذلك لأنها ضروره علاجية لصحتي . ولكني لا أستطيع أن أعيب

عن باريس مثل هذه المدة الكبيرة دون أن أرثب شؤومي . وشؤون

مخلوقة من طرقي تكون عادة شديدة الاضطراب والارتباك . غير

أنني اكتشمت وسيلة للتوفيق بين شؤومي وحبتي لك . نعم . حيي

لك . فلا تصححك ! لقد بلغ من جوشي أنني أحببتك . ومع ذلك

هناك تشمخ بأفك وتكيل لي الكلام حراً

أيها الطفل أيها الطفل الكبير تدنر فمط أني أحبك . لا
ترجع نفسك بشيء آخر . هل اتفقنا؟ أجب !
- أنت تعلمين أنني أوافق على كل ما يرضيك . وإن لا يوافقني
غير إرادتك .

- حسناً إذا بعد شهر نكون في إحدى القرى حيث نمشي
على حافة المديرة وشرب الخليب وقد يبدو غريباً أن نرضى
مرحيت جوييه بالحياة على أبسط ألوانها . ولكن هذه الحياة
الباريسية التي يحيل إلى الدين بمرموسي أنها تدخل السرور على
نفسه هذه الحياة تنعشي ونقصي حينما لا نحرقني ثم يتي
قد ملكني فجأة رغبة شديدة في حياة هادئة تدركني بحياة الطفولة
كل إنسان قد عرف هذه الطفولة مهم تكن الحياة التي عاشها
بعد ذلك . ولكن لا ترجع فليس في يدي أن أقول لك إنني
كنت من أسعد الأطفال أو إنني به ضابط كبير متقاعد . وإنني
مد تلقى صومي في كنية «سان دييغو» حيث تتعلم بنات النبلاء
والأغنياء .

كلاً كلاً فما أن إلا فتاة رقيقة فقيرة ومدته أعوام لم
أكن أعرف كيف أكتب اسمي . فهل أضمن عليك الآن؟ ولعنك
نعم لماداً وقع احتياري عليك دون سائر الرجال لكي تشاطري صفة
الحياة الهادئة التي أصبو إليها . فهل تعلم لماذا؟ لأنني شعرت بأنك
نحسي لشخصي جاً خالياً من أدنى الأشياء . بينما يحرك من الرجال
قد أحبوني فقط لإضاء شهواتهم وإشباعاً لمرورهم ولباتهم

لقد ذهبت إلى الأرياف مراراً . ولكن ليس كما كنت أحب أن
أذهب . وإن الآن أحتدم عليك للحصول على السعادة التي أتطلع

إليها . صلاتي عشر الطبع . وأحبي هذه النعمة . وقل
لنفسك إنها سوف لا تعيش حتى تبلغ مبلغ الكهولة . وأنا سوف
لا أتم في أحد الأيام على أنني لم أجيب إلى أول مطلب لها
وهو على كل حال مطلب سهل ميسر .

•
بماذا كان في استطاعتي أن أجيب عن لهجه كهذه اللهجة؟ بينما
ذكرى ليلاً الأولى لا يزال محتقن ذهني . وبينما أنا في انتظار البينة
الثانية؟

•
وبعد ساعة أخرى . كانت مرغريت بين ذراعي . . . ولو سألتني
في تلك الخلوة أن أرتكب جريمة لأطمئنتها واقتربتها

•
ومضى الليل . . . واقتربنا في الساعة السابعة صباحاً . . . وقلت لها
قبل أن أنصرف
- إلى اللقاء في هذا المساء

فقتني بلطف . . . ولكنها لم تجيب !
وحول الظهر . . . جاتني منها هذه الرسالة :
أصديقي العزيز
أقضي مريحة والطبيب يأمرني بالراحة . وسأعود بمراسلي في
ساعة مبكرة . فليس أراك الليلة . ونكي أعوضك بأن انتظرك ظهر
غد إنني أحبك .

•
قرأت هذه الرسالة وقلت لنفسي في الحال «إنها نحوس»

وتعصب العرق البارد على جيبتي ورحب قلبي فقد كنت
أحب هذه المرأة حباً يجعل من مثل هذه المرأة جميعاً
ومع ذلك فإنه كان يجب عليّ أن أتوقع هذه الحياة يومياً من
امرأة كمرعريت وقد خالفتني فيها كثيرات من عشيقتي فلم
أقم حياتهنّ يوماً عما السر إذاً في سيطرة هذه المرأة على قلبي
كله .

وخطر لي أن أذهب إلى بيتها مساء كعادتي ما دمت أملك
مفتاحه وهكذا أقطع الشك باليقين بأسرع ما يمكن وإذا وجدت
عندها شيئاً فإني أحبه وأطرده

ودعيت إلى الشاذليين وفقيت هناك أربع ساعات ولكني لم
أرها .

وفي مساء تزدت على جميع المزارع التي اعتادت مرعريت
أن تفتشها . ولكني لم أجد لها أثراً

وحوالي الساعة الخامسة عشرة دعت إلى شارع داتان ولم
أجد موراً من مواعد بيت مرعريت ومع ذلك لم أسي فرعت
الجرس . . وسألي البواب عما أطلب . فأجبت :
- إنني جئت لزيارة الأمّة مرعريت جوتيّه .

قال :

- إنها لم تعد بعد .

- سأنتظرها في شقتها إذاً

- لا يوجد أحد في الشقة .

لم يكن ثمة شك في أن مرعريت أمرت بالأمرها أحد
وتلك عاداتها كما عهدتها . ولكن كان في استطاعتي أن أحرق
أولمراها . . لأن مفتاح شقتها في جيبتي .
يدينني أشفقت أن أثير فضيحة مضحكة فانطلقت في
سيلي

ولكني لم أجد للتو إلى مرلي ولم أبح شارع داتان ولم
أحوك بصري عن بيت مرعريت .

شعرت بأن هناك أشياء يجب أن أعرفها وشاهدت الأقدار أن
تحقق شكوكي فبدأت الدليل يتكشف حتى وقعت بالباب
مركبة وعبط منها رجل عرفته في الكونت ذي ح
ولم أركب الكونت سائق المركبة بالانصراف ودخل البيت

ودعوت في تلك اللحظة أن يكون حظه كحظي وأن يقال له
إن مرعريت لم تعد بعد إلى بيتها وأن أراه يخرج من البيت
مضبباً كلياً كما خرجت أنا .

ولكن الساعة دقت الرابعة صباحاً وأنا لا أزال أنتظر خروجه

كنت قد قاسيت كثيراً في الأسابيع الثلاثة الأخيرة ولكن ما
غلبت في تلك الليلة كان يهوى طاعة البشر . . كل البشر .

الفصل الرابع عشر

لما عدت إلى بيتي استلقيت وانصبرت باكياً كالأطفال

لا يوجد رجل إلا غائبه، المرأة التي يحبها ولو مرة واحدة ولا يوجد رجل إلا ويرج به الألم الذي تنبئه هذه الحبيبة

قلت لصبي وأنا أروح تحت ثقل القلوب التي يحفظها الإنسان في مثل هذه الظروف إنني يجب أن أقطع صلاتي بهذه المرأة وأن أنتظر حتى تسرع الشمس فأرحل إلى أبي وأختي حيث استمتع بالحظ الطاهر البريء الذي لا يعرف معنى الحبيبة ومع ذلك فإني لم أشأ الرحيل دون أن تصرف مرعرت الب .

رجل واحد يستطيع أن يرحل دون أن يكتب لعشيقته وذلك هو العاشق الذي طلق الحب وعرض غبارته من حداثته



تفتق ذهبي من مائة صيغة للرسالة التي أنوي كتابتها كنت حبال امرأة لا تعترف من ساء طيفها امرأة أحللتها من ماضي فوق المكانة التي تستحقها . مما كنتي كغلام من غلام المدارس وجلبت في حياتها لي إلى حيلة مهية في بساطتها وأصبح من الواجب أن أثار لكراحتي المندوشة فلا أقل إذا من أن أهيئها دون أن أترك لها سبيلاً إلى معرفة السر في قلبي وعلمي وأخيراً تناولت القلم وكتب إليها هذه الرسالة ودموع الحزن والغضب غملاً عيني

هريري مرعرت

وأرجو أن يكون مرضك بالأمس قد زال ورائت آثاره ولقد ذهبت إلى بيتك في الساعة الحادية عشرة للاستفسار عنك فقبل لي إنك لم تعودي ولكن المكثرت دي ح كان أسعد من حظ

لأنه ذهب إليك بعد بضع دقائق ! ودقت الساعة الرابعة صباحاً وهو لا يزال عندك . .

مستدرة من الساعات القلائل الجملة التي جشمتك قضاها معي وشكراً على الصلوات السعيدة التي أدب لك بها وقد كنت أود أن أستر عندك اليوم لولا أنني بسيل التأهب للمصر إلى قبي

أعزها يا هيري مرعرت إنني لست من الناس لكي أحبك كما أريد ولا من الفقير لكي أحبك كما يريدون فلنسى إذا أنت . اسماً لا يكاد يهتد وأنا . سعادته لم تعد محبة وعزها أرد إليك معك الذي لم أستعده قط . والذي قد يبدك كلما أتاك مرض كمرض أس .



ولم أملك تلاحظ أنني لم أستطع إقدام رسالتي من هيري نهكهم وسحرة لقد قرأت الرسالة مراراً وطاب لي أن أتصور أثرها المؤلم في نفس مرعرت . وفي الساعة الثامنة أمرت عذامي جوريت أن يذهب بالرسالة إليها .

لسألتني :

- وهل أنتظر دها ؟

قلت له :

- إننا سألتك وصيغتها عما إذا كانت الرسالة تحتاج إلى رد واجب بأنك لا تعرف . وأنتك ستنتظر حتى تقرأ السيدة الرسالة

والحق! خفق قلبي بعض عذاب لآل لي أمل في تسليم رد
منها . . فما أضعنا نحن معشر الرجال!

وقضيت فترة غياب الخادم وأنا في أشد حالات الاضطراب
تذكرت كيف أسلمتني مرهريت نفسها . وقلت لنفسي بأي
حق أكتب إليها مثل هذه الرسالة الوقحة . يسما في استطاعتها أن
تجيبني بأن الكونت ذي ج لم يخدمني ولم يحمي . ولكنني
الذي حنته وحدثه

ثم تذكرت وعودها وأحاديثها المعسولة . وقتب إن لهجة
رسالتي إليها كانت أحف مما ينبغي

وأخيراً سألت نفسي ترى بماذا ستجيبني؟

وشجرت يالتي على استعداد لقبول أي هدر تسرع به خيانتها

وعاد الخادم لسألك في لهجة

.. ماذا صنعت؟

أجاب :

.. لقد قول لي إن السيدة في فراشها . وفيها لا تزال نائمة . وإن
الرسالة ستسلم إليها حالاً تنبسط . وإذا كان ثمة رد فسيأتي به
إليك

لا يزال نائمة!

وخاطر لي مرة أن أتعذ خادمني لاسترداد الرسالة . ولكنني
كنت دائماً أقول لنفسي

.. ربما تكون قد تسلمت الرسالة فعلاً! فإذا أرسلت لاستردادها كان
ذلك دليلاً على ندمي

وكنت كلما مرت الساعات كلما زاد أسفي وندمي على أنني
كُتبت تلك الرسالة الوقحة

وقدت الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة . ثم انتصف
النهار . وخاطر لي عذلاً أن أذهب إليها في الموعد المتفق عليه
كأنما لم يحدث شيء . ولم أكتب شيئاً .

وأخيراً ملكني الحيرة ولم أعرف كيف أصنع لأخرج من الحلقة
العولادة التي تحيط بي

وقدت الساعة الواحدة وأنا لا تزال أنتظر

وعذلاً فكرت . كيف يمكن أن أتلك النهر بتعلقون بالأوهام
والخرافات . في أنني إذا انصرفت من المنزل فقد أجد رذفاً في
انتظارني عند عودتي . فإن الردود التي ينتظرها الإنسان بعروخ صبر
تصل دائماً في عيده

عند هذا الوهم انصرفت من المنزل بحجة الرغبة في تناول
الطعام . ولكنني لم أعتد إلى مطعم «فوا» حيث تعودت أن أتناول
عدائي . بل فصلت أن أذهب إلى مطعم «فير» في ميدان الباليه
روايل . وأن أمر في طريق مشروع داتان . وكنت كلما رأيت امرأة
على ميعدة سي كلما حيل إلي أنني أرى ماثي . وأنها في طريقها إلى
بيتي حاملة إلي رسالة من سيجتها مرهريت

ودخلت المطعم . وقدم إلي الخادم ما شاء من الطعام . ولكنني
لم أتناول منه شيئاً

وعدت إلى منزلي وأنا واثق من أنني سأجد فيه رذ مرهريت على
رسالتي . ولكنني خاب رجائي

قلت وقد اسودت الدنيا في عيني . لو كان في يه مرعيت أن
تكذب لفعلت ذلك منذ وقت طويل
وبدأت أئتم على لهجة رسالتي .

لو أنني لمحت جانب الصمت المطلق لأخبرها ذلك ولأفلقها ثم
متى وجدت أنني لم أذهب إليها في الموعد المتفق عليه بينا فإنها
لا تبطئ أن تستمر من سبب عيامي . وعندك أقول لها ما
عندي . فلا تجد أمامها إلا أن تسرع سلوكها وما كنت أريد منها
إلا أن تسرع سلوكها . ولأي عذر كانت ستلتمه كان جديراً بأن
يقضي فيه أهول علي أن أقتع بأي عذر من أن لا أرواها لبدأ

وحاولت أن أفتح عيني بأنها ربما تأتي بمسما لتتعامم أو
الاعتذار .

ولكن المساعات ممت طويلة . . وهي لا تأتي .

لا شك أن مرعيت لم تكن كبيرها من الماء . هاهن قليلات
جداً بل هي معدودات . أولئك اللاتي يتلسم رساله كرسائتي
ولا يكتبن لها وهاً

وهي الساعة الخامسة ذهبت إلى الشانلييه . وهي بيتي أن
أخاطبها إذا رايته . لكني أنصهره بأنني لم أعد أفكر فيها . وأنني
انترعتها من قلبي .

ولكنني ما كنت أنجول في شارع رويال حتى رأيت مركبتها
أمامي

كانت المقابلة فجائية . بحيث تخيل إلي أن الدم قد غاض من
وجهي

ولا أعلم هل لاحظت مرعيت ما بدا من اتصالي . لأنني لم
الواقع كنت من الاضطراب بحيث لم أؤ غير المركبة

ولم أواصل السير إلى الشانلييه . بل كانت هناك وسيلة أخرى
للمقابلة مرعيت . جعلت أقرأ إعلانات المسارح حتى وجدت أن
هناك مسرحية جديدة ستعرض لأول مرة في مسرح «الباليه رويال»
لم يكن ثمة شك في أن مرعيت ستذهب إلى هذا المسرح .
فخصدت إلى «الباليه رويال» وأخذت أرقب المقصورات التي
امتلات جميعاً . . ولكن مرعيت لم تحضر .

عندت «الباليه رويال» إلى «الموديل» و«الأوبرا كوميت» و«ليه
لأزيشيه» . وخبيرها من المسارح التي تحتلف عليها مرعيت
ولكن دون جدوى .

بدأ ، بما أن تكون رسالتي قد آلمتها . فصرفتها من المسرح . وأما
أنها حشيت أن تقابلي فتضطر إلى تسرع سلوكها . وهو ما لا
تريد أن تفعله . .

وقد كنت أفكر في كل ذلك حين قبلني غاستون وسالني من أين
أنا فقدمت فأجبت :

- من «الباليه رويال» .

قال .

«لما أنا فقدم من «الأوبرا» . وكنت على يقين بأنني سأقابلك
هناك

- لماذا ؟

- لأن مرعيت كانت هناك

- أحقاً ما تقول؟

- نعم .

- وهل كانت وحدها؟

- كلا . . كانت معها صديقة لها .

- فخط صديقتها؟

- كذلك رافها الكونت دي ح في مقصورتها ولكنه لم

يمكث طويلاً وبصرف مرعيت بعد ذلك بصحبة الدوق وقد

كنت أتوقع في كل لحظة أن أراك هناك مفعداً بجانبني ظل حلياً

طوال الوقت فاعتقدت أنك استجيزته لنفسك .

- ولكن لماذا يتعين عليّ يا صاحبي أن أذهب إلى حيث تذهب

مرعيت؟

- لماذا لأنتك عشيقها

- ومن قال لك ذلك؟

- برويس إنني قاسبتها أمس فحدثني بكل شيء .

والآن دعني أعتك أيها الصديق العزيز إنها في الحق عشيقه

فأنت لا يتأهل كل راعب ميه فاحتفظ بها واحرص عليها

فإنها تشرفك

وبو أن حاستون عابلي في اليوم السابق وقال لي هذا

الكلام . . لما كتبت دود شك تلك الرسالة الخرقاء .

واخطر لي أن أذهب لزيارة برويس وأن أبحث معها إلى

مرعيت لتقول لها إنني أريد التحدث إليها ولكنني لشعقت أن

تأثر مرعيت لنفسها بأن ترفض عفايتي .

•

وأخيراً عدت إلى منزلي . ولكن بعد أن مررت بشارع دانكان

وسألت خادمي :

- هل من رسالة لي؟

فأجاب :

- كلا يا سيدي . .

قلت لصبي :

- لعلها انتظرت أن أسمى إلى استرداد رسالتي وبمعت لم

أفضل فاعلمها تكتب إليّ غداً .

•

ولكني بددت في تلك الليلة على ما لوط مي كما دم أندم من

قيل .

وجفتني وحيداً في غرفتي بهية الأرق والفلق والميرة وبو

تركت الأمور تجري في طريقها الطبيعي لكنني الآن مع مرعيت

أصحي إلى صحتها الساحرة التي لم أسمعها غير مرتين والتي

كانت تحرق أمني في وحدتي .

وأكثر ما أزعجني عندما فكرت في الأسر ملياً أن أجد أنني

الخطير . .

والواقع أن كل شيء من حولي كان يؤكد لي أن مرعيت

نحبي

هناك أولاً خطتها لقضاء الصيف معي في إحدى القرى

واختار الأسباب والعوامل التي ترعها على أن تصبح عشيقتي .

فامت ثروتي لا تكاد تنكسر من كمالياتها . فضلاً عن حاجتها

الضرورية .

وإذا، قيتها لم تكن نرجو من غير الإخلاص «بريء الذي
تستطيع أن تنود به من الحب التجاري الذي تنحب في لجته
ولكني صيغت عليها هذا الرجاء ولما يقضى على غرامي يوماً
وأنتبه بانتهككم والحرية على اللبتين السعيتين اللتين قصتهما
معى ..

وهذا السلوك من ناحيتي لا ينطوي على المجهود فحسب بل
هو يتم كذلك من القوة وفناء الذوق
من طاعتها أجراً حتى يجوز لي أن أنهي عليها باللائمة أو
أن أحصي عليها المحركات والكتات؟

إنني لم أهرهه، لا من برمي، ولم تكن عشيقتي إلا بضع
ساعات فكيف لا أفتح وأكون شاكراً وسعيداً لأنها شاطرتني بعض
وقتها؟ وكيف أريد على أن مهدم بضربة واحدة جميع العلاقات
والصلات التي كانت ولا تزال مصدر لراحته؟

وماذا فعلت حتى استحققت لومي وموجدتي؟

إنها كست إليّ تقول بأنها مريضة حين كان في استطاعتها أن
تفوز بالصراحة الوفحة التي أحرقها في بعض الساء إنها منقبل
أحد عشاقها ..

فبدلاً من أن أصدقها وأقتنع بما جاء في رسائلها وبدلاً من أن
أطوف بشوارع باريس جليماً إلا شارع دنتان وبدلاً من أن أقضي
الليلة مع بعض أصدقائي ولا أذهب للمقاهي إلا في اليوم التالي وفي
الموعد فيه الذي اتفقا عليه بدلاً من أن أعمل ذلك كله . أو
بعضه أتيت أن أقوم بدور حطيل فدعيت أجنس عليها . ثم
رأيت أن ألتزم منها بالامتياز من مقابلتها

لما هي فلا بد أن تكون سعيدة بهذا المراق ولا بد أنها
وجدتني عراً أحسن فلوحت الصمت لا هي رغبة في
الانتقام .. وإنما هي شعور بالاحترار والازدراء .

وفي هذه الخلة كان ينحني عليّ أن أحسها كمشيقة رجل آخر
ماقدم إليها هدبة لا تترك لديها شكاً في سحالي وتكون صك
الحالصة يساً ولكني عفت أن أجعل للملاقة التي كانت بيننا
صحة تجارية إن لم تجرح غرامها بي فإنها تدمي غرامي بها
وما دام هذا الحب قد كان من السقاء والطهارة بحيث لم يسمح
بأن يكون لي فيه شريك أو شركاء فإن أية هدبة مهما كانت
ثمينة لا يمكن أن تكفي ثمناً للمساعدة التي استمنت بها مهما
كانت صغيرة

فذلك ما قلته لفسفي في تلك الليلة وما كنت على استعداد
للذهاب إلى مرغريت في أية لحظة لأقوله لها
وتعس الصبح وأنا لا أزال أفكر في مرغريت ولا شيء سوى
مرغريت ..

كان من الضروري أن اتخذ قراراً حاسماً . وأن أقطع الصلة بيني
وبين مرغريت أو بيني والشعور بالشرف والكرامة
ولعلك تعلم كيف يتردد الإنسان وكيف يماطل . قبل أن
يتخذ مثل هذا القرار .

ولما لم يكن في استطاعتي أن أبقى في المنزل أو أذهب إلى
مرغريت . فإني لجأت إلى وسيلة إنما جمعت أدسي منها وإذا

فشلت لم تغدش كبرياتي .

ففي الساعة التاسعة أسرع إلى بيت برودس مرحّبت بي
وسألني عن سرّ ديارتي الميكرة . ولكنني لم أجزو على مصدحتها
بما جاء بي . وأجبتها بأنني إن أردت أن أودعها قبل مغربي إلى
أبي . . . فقالت :

- إن من حسن حظك أن تتمكن من الاستمتاع بجزء الزمير في
هذا الفصل الديدع

ف نظرت إليها بحدنة .

تري هل قالت ذلك على سبيل التهكم ؟

ولكنني رأيت على وجهها الرزقة والرضا .
ومتطردت .

- هل في نيتك أن تدع مرغريت ؟
كلّ .

- إنك تحسن صعباً .

- انظري ذلك ؟

- طبعاً . . وما كنت قد قطعت صلّتك بها . . فما الفائدة من
مقابلتها مرة أخرى .

- إذا كنت تعلمين أنني قطعت صلّتي بها ؟

- لقد أوتيتي رسالتك . .

- وماذا قالت لك ؟

- قالت لي : يا عزيزتي برودس إن صاحبك ليس مؤدياً

هذه العبارات قد تطوف بذهن الرجل الكريم . ولكنه لا يكتبها

- وبإية لهجة قالت لك هذا الكلام ؟

- كانت تضحك وقد استطردت قائلة : إنه تناول الطعام معي
سريين . ولكنه لا يستعمل عني ولو بريارة نذل على أنه مصم
الطعام ! .

فذلك هو كل التأثير الذي تركته في نفسي رسالتي وغيرتي إذا ؟
سألت .

- وماذا فعلت أمس مساء ؟

- فحيت إلى الأوبرا .

- وبعد ذلك ؟

- ثم تناولت العشاء في بيتها

- بمفردها ؟

- بل مع الكونت دي . ج . . على ما اعتقد .

وهكذا لم تعبر القطيعة شيئاً من عادات مرغريت ؟

قلت وعلى شعبيّ لتسامة مختصة :

- يسمي على كل حال أن أحسن أنها لم تحزن سببي

- إنها على حق . ولست قد فعلت ما يجب عليك أن تفعله

و كنت لذلك أكثر منها تعقلاً وأشدّ بصيرةً . لأنها كانت تحب ولا

تتحدث إلا عنك . بل إنها ما كانت تتردد في الإقدام على أية
حملة من أجلك .

- إن كان صحيحاً أنها تحبني . فلماذا لم ترد على رسالتي ؟

- لأنها فهمت أنه من الخطأ أن تحبك . والمرأة قد تسمح للرجل

الذي نحه أن يحومها . ولكنها لا تسمح له قط أن يهين كبرياءها

ومن الإهانة لكبرياء المرأة أن يهجرها عشيقها بعد يومين مهما كانت الأسباب .

وأن أعرف مرعريت حق المعرفة . وأعلم أنها تؤثر الموت على كتابة رد على رسائلتك .

- ماذا يجب أن أفعل إذا؟

- لا شيء . إنها سوف تساك . وانت سوف نلعا . ولن يكون ثمة ما يستوجب العتاب بينكما .

- ولكن هي التي كتبت إليها أسألها الصفيح؟

- لا نعمل شيئاً من ذلك . إنها تصيح عنك في الحال

فكذبت أضعها إلى صدري .

وبعد ربيع ساعة . كنت في مرلي أكتب لمرعيت هذه الرسالة

أشخص يندم على رسالة كتبها لمر . وسيرحل خدماً إذا لم تصمحي عنه . يرغب في أن يعرف الساعة التي يستطيع فيها أن يركع تحت قدميك ويستغفرلك .

وطويت الرسالة . وأمرت خادمي أن يذهب بها إلى مرعريت

فسلمتها بنفسها . وقالت له إنها شبعن إلي بالرد .

•

ولم أحب في مرلي لحظة واحدة طيلة النهار . ودقت الساعة الحادية عشرة مساء ولم تسلم رفاً .

عندئذ قررت ألا ألأهاني أكثر مما عانيت . وأن أرحل في اليوم

التالي

ولمّا كنت موقفاً من شيء لن يعض لي جرح طوول الليل

فقد شرحت في حزم أعتش

الفصل الخامس عشر

أنقضت ساعة . وأنا وخادمي مارون محرم لأمتعة . حين دق جرس الباب فجأة وبقوة . فسألني الخادم

- من أفتح الباب؟

فأجاب بالإيجاب وأن أسألك ميسي «تري من يكون والذي في مثل هذه الساعة؟»

وعاد الخادم يقول

- بالباب سيستلم طلباً مقابلتك

وسمعت على الأثر صوتاً عربت فيه صوت مرودس .

كانت تقول

- ها نحن يا لومان .

فخرجت من مخدعي . ورايت برودس في فاعة الاستقبال وهي تعصر الثوب الكثير النسيج التي أحفظ بها . ثم رايت مرعريت جالسة في أحد المقاعد مستغرقة في التفكير .

أسرع إليها وحشوت تحت قدميه . وهمت وأن أسألك كما يذهبها

- عمواً يا مرعريت

فقلت جيبي وأجبت

- إني أعبر عنك للمرة الثالثة

- لقد كنت أنوي الرحيل خدماً

- وكيف يمكن أن تغيب ريارتي هذه الليلة؟ إني لم أجد لأثبك عن الرحيل . وإذا كنت لأشي لم أجد في أثناء النهار مسحة من

الوقت نفرد على رسالتك ولم أشأ أن تبرح باريس محتقداً بأنني
انقم عيبك ولم يكن من رأي برودس أن أقوم بهذه الزيارة محافة
إن أزعجك

- أنت ترعجيسي يا مرغريت؟ أنت؟ كيف بحق السماء؟
فاجابت برودس :

- ربما كانت معك إحدى السيدات يضافن أن ترانا
ونظرت مرغريت إلى وجهي بإعجاب - بعد كانت برودس تنطق
بهذه الكلمات .

أجبت

- إنك لا تذكرين ما نقولن يا عزيزتي برودس
قالت

- إنك تقيم في شقة أنيقة فهل أستطيع أن أرى غرفة نومك؟
- بغير شك . .

فقصدت برودس إلى مخدعي وأغلب الظن أنها لم ترغب
في رؤية الغرفة بقدر ما كانت راغبة في إخلاء الجوال - تكبيراً عن
الحمامة التي نطقن بها .
سألت مرغريت :

- لماذا جئت ببرودس؟

- لأنها كانت معي في المسرح ولأنني بحاجة إلى من يرافقي
عندما أنصرف من هنا

- أأنت هنا لأرافقتك؟

- نعم ولكنني لم أرغب في إزعاجك ثم إني على يقينة من
أنك إذا رافقتني إلى منزلي فستطلب أن ترافقي إلى مخدعي

ولمّا لم يكن في استطاعتي أن أجيبك إلى هذا فقد أثرت أن
ترحل - دون أن ألمّح لك برضائي سيلاً لمعت عليّ

- ولماذا لا تستطيعين استقبالي في مخدعك؟

- لأنني موجه مراقبة شديدة - ولأنه شبهة قد تعجب عليّ ضرراً
بلياً

- هل هذا هو السبب الأوحداً؟

- لو كان هناك سبب آخر للكره لك فقد أصبحت العلة بيا
بيحث لا يجوز لأحد أن يكتم سرّاً عن صاحبه

- فولي الصدق وكوفي صريحة يا مرغريت - لأنني سأحدثك بما
عندي في غير موارد - هل أنت تحبيني ولو قليلاً؟

- بل أحبك كثيراً

- لماذا تخدعيني إنّا؟

- أصح إلي يا صديقي لو كنت ذوقاً أو مركبة - ولي إيراد
يقرب من الخاتمي ألم فربك - وكنت خليلتك ثم اتخذت من

دومك عشيقاً آخر - لكأن من حيلك أن تسمّلي المنادى
تخدعيني؟ - ولكنني لست ذوقاً أو مركبة - وليس لي هذا

الإيراد - وما أن إلا مرغريت جوثيه - مضاعفاً إليها دين يرد على
أربعين ألف فرنك . .

إني لا أملك مستبماً واحداً - وأنتم ملك ألم فربك في العام

صوّلك إنّا لا مسوّع له - وجوابي إنّا لا ضرورة له

فأجبت - وأنا أمد رأسي إلى ركنيتها :

- هذا صحيح ولكنني أحبك حب وكره .

- يجب أن تحبني أقل من ذلك - لو أن تعصبي خيراً مما تعصبي

الآن

إن رسالتك آتني كثيراً - ولو كان أمري بيدي لما استقبلت الكوكب - ولو استقبلته لكنت أسرع إليك في الشمس الصبح الذي تلتصق أنت مني الآن - ولما اتحدت لصبي عشيقاً بعد ذلك سواك .

لقد مرت بي لحظة توقعت فيها أنني أستطيع - ولو بضعة شهور - أن أستمتع بالسعادة التي تحدثنا عنها - ولكنك لم تنأ - وأيت إلا أن تعرف وسائلتي لهذا هذه السعادة .

وهذه الرسائل ليس من المتعذر فهمها وإدراكها - ولكنها تطوي على تضحية أعظم مما جعل إليك أنني أستطيع الإقدام عليه

لقد كان يوسفي أن أقول لك «لقد عشتي أنا من المربكات»

وأنت تحسبي - وستجد حتماً وسيلة ما للحصول على هذا المبلغ - وبكمي سأكون عذماً لأن تغيرني بذلك في المستقبل ولهذا أثرت ألا أكون عذبة لك

غير أنك لسوء الحظ لم تفهم وجهة نظري من ناحيتها العاطفية الدقيقة . .

إن مثيلاتي من النساء - إذا بقيت لهن بقية من الشعور - يتهنؤن ينظرون إلى الأشياء بحس العيون التي ينظر بها سواهن - وأنا أقول لك مرة أخرى إن اللحظة التي فكرت فيها مرعيت جوتيي لسداد ديونها دون أن تطالبك بالمال اللازم - هي لحظة صادرة عن شعور دقيق .

وكان ينبغي قبولها بعين احترام

فلو أن الصلة بيننا قد بدأت اليوم لرحبت بغطتي ولم يحظر لك أن تلقي عما فعلت أول أمس

إننا نضطر في بعض الأحيان أن نشعري هناك - خصوصاً يسبح

أجسادنا - ولشد ما نتألم إذا وجدنا آخر الأمر أن الهده الموعود قد أقلت من قبلتنا .

كنت أحملك بحرماً - وأصعبني إلى كلماتها بإعجاب

وعندما فكرت في أن هذه المخلوقة البسيطة - التي كنت أشعر منذ لحظة بأن السعادة كل السعادة هي أن التفرغ تحت قدميها . عندما فكرت في أن هذه المخلوقة البديعة قد أفسحت لي مكاناً في فكرها وحياتها - وأن ذلك كله كان أبعد من أن يرضيني . لم أتمكن من أن أسأل نفسي: أليس لطامع الإنسان من حده؟ أم هو كلما حقق مطعماً جث في مطمع آخر؟ .

وانسطردت مرعيت .

- إن ما يخال من غرابة أطوارها وتقلب أحوالها - يحس النساء اللائي تنجر بأجسادنا وعواطفنا - صحيح لا ريب فيه - نحن الآن نسلم أنفسنا لب - وهذا سلم أنفسنا لسبب آخر - وهناك رجال يجلسون على أنفسهم الحراب من أجلك - ومع ذلك لا يسمح بهم من أنفسنا بما يشتهون فيما يعطي أنفسنا الآخرين من أجل ناقة من الزهور .

إن لقلوبنا أطوارها الخفيفة - ولها كذلك أحوالها وأعدادها وانقسم لك أنني لمستك نفسي بأسرع مما استندتها لأي رجل آخر فهل تعلم لماذا؟ لأنك رأيت الدم يرف من صدري . فتناولت يدي وسكنت عليها فمزعك

لأنك الإنسان الوحيد الذي أعطته القسمة بي

سأحدثك الآن حديثاً قد يكون قديماً من الصحف . ولكنه حقيقي

كان صديقي في وقت ما كلب صغير اعتاد أن ينظر إليّ بعين كلما سعلت .

هذا الكلب هو الخدوق الوحيد الذي أحببته . . . ولما مات بكيت عليه كما لم أبك على أيّ ولي .

وقد أحببت فجأة . . . كما كنت أحب كلبتي .

لو علم الرجال ماذا يستطيعون ابتعاذه بدمعة واحدة . . . إننا لنعموا من حيث بأكثر مما ينعمون الآن . ولترلفنا بهم . ولم نثقل كواهلهم وسجل بخرابهم . . . كما تفعل الآن .

إن رسائلنا قد تفت علبت . وفصلت جسموه قلبك . وأضعفت حيي لك . كما لا يمكن أن يضمه شيء آخر .

كانت عباراتها تنطوي من العيرة . ولكنها غير ساحرة وقحة

وقد كنت حسنة قبل أن اتسلهما . وكنت أظنك بمسارح الصبر لكي أتناول الطعام منك . وأصبحوا خاطراً بقلبي . وما كنت أتهم له وزناً قبل أن أفرقك .

لقد كنت أشتطش الوحيد الذي توقفت أنشئ أستطيع معه أن أفكر وأحدث بحرية وصراحة . لأن كل أولئك الذين ينزفون جثة مثلي يربون كل كلمة تطلق بها . ويستعرجون المعاني من كل حركة تصدر عنها . نحن ليس لنا أصدقاء . ولكننا لنا عشاقاً أنانيين يلبسون أسوأهم . ليس من أجلنا كما يرحمون . وإنما لإرضاء لصلهم وخيالهم . وغرورهم .

وأمام هؤلاء العشاق . يجب أن نظاهر بالمرح . . . وإن كان الألم

يعصر نفوسنا . . . ومحتلوو علينا أن يكون لنا شعور أو قلب . . . وإلا أضمتنا سلطتنا . . . وبقينا مراكنا .

إننا نحمل المكان الأول من أناة عشت . والمكان الأخير من اعتبارهم .

ولنا صديقات . ولكنهن على مثال برونس . . . نساء كنّ فيما مضى يمتن عشتاً . ثم أقدمهن الكبير عن إشباع غيرة الإسراف وحب الترف . فاتخذنا لهنّ صديقات . . . وقد تتواضع صديقاتهنّ في بعض الأحيان إلى حد العبودية . ولكنها لا ترتفع فوق لصحة الشخصية

ولونك الصديقات . لن يدلن لنا من النصح إلا ما يعود عليهنّ بالملالة المادية . ولا يهمن أن يكون لنا عشرات العشاق في وقت واحد . ما دمي بلس ما أو من عشتاً ثوباً أو سواراً . . . وما دمن يراففن أحبناً إلى المسرح أو في رهفة بالمركبة . ولا تقدم إحداهنّ حذمة لنا إلا وتأخذ أجراً مضاعفاً . ولعلك رأيت كيف أنعدت برونس إلى الخدوق في طلب ستة آلاف فرنك . وكيف أخذت من لوريمائة فرنك على ميل القرض . . . ولكنه قرض لن يرد .

إن سعداتي المكنة . أو بتعبير أصح . كانت سعداتي المكنة . . . رغم حربي في بعض الأحيان . ومرضي دائماً . أن أجد رجلاً من صمو الخلق وكبير القلب . بحيث لا يعضد عليّ الحركات والكنات . ولا يطالبني بأن أقدم إليه حساباً عن حياتي . رجلاً يمشق في الراحي الحسية أكثر مما يمشق جسدي . وقد وجدت الرجل الذي أنشدته في الخدوق . ولكن الخدوق شحيح هرم والشيوخوخة آخر ما تعطف عليه المرأة . وقد حاولت أن أحيي الحياة

التي اقترحها علي ثم شعرت بان هذه الحياة تقتلني سائماً
وملالة . فقلت لنفسي «إذا كان لا بد للإحسان من أن يموت
فيمر به أن يحترق في النار من أن يحنق بالدخان»

وحديث صديقك أنسي فبعتك أنت الشاب السعيد . المثقّد
المعاطفة . الممتلئ رغبة في الحياة . فحاولت أن أجعل منك الرجل
الذي طاك تحيلته في وحلتي . . وأحيطك لا كما أنت . . وإنما كما
يمكن أن تكون . ولكنك لم تقبل ما أردته لك . . ولمعنته كشيء لا
يجدر بك . وكنت كذلك رجلاً سلباً لا يختلف في شيء عن
الرجال الماديين . ولم يبق إلا أن تعمل ما يفعله سائر الرجال
فتفدي الثمن على يدلي لك نفسي . وتنتهي ما بيا

وتأعيبها هذا الحديث الطويل . قامت في مقعدك . ووصفت
مدادها حتى شعيتها لتعسى يوه السعال التي انتهت
قلت .

« خصوصاً يا مرغريت . إني فهمت كل هذا . ولكني أردت أن
أسمع من فمك . فليس إذاً كل شيء . ولا يذكر الأشياء
واحد . هو أنني لك وأنت لي . وأنا ما رآني في ريمكان
الشياب . وكل ما يحب صاحبه أصعب بي ما شئت يا
مرغريت . فوسي حينك وكنك . فقط مررتي تلك الرسالة التي
بعثت بها إليك . . ولا تنهيني أرحل خدأ

فأخرجت الرسالة من صدرها . وودعتها إلي . وهي تقول
بصوت رقيق

« انظر . لقد أحضرتها لك

فألقيت الرسالة في الموقد . وقبّلت اليد التي ردتها إلي
وفي هذه اللحظة أتيلت بروديس . . فقالت مرغريت .

« هل تعلمين ماذا يطلب يا بروديس؟

« إنه يطلب الصبح . . أليس كذلك؟

« نعم .

« وهل صمعت عنه؟

« لم يسعني إلا أن أصفح . . بيد أنه يريد شيئاً آخر

« ما هو؟

« يريد أن يتناول معنا طعام العشاء .

« وهل وافقت؟

« ما وأهلك أنت؟

« رأيي أنكما طفلان ليس في رأسيكما عقل . رأيي كذلك أنني

أكاد أموت جوعاً . وأن خير ما تفعلانه التصجيل في هذا العشاء

فقالت مرغريت :

« وأظن أن مركبتني تسع لثلاثتنا

ثم تحوكت إلي واستطردت .

« وبهذه المناسبة . . أعتقد أن ما بين قد أدت إلى فراشها . وأنه

يتعين عليك أن تصح الباب . فإليك المفتاح . ورحداً أن تقدمه مرة
أخرى

فقبّلت يديها

وحاء خادمي جوريف . وقال بلهجة الرجل المعجور بما صنع

« لقد مرحت من وضع الأمتعة في الخزانة يا سيدي

« هل وضعت الأمتعة كلها؟

- نعم يا سيدي .

- أحسست أخرجهم من الحفلات إذا فقد عدلت من السر

الفصل السادس عشر

كان بإمكانني أن أقصر عليك كل هذا في كلمات قليلة ولكنني أردت أن تعرف كيف تدرج الصلة بيني وبين مرغريت حتى أصبحت أطاوع الرأس لكل رديتها وحتى أصبحت هي لا تطيق الحياة من دوني .

وقد كان في اليوم التالي لتلك الزيارة أني أهديت إلى مرغريت كتاب دمانون ليكوه .

لما وجدت مع مرور الأيام أني لا أستطيع تحويل مرغريت من الحياة التي ألتفتها لاني تحوكت من حياة التي ألتفتها وكان كل همني دائماً ألا أستمرس في التفكير في الدور الذي قبلت أن أقوم به لال التفكير كان من شأنه أن يحب علي الحزن والأسى على الرغم مني .

وهكذا استحوالت حياتي الهادة إلى حياة كلها صعب واضطراب ويجب ألا تتوهم أن معاشرة فتاة كمرغريت ومهما تجمدت من الأطماع لا تكلف كثيراً فإنه ليس أغلى من تكاليف الزهور وخلوى والمسارج والمآذب والرحلات البرية وغير ذلك مما لا يستطيع الرجل أن يتكوه على عشيقته فكيف بمرغريت ؟

وأحسسي قد ذكرت لك أنني لم أكن واسع العي . فقد كان أبي ولا يزال صغيراً . ولكنه رجل عوف بالأسانة والاستقامة فتسلط أن يدبر لشقيقتي باقة لا بأس بها .

وكانت والدتي قد توفيت عن يراد سنوي يقدر سنة آلاف من الممكبات عظم أبي هذا الإراد بيني وبين شقيقتي ومحيي من يراده الخاص مريباً صوباً فدوه خمسة آلاف فرنك وأتد لي أن هذه الثمانية آلاف فرنك التي اجتمعت لي تكفي لسداد حاجاتي إذا أقمت في باريس وصرح لي أن أحتار بين الاشتغال بالطب أو المحاماة فحجث إلى باريس وواصلت الدرس والتحصيل حتى بلغت إجرة المحاماة ولكني دسمتها في جيبي كما يعمل سائر الشباب وتصرعت إلى حياة اللهو والعبث والجهالة

وكانت عقاتي خلية في الاحتفال وحس الشديرو ولكنني كنت لئمن كل إيرادي السوي في نهاية شهر ثم تقضي أربعة شهور الصيف في بيت أبي . وبذلك استنطعت أن أوقف بين فنة إيرادي وواجبي كولد بار بلية .

عن أبي لم أكن مديناً بستم واحد لكائن من كان وقد كان ذلك حالي إلى أن عرفت مرغريت فمددت تضامعت عقاتي على الرغم مني

وقد كانت مرغريت امرأة سادية الغضب من أولئك النساء اللاتي لا يمشرون تكليف الملاهي وضروب التسمية وآلاف التوافه التي تألف منها حياتهن شيئاً ذا قيمة وكانت النتيجة أنها إذا أرادوا أن تقضي معي أطول وقت ممكن علقها تكذب إلي في الصباح فأكلة إنها تريد تناول العشاء معي ليس في منزلها وإنما

في هذا المطعم أو ذاك في باريس أو في الصوحي وأذهب إليهم . وأصطحبها إلى المطعم الذي ذكرته ثم تقصد معاً إلى المسرح . ثم تناول معاً طعام العشاء ولا يتقضي المساء حتى أكون قد أنقذت أربعة أو خمسة جبهات أي بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ فرنك شهرياً وهكذا أصبح يربدي السوي لا يكاد يكمي نفقات ثلاثة شهور وصار يتمتع عليّ بثأر المستدين وأحرق في الديون . . أو أحجر مرعيت .

وطبيعي أنني كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء وكل شيء إلا أن أحجرها .

ومعذرة إذا كنت أطيل في هذه التفاصيل فإنها - كما ستري - مائة الحوادث التالية ثم إنني أسرد عليك قصة حفيقة جديرة بأن تحتفظ بكل بساطتها الطبيعية



أدركت إذا أنني ما دمت لا أستطيع أن أحجر مرعيت فمن الضروري أن أبعد عن مورد جديد يكمل لي التكمات الإضافية التي استحدثتها عشيتني .

أخضعني إلى ذلك أن غرامي مرعيت كان يملأ كل جوانحي حتى أصبحت ساعات العرايق أطول من الأعوام فعكورت في البحث عن هواية تشغلي طيلة هذه الساعات المقتلة وتساعدني على قضاء الوقت بحيث لا أشعر بمروءه .

فاقتربت منة آلاف من الفريكات وشرعت أقامر خصوصاً وأن القامرة أصبحت سهلة ميسورة لكل إنسان وفي كل مكان منذ انحلت متبذات الليبر .

وهكذا تحركت حياتي الهادئة الساكنة إلى حياة صاخبة كلها حركة وشاغل وتضلل ولكني لم أجد فيها مفعلاً لأنها أصبحت الشيء الضروري الكامل لغرامي مرعيت .

لم يكن يحسن لي جف من طلبة الليالي التي لا أنفسيها في شارع دائنن مع عشيتني . .

كنت أجد نفسي بهماً مورعاً بين القلق والأرق والخيرة . ولكني وجدت في الضحار دواء للحصى التي تنهش قلبي فكنت الأرم الطويلة الخضراء حتى يحين موعد لغاتي مرعيت فأنهض في الحال سواء أكنت رباحاً أم خاسراً وكثيراً ما اضطرت إلى الهوض في الوقت المناسب الذي يراه اللاعب الخبير أفضل وقت لترك الطاولة . .

وحالني الحظ فلم أتورد في الديون . ونضاض المبلغ الذي بذلت به اللعب . .



وفي هذه الأيام بدأ أن حياة مرعيت تطورت تطوراً أدهش من التواء صحياً على الأكل فقد آليت على نفسي أن أبرئها من صفحتها وأدركت المسكنة عروسي صاخباتي وولت على لوانتي لكي تثبت ولادها ولم أجد صعوبة في عزلها تماماً عن كثير من العوامل الهامة لصحتها . .

وكنت قد عرضت أمرها على طبيبي الخاص فقال لي أن لا شيء يرد عليها الصحة كالراحة والهدوء والحياة المنتظمة عرضت نظاماً لطعامها وراحتها وبومها وحرفتني عن المأدب والسهرات الطويلة وأملت هي هذه الحياة الحديثة وأنشأت

منها وأصبحت تقضي أياماً برمتها في بيتها فإذا احتل الخو
خرجت بركبتها إلى الشانزلييه ومتى حدثت .. كانت متعبة
تتناول بعض الطعام وتعرف قليلاً عن اليقظ أو تقرأ قليلاً في
أحد الكتب .. وهو ما لم تكن تفعله من قبل .

وهكذا استردت صحتها واحتست تقريباً تلك السلطة العيفة
التي طمنا خيل إليّ كلما سمعتها كأن صغري يتعرق
وبعد ستة أسابيع انجلى ذكر الكونت دي ج . تماماً .. فقد
ضحت به مرهت وبضعت بعدها به وأصبح الدوق هو الشخص
الوحيد الذي يتعين عليّ أن أنكم صلتا عه .

وحال الوقت الذي تعودت أن أنقب بين أبي وأختي فكنا إليّ
يولح بـرجواني أن أذهب إليهما ولكني دعت أختي الأعدو
وأهملتهما بأنني في غير حال ولا حاجة بي إلى التردد ظناً
مني بأن ذلك يكفي للمدول من إقناعي بمرارتهم كالمعتاد

*

وحدث في يوم صفا جوء ورق سيمه أن وثقت مرهت من
هراشها وهي ممثلة بشاطأ وحبيوة وافترح عليّ أن تقضي
ذلك اليوم في الصواحي فأرسلنا إلى برودس وأطلق ثلاثاً إلى
البرقة بعد أن أوصت مرهت وصيبتها بأن تنسى الدوق بأنها قد
انتهزت فرصة صفا الجوء فخرجت مع برودس لفرقة بين الحقول

ولم تكن صحبة برودس ضرورية لإبعاد ربة الدوق فحسب
ولكنهم كانت كذلك من الناس الذين خلفوا لإعناش الرحلات
المخلوقة بما طبعوا عليه من المرح وخفة الروح وشدة القلبية
للطعام .

وهي التي اختارت لنا أن نقصد إلى «بوجيمال» حيث توجد
حانة يقال لها حانة العجور تدبرها امرأة تدعى ملام أوبولد
فاستأجرنا إحدى المركبات وبعد ساعة ونصف ساعة . كنا في
«بوجيمال»

ولا شك أنك تعرف حانة «العجور» هذه فإنها من أبداع الخانات
في القرى وبها حديقة كبيرة تشرف على وادي «جامبيون»
الترامي الأطراف وعلى جزيرة «كرواسي» التي تتحد وكراها في قلب
نهر «فالزي» .

*

لقد أعاد العشق أن يقربوا قلب بالحقول والشاطر الطبيعية
المخلقة والواقع أنه لا يوجد محيط للمرأة التي يحبها أحمل
وأكثر من رقة السماء وشدى الزهور وسحر العبايات
الطراء .. والحقول الصغيرة .

وإذا كنت قد أحببت في أحد الأيام حباً قوياً صحيحاً . فوثقت
دوق شك قد عسرت ذلك الشعور الذي يحبب إلى العاشق أن يعزل
من سائر العالم تلك المخلوقة المعبودة التي يريد أن تعيش له ومن
أجله فقط كأنه يخشى عليها فتنة الأشياء والمضوقات التي تحيط
بها أو كأنه يشفق أن يتسرب شداى إلى الكائنات حولها
وقد كان هذا هو شعوري في «بوجيمال» .

لم أكن أحب امرأة كسائر النساء بل كنت أحب مرهت
جوتيه المرأة التي قد ألتقي في كل خطوة أخطوها في شوارع
باريس بـرجن كان عشيقها بالأسر أو قد يصبح عشيقها هذا
لنا في هذه الحقول ووسط هؤلاء الناس الذين لا يعرفونا

ولا يهمهم أمراً . . . إنني أستطيع أن أنعم بالحب في غير ما حبل
أو تحط أو غيره

وغابت المرأة العانية تدريجاً . . . وسبت الماضي . . . أو لم أعد أذكر
منه ما يفتق ويحجل . . . وأصبحت لا أرى بجانبني إلا صبية حساء
لحسي وأحبها . . . صبية تشرق عليها الشمس كما تشرق على أظفر
العداوي .

وأخذت سطر وسط المناظر الطبيعية الساحرة التي لم يحل إلا
للإهم الشعراء . . . ومرغريت بهمس في أذني أحدى كلمات الحب
والعالم الصاحب بعيد عن حواء . . . لا يلقي ظله الخائف على
صورته الباسمة . . . صورة الشباب والحب

ولبصرت . . . ونحن في نهرنا على ضفة النهر . . . مرلاً صغيراً
يديماً . . . يقع على حافة غابة عمراء . . . يحيطه ثوب أبيض من البتات
الطبيعية المتسلقة .

وأظلت النظر إلى هذا الوكر الجميل . . . حتى حبل إلي أنه حرة
من حدم العرلة الهيشة التي كست أثري إليها صد لحظة . . . وفلت
لنسي . . . أهل في أحياء سعادة أعظم من سعادة عاشقين يتحدان هذا
البيت وكرأ لهما ؟

ولاحظت مرغريت كيف أنعم الطير نحو المنزل الصغير . . . وعلمها
أدركت بحسبها ما يطوف بدوي من الخواطر لأنها صمت

. . . ما أجمل هذا الوكر . . .

فألت برودس :

- أين هو ؟

فأشارت مرغريت نحوه . . . وعصت برودس :

- ما أبده . . . هل تترك الإقامة فيه ؟

- تسرتي كثيراً . . .

- إذا ما عليك إلا أن تطالبي الدوق بأن يسأحره لك . . . وهي

استطاعت أن تفتح بذلك إذا شئت

فخطبت إلي مرغريت كأنها تسألني رأيي . . .

قلت وأنا لا أزال مثاثراً بذلك الحلم البشيع :

- إنها فكرة حسنة . . .

فألت مرغريت

- إذا فادبر الأمر . . .

وضممت على يدي بحرارة .

كان امرئ دخلوا من السكان . . . وكان يحدده السوي ألمي من

المرنكات . . .

سألني مرغريت :

- هل تكون سعيداً بالإقامة هنا ؟

- ومن يعلم إذا كنت سائقم فيه ؟

- لأجل من إذا سادس بمسي هنا . . . إن لم يكن لأجلك ؟

- إذا ، دهي . . . أنتأجر لك هذا المنزل بنفسي

- هل جئت ؟ . . . ذلك غير . . . فضلاً عن أنه لا ضروره له

أنت تعلم أنني لا أقبل ذلك إلا من رجل واحد فقط . . . فأترك لي

تغيير الأمر إذا . . . ولا تيسر بكلمة . . .

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي . صرختي مرغريت من مخدمها مبكراً قائلة
إن الدوق سيأتي لزيارتها في الحال . وإنها ستكتب إلي بعد
انصرافه . . لتحدد موعد مقابلتها التالية . .

والواقع أنني تسلمت منها قبيل الظهر رقعة عليها هذه
الكلمات :

"إني مطلقاً إلى بوجيفال بصحبة الدوق . فانتظري في بيت
برودنس في الساعة الثامنة مساءً ."

وفي الموعد المحدد . أبلت عينا مرغريت وهي تقول

- لقد دبرت كل شيء . . وانتهى الأمر . .

فسألتها برودنس :

- هل استأجر لك المنزل؟

- نعم . . دون أن يعترض حتى بكلمة . .

لم أكن أعرف الدوق ولكني لم أمالك من الضمور بالخجل في
تلك اللحظة .

واستطردت مرغريت :

- ولكن ذلك ليس كل ما هنالك . فقد أعددت مكاناً لإقامة

أرمان أيضاً .

فهمت برودنس ضاحكة .

- في المنزل نفسه؟

- كلاً بل في حانة الفجر حيث تناولت الطعام مع الدوق

وقد انتهت إحدى العرص . وسألت مدم لربولد عما إذا كانت
لديها غرفة آتية تصلح لإقامته شاب أعرب . فأجابت بالإيجاب
ودعت بي إلى غرفة واحدة الأثاث . ليجارها الشهري ستون
فرونكاً . فاستأجرتها في الحال
أفلم أحسن صفاً؟

فقبلتها . . ولم أجب .

وسألت برودنس

- ومتى تتوين الرحيل إلى بوجيفال؟

- في القرب وقت ممكن .

- وهل تأخذين معك مركبتك وجيادك؟

- طبعاً . . وسأترك منزلي لعنيتك في أثناء غيابي

•

بعد أسبوع . انتقلت مرغريت إلى بيتها الجديد في "بوجيفال" .

وانتقلت أنا إلى غرضي في حانة الفجر .

ومن ثم بدأنا حياة يتماثل علي وصمها .

•

لم تتكرر مرغريت في بدء إقامتها في "بوجيفال" لكثير من عاداتها
السابقة . فأنشأت باب بيتها لأصدقائها المخلصين . ولم يكن يمر
يوم دون أن أرى على مساندتها تصليبة أو عشرة من أولئك
الأصدقاء . .

وراحت برودنس من باحيتها تذهب جميع أصحابها
وصومعياتها . . وتستقبلهم في المنزل . . كأنه منزلها .

كل ذلك والدوق يمتنع بغير تبرم؟ على أن هذا لم يمنع برودنس
من أن ساكني في بعض الأحيان - باسم مرغريت - ألقاً أو ألقين من

الفرنكات وطبعي أنني كنت أحييه إلى ما تطلب بغير تردد
ثم خشيت أن تحتاج مرغريت إلى المزيد من المال . فاقترحت منه
آلاف من الفرنكات رصيدها لمطالبي التي لا تتوقف
ثم لاحظت مرغريت أن إسرارها في استقبال أصدقائها يكلفها
كثيراً من المعقات ويحبسها إلى ممونتي في بعض الأحيان
فعمدت إلى الاقتصاد في دعوتهم والترحيب بهم .
وكان الدوق الذي استأجر لها هذا المنزل خصيصاً لتضم فيه
بالراحة والسكينة قد بدأ يملك يقتصد في زيارته خوفاً من أن
يجد نفسه عداً وسط طعنة من الشباب المحدث الظروف
وحدث ذات يوم أنه ذهب إليها فوجد فيه وسط حمة عشر
والترأ ورائته كانوا يسألون معها طعام الإفطار في الوقت الذي كان
يشوق أن يتناول فيه معها طعام العشاء وما كاد الرجل المسكين
يقتح غرفة الطعام حتى قلبه الرقود بعاصفه من الضحك
فتراجع في الحال . .

ونفضت مرغريت عن المائدة وخطت به إلى غرفة أخرى
وحاولت أن تزيل ما خلق بنفسه ولكن الرجل أحس بأن كرامته
ثلثت . فانصرف حائفاً مفضياً بعد أن قال لها شيء من العظيمة
والقساوة إنه نصب من الإفطار على أسرته لا تعرف كيف تحمله
محترماً في بيتها . .

ولم يره بعد ذلك . . واضطرت مرغريت أن تمتنع عن دعوة
أصحابها ثم ذهبت إلى الإقامة معها بهائياً . ولم تحاول بعد ذلك
أن تكتم العلاقة بيننا .

وصادف دفت يوم أنني كنت في الحديقة فوليت برودس مقبلة
ولاحظت أن مرغريت قد خفت لاستقبالها وأسهرت بها إلى
غرفتها فأدركت أن وراء الأكمة ما وراءها وسكنتي مقبول إلى
معرفة ما حالك فالتزيت من باب المعرفة . . وأصبحت .

قالت مرغريت بتهجته ثم عن القلب

- حساً ماذا فعلت؟

فأجبت برودس

- لقد قابلت الدوق

- وماذا قال لك؟

- قال إنه من استعداد لأن يعمر لك الإقامة التي لحقت به في
بيتك ولكنه علم أنك تقيمين علانية مع السيد أرماس ديهال
وذلك ما لا يستطيع أن يعمره لك واستطرد قائلاً أفولي لمرغريت
أن نهجر هذا الشاب فأنني جميع رغباتها . كما كنت أعمل قبلاً
والأرجح عليها أن تكف من مطالبتني بأي شيء
- وما أجبت؟

- أحسبه أنني سأقبل إليك طلبه ووعده بأن أركب إلى
الصواب معك جدياً يا بني الحرية فكري في المكانة التي
ستقديسها والتي من يستطيع أرماس أن يعيدك إليها
إنه يحدث من كل قلبه ولكن ثروته لا تكفي لتحقيق رغباتك
وتلبية مطالبك وسيأتي يوم يهجرها فيه وهناك تبحثين عن
الدوق فلا تجدنه .

هل تريدني على أن أعود إلى أرماس في صراحة؟
فصمتت مرغريت كأنها تفكر . ووثب قلبي بعمق في انتظار
جوابها .

قلت أخيراً :

- كلاً لي أحجر أرماني ولن أتواري من الأضواء لكي أعيش
مع

ربما كان ذلك هو الجود بعبه ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟
ثم إنه ألف حياة معي دون حائق فلماذا أقصيه معي ولو ساعة
واحدة تألم أشد الألم

وبعد فلاني حياتي قصيرة الأجل وليس ما يستوجب أن
أقضي السنوات الباقية من حياتي في شقاء وتعلية لإعطاء لرجل حرم
يشعرني مرآة يوطئة الشجيرة

كللاً .. كلاً .. ليحتفظ السوق بأمواله إنني لست بحاجة إليها
- وما العمل إذا ؟

- لا أعلم ..

*

ولا أتري ما الذي نالت برودس بعد ذلك لأشي ضحت الباب
فجأة وألقيت بنمسي تحت ظمعي مرخيت ودموع الفرح والحب
تنهمر من عيني .
قلت :

- إن حياتي لك يا مرخيت فلا حاجة بك إلى هذا الرجل
أنت حسا؟ وهل يمكن أن أحجرك أبدا؟ وهل أستطيع أبدا أن
أعوضك عن السعادة التي تهيبها؟ كل ما يحب صاحبه . فمعا
بهما غير ذلك يا مرخيت؟

فغمضت .. وهي تحيط عيني بساعدها .

- نعم إنني أحبك يا أرماني وأحبك كما لم أتصور قط أنني

استطاع أن أحب فلكن سمعدين ولعش في هدوء وسلام
ولأودع إلى الأبد الخبلة التي يحمر منها وجهي الآن إنك لن
تعييري بماضي .. ليس كذلك يا أرماني ؟

فجمعت الدموع صوتي وأنعم لأتعمال لساني وكان جوابي
الأوحد أنني غمستها إلى صدري .

وعندئذ تحوكت إلى برودس وقادت بصوت يرتجف من التأثر
- والآن في استطاعتك أن تصمي للدوق هذا المنظر . وإن
تقولي له بلساننا إننا لسنا بحاجة إليه .

*

هذه تلك اليوم انتهت الفسة بينها وبين الدوق وأصبحت
امرأة غير المرة التي أحرفها فتجبت أسلوب الحياة التي كانت
تحيها من قبل والتي كانت كميلة بأن تجلب لي الحرام
والدمار وأوقعت علي من حانها وعانتها ما لا يمكن لأروجة أو
أنت أن توفقه على زوجها أو لنفها .

وعصفت يديها من سائر أصدقاتها وأقنعت من عاداتها
السابقة ووجهها وإسرافها وأصبح من استحيل على من يراها
في ثوبها الأبيض البسيط وقبعتها المكشوفة أن يعرف فيها
مرخيت جوتييه التي كانت منذ أربعة شهور مضرب الأمثال في
البلخ والتبدل

وانقضى شهران آخران لم تزد في خلالهما أحدا ولم يأت أحد
لزيارتنا سوى برودس .. وجوليا ليدار التي حدثك عنها والتي
عهدت إليها مرخيت فيما بعد ببيرمينها ومدكراتها

*

ورحبت مرغريت بحبائنا الريفية رغم بساطتها . وكان من المدهش أن يرى هذه المرأة التي اعتادت أن تنفق في سبل باقات الزهور ما يكفي لإسعاد أسرة برمتها . وهي تقضي الساعات الطويلة أمام إحدى الزهور البرية المتألقة في البساطة . أو وهي تعدو خدع الفراشة كما تفعل الطنفة الساذجة البرية التي لم تعرف هموم الحياة وشغلها . .



وفي ذلك العهد أقبلت مرغريت على قراءة قصة «صانود ليكر» . وقد فاجأتها مراراً وهي تسجل بعض الملاحظات على حوامش الكتاب . وكثيراً ما قالت لي إن المرة إذ أحببت فلها لا تفعل ما فعله صانود . .



وقد كتب إليّ الدوق رسالتين أو ثلاثاً . ولكنها كانت تعرف خطه . . وتبلغ إليّ برساته دون أن تعرفها . وفي بعض الأحيان كانت الدموع تترقرق في عينيّ وأنا أقرأ هذه الرسائل .

ظنّ هذا الشيخ أنه يستطيع أن يسردها إليّ إذا حس منها أموره . فلما لم تجد هذه الوسيلة كتب إليها يرجوها أن تسمح له بزيارتها كما كان يفعل قبلاً .

وقد مرّقت هذه الرسائل دون أن أحدث مرغريت بمضمونها وعلى الرغم من أن حزن هذا الشيخ الكبير كان يؤلمني ويحزني . فإني لم أنصح لها بمقابلته خوفاً من أن تلمس وراء هذه الصيغة رغبة من ناحيته . في أن يعود الدوق إلى الاضطلاع بتفاتها كما كان

يفعل سابقاً .

ولما لم يلق الدوق رقاً . كما هي الكتابة إليها . وسارت حياتنا في مجراها الطبيعي .

الفصل الثامن عشر

أنت تعرف ما هو الحب . وتعرف كيف يقضي العشاق أوقاتهم . وكيف يسمعون لشوة الحب أن تربط أسهمهم بهم . وأن نهيمهم عن كل شيء في الوجود . لا السعادة التي يرثعنها معاً .

كما صرح إلى العدة لئلا في بعض الأحيان . حيث يصي إلى أنعام ويحلم بالساعة التي تنعاق فيها إلى بروغ العجر . وأحياناً أخرى . كنا نقضي النهار كله في الفراش . ولا سمح لأحد أن يفتضحهم على ميكل الحب . حتى نحمل إليها ما نرى الطعام . فتأوله في الفراش كذلك . وسط رناب الضحك وآهات المرح .

ولكن حدث أكثر من مرة أنني لاحظت على وجه مرغريت صفة من الحزن . ورأيت في عينيها دموعاً . ولما سألتها أجبت .

« إن حبنا ليس هادئاً . عزيزي أرمان . فأنت تحبني كما لو أن أحداً لم يمتلكني قبلك وأنا أحس أن تندم يوماً على هذا الحب . وأن تعزيبي يوماً يلماضي . وأن ترغسي على العودة إلى الحياة التي انتشلتني منها .

إنني أرتد الموت على العودة إلى الماضي بعد أن تدوقت سعادة
هذه الحياة الجديدة . فعندي بالآ تتركبي أنداً يا أرمان . أنداً مدى
الزمان . .

- إنني لا أعذك . . بل أقسم لك .

سقطت إلى عبي . كأنما لنتمتع من إحلاصي . ثم دمت
رأسها فوق جسدي وهي تهتف

- أوله . . إنك لا تعرف كم أحبك . .

•

ودأت مساء . كما نطل من الباحة ونرى القصر يحلب
السحاب . ونصلي إلى وجه الريح في أحضان الشجر . وقد
أمسك كل منا بيد صاحبه . . حين قالت مرغريت :

- إن الشتاء مئيل . فهلأ ترى أن سرح هذا المكان؟

- وإلى أين نذهب؟

- إلى إيطاليا .

- هل مللت الإقامة هنا؟

- إنني أخاف من الشتاء . وأخشى من أن يعود إلى باريس

- ماذا؟

- لأحياء كثيرة

ثم استوردت . دون أن تعبر عن أسباب خوفها

- هل تذهب إلى إيطاليا؟ سأبيع كل ما أملك . وسعيش هناك

بما يجمع لدي من النقود . وهاك لن يعمرني أحد . ولن يرى

أثراً للماضي . فهل توافق؟

- ما دامت هذه رغبتك فليذهب . ولكن ماذا يلجئك إلى بيع

أشياء سوف يترك أن تجد لها عودتك؟ إن ثروتي لا تجبر لي
الإقدام على تصفية جميع . ولكن القليل الذي أملكه يسمح لـ
أن تقوم بياحه ستغرق خمسة شهور أو ستة

فقلت وهي تبتعد عن الباحة . ونجلس على مقعد في ركن
مظلم

- كلاً . كلاً . لماذا تفتن نفسك في الأسفار؟ ! بحسبي أنني
أكتفك كثيراً هنا .

- هل لم يسي من أجل ذلك يا مرغريت . وليس هذا من
الكرم في شيء؟

فقلت وهي تبسط إلي يديها

- عمراً يا أرمان . هذا الجور يؤثر في أعصابي . فهي الأول غير
ما أصبي

وقبضتي . واستعرت في تفكير عميق

•

لم أعرف سبب حرمها وتفكيرها . ولكني خفت أن تكون قد
سئمت هذه الحياة الهادئة التي تتجذد . ولا يتميز لونها وطعمها .

فاقترحت عليها أن يعود إلى باريس . ولكنها رفضت هذا الاقتراح
وأكدت أنها لن تكون في أي مكان أسعد منها في «بوجيغال»

•

ثم لاحظت من بعد أن يرودس بذات تقتصد في رباؤها
ولكنها تنصرف في الكتابة إلى مرغريت

وهي أحد الأيام . لم ترح مرغريت غرفتها . فذهبت إليها
ووجدتها تكتب

سألتها -

- لمي تكتين؟

فأجابت

- هذه رسالة لبرودس . فهل تود أن تقرأها؟

وكنت أفرح من كل ما تشتم منه والحة الشك والريبة . فأجبتها
بأنني . ولكني شعرت شعوراً غامضاً بأن مصموم هذه الرسالة
يخط للناس من السر في حزن مرغريت وكثرة تفكيرها
وهي اليوم التالي . اقترحت عليّ مرغريت أن نقضي النهار في
جزيرة كرواسي . وكانت شديدة المرح والسرور . فأجبتها إلى ما
طلبت .

ولسناً عدنا إلى المنزل في المساء . . . قالت ناثين :

- لقد جاءت برودس .

فسألتها مرغريت

- وهل ذهبت؟

- نعم . إنها ذهبت في مركبتك . فأنالته إنها اتفقت معك على
ذلك

فألت مرغريت بسرعة :

- لا بأس . . . فلتناول طعام العشاء

•

وبعد يومين وردت رسالة من برودس .

وانقضى بعد ذلك اليومين أسوعلان . خيل إليّ فيهما أن

مرغريت قد سبت حربها العامض . ولكن المركبة لم تعد!

سألتها في أحد الأيام :

- كيف حدث أن برودس لم ترد مركبتك حتى الآن؟

فأجبت :

- إن المركبة تحتاج إلى بعض الترميم . ثم إن أحد الجهاد أصيب
بمرض . ونحن على كل حال لنا بحاجة إلى المركبة هنا
وجاءت برودس لزيارتنا بعد بضعة أيام . وأقذت ما ثلثته
مرغريت .

وسألت المراتل معاً في الحديقة وهما يتحدثان . ولما خفت
بهما . . صمتا فجأة .

وقل أن تصرف برودس في المساء . تذكّرت من شدة البرد
وسألت مرغريت أن تعيرها معطفاً .

وانقضى شهر آخر . كانت مرغريت في خلاله أكثر حبيوة
ولشدّ مرحاً .

ولكن المركبة لم تعد . والمطبخ لم يرد . فأدعشتي ذلك
وانسهرت مرعبة وجود مرغريت في الحديقة . وحاولت أن أفتح
الدرج الذي اعتادت أن تضع فيه رسائل برودس . ولكن دون
جول . . . فقد كان الدرج محكم الطق .

ومضت الأذراج لأخرى . التي تضع فيها مرغريت حليها
ومجوهراتها . ولشدّ ما كانت دهشتي عندما لم أجد أثراً لبحلي
والجوهرات

استولت عليّ الريبة . وطمعت أن أسأل مرغريت الحفيظة
ولكني شعرت بأنها لن تذكرها لي بحال .

قلت لها .

- يا حبيبي مرغريت . إني جئت أسألك أن تسمح لي بالسفر

إلى باريس غداً أسري لا تعرف مكسي ولا بد أنني سأجد في منزلي بضع رسائل من أبي ولا شك أنه سيشعر بالقلق إذا لم يتلق رداً عليها .

فقلت .

- اذهب يا عزيزي . . ولكن عذ سرعة .

مذهبت

وأصرعت إلى بيت هرودس .

قلت لها في غير لغة لوردان :

- أجيبيني في صراحة يا هرودس أين مركبة مرعيت

وجيادها؟

- بيوت

- ومعطتها؟

- بيع

- ومجهراتها؟

- رعت

- ومن ذا الذي باع وهر هذه الأشياء؟

- أنا

- ولماذا لم تنبيني قبل أن تفعلني شيئاً من كل هذا؟

- لأن مرعيت أوصني بالكتمان وحظر علي أن أقول لك

شيئاً

- ولماذا لم تطلبي مني نقوداً؟

- لأن مرعيت لا تسمح بأن أطلب منك .

- ومفاد صنعت بكل هذا المال؟

- استعملته في مداد بعض ديونياً . .

- إذاً فهي عديمة مبالغ طائلة؟

- إنها لا تزال مديته ثلاثين ألفاً من الغريكات ألم أقل لك كن

ذلك من قبل أيها الصديق؟ ولكنك رفضت أن تصدقي . وهأنذا

تدرك الحقيقة بنفسك

لقد ذهب نجار الأثاث إلى الدوق الذي كان قد وعدهم

بالسداد ولكنه طردهم وكتب إليهم في اليوم التالي يقول إنه لا

صلة له بالأمة مرعيت جوتييه . .

وعلم سائر الدائنين بأن الدوق هجر مرعيت وأنها باتت

تعاشر شباباً فقيراً . . فالحق في طلب ديونهم . .

وهمت مرعيت أن تبيع كل شيء ولكن بعد فوات الوقت

فقد أوقع الدائنون الحجر على كل ما تملك . .

ولم تشأ أن تسلك شيئاً فباعت مركبتها وجيادها .

ومعطتها ورعت حليها هل تريد أن ترى وثائق البيع والرهن؟

وقدعت إلي هذه الوثائق واستطردت بإصرار المرأة التي تشعر

بصواب رأيها وصدق نظرها :

- هل صدقتي الآن؟ لقد ظنت أنه يكفي أن يحب الإنسان وأن

يكون محبوباً وأن يذهب بصاحبته إلى الحقول كلاً ي

صدقي كلاً فإنه توجد إلى جانب الحياة الروحية حياة

أخرى مادية لا يمكن إهمالها وأنزل المشاعر الإنسانية تنهل

بالأرض بخيوط دقيقة . . ولكنها أمتن من الفولاذ .

ولذا كانت مرعيت لم تقدم على حياتك عشرين مرة . فها

عروها إلا لأنها من طينة شادة غير طينة سائر النساء

إني لا أوم نفسي على أنني نصحت لها بأن تفعل غير ما فعلت . فقد آتني في الحق أن أرى هذه العنة المسكنة تجرد نفسها من كل شيء . ولكنّها لم تصغ إلى نصيحتي . . . وأجابت بأنّها تحبك . وأنها لا تخونك ولو أعطيت ملك الأرض .

وكل ما بينكما جميل جداً . وشعري . ولكن الإنسان لا يستطيع أن يسد دونه بياقة من العواطف أو قصيدة من الشعر . وما هي متصيح على قارعة الطريق . ما لم تجد ثلاثين ألف فرك من بأسرع ما يمكن . .

- حسناً . . سأعطيك هذا المبلغ .

- هل في نيك أن تقترضه ١٩

- دون شك . .

- هاتئذ سبيل عمل رائع . . ستظل كاملتك بالديون . . وتستدعي المشاكل بينك وبين أبيك . وفصلاً من ذلك فإنه ليس من السهل أن يجد الإنسان ثلاثين ألف فرك بين عشية وضحاها .
كلّما يا صبري أرماد . إني أعرف النساء أكثر مما تعرفهن . فلا تقدم على حماقة كهذه سوف ندم عليها في أحد الأيام أمر المندم كن رجلاً عالياً .

إني أقترح عليك أن تهجر مرغريت . ولكي تصبح لك مع ذلك بأن تعاشرها كما كنت تفعل في بداية الصيف .

وهي تبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق . فالندوق على استعداد لأن يعود إليها . الكوكب دي . . قد قال لي أمس فقط بأنه على استعداد لسداد ديونها . مضاداً إليها خمسة آلاف فرك شهرياً إذا هي قبلته عشيقاً لها .

وهذا الكوكب من أكابر المحققين المعليين . ولن يكون عقبة بينك وبين مرغريت .

لما مرغريت . عاقبتها ستبكي حزناً في البداية . ثم تثوب وتألف هذه الحياة . وتشترك في أحد الأيام على ما فعلت وما عليك إلا أن تتصور أن مرغريت ستزوجك . وأنت تعدم روجها .

هذا كل ما هنالك .

لقد قلت لك ذلك قبلاً . ولكني قلت في ذلك الوقت على سبيل النصيحة . . لئلا الآن فإنه ضرورة ملحة .

•

كان كلامها أقرب ما يكون إلى الصواب

استطردت

- إن مشكلات من النساء يتوقع دائماً أن يقع العشاق في حبالهن . ولكنهن لا يوقعن أبداً أن يتنقسن في حبال عشاقهن .
ولاً ادحرون الماش بالمستمن . حتى إذا بنس الثلاثين أمكهن الاستمتاع بالحلب لذته .

لواء . ليني عرف فيما مضى ما أعرف الآن

وأخيراً لا تقل شيئاً لمرغريت . فقط عد بها إلى باريس

إنك خلوت بها خمسة أو ستة شهور . وهذا يكفي . فاهضم عبيك قبلاً . فذلك كل ما يطلب منك لأن يا صبري

وبعد أسبوعين يصبح الكوكب دي . . حيداً لها . فتعمل هي على الاقتصاد والادخار طيلة الشتاء . ومنى أقبل الصيف التالي أمكنكما اعتزال العالم مرة أخرى .

لا شك أن هذه النصيحة كانت في نظرها خلاصة الحكمة ودرب الخلاص . . . ولكنني رفضتها مشمئزاً
كان من المستحيل أن يرفض لي حبي أو ترفض لي كرامتي بأن أقوم بهذا الدور . كذلك كنت واثقاً من أن محررت قد وضعت من طريق الحياة عند المكان الذي تؤثر معه الموب على قسمة عصفها يبي ويرين عشيق آخر .
اجتهدت

- بحسبك ما قفت على سبيل الدعاية ! كم نبع دهرن مرعيت وعلى وجه التعجب ؟

- تبع ثلاثين ألف غريك كما قلت لك

- ومنى يجب سداها ؟

- بعد شهرين

- سأدير لك هذا المبلغ

دهرت كتبه

قمت

- سأديره لك . ولكن يجب أن تقسمي لي بالأ تذكري فرغيت

أنني الذي قمت على سداد ديونها . .

- كن مطمئناً . .

- وإذا عادت وأعدت لك لبيع شيء أو رهنه ما ينبغي

- لا خوف من ذلك . إذ لم يبق لها شيء

وتركتها وقصدت إلى منزلي للبحث عن رسائل من أبي

فوجدت هناك أربع رسائل .

عبر أبي في رسائله الثلاث الأولى عن قلقه لصحتي المطلق . واستمر من سبه ولكنه لمح في رسالته الأخيرة إلى أنه قد علم بما طرأ على حياتي من التبدل . وأعلن عزمه على الحضور إلى باريس في الحال .

وكنتم أحترم أبي وأحلّه وأخلص له الحب فكنت إليه أقول إنني قمت برحلة قصيرة لشمعتي عن الكتابة إليه قبل الآن ثم رجوت أن يذكر لي موعد قدمه لأثاب لاستقباله والترحيب به

تم ذكرت لحامي عواني في بوجيغال وأوصيت أن يحمل إلي أول رسالة ترد من أبي . .

وحدث في الحال إلى بوجيغال فوجدت محررت في انتظارني باب الحديقة وملاصحتها تم من الفلق والمخرج ولكنها ما كادت تصري حتى أسرع إلي . وألقت بعصفها بين يدي . ولم يسعها إلا أن تسأل :

- هل قبلت بروفس ؟

- كلا .

- لقد أبطأت في باريس .

- ذلك لأني وجدت بضع رسائل من أبي . وكان من الضروري

أن أكتب إليه .

وبعد بضع دقائق دخلت باني وهي تلهث فنهضت

مرغريت من مكانها . وانتجت بها ماحية . وتحدثنا طويلاً
ثم انصرفت باين . وهادت مرغريت إلى مكانها بجنتي .

وقالت وهي تتناول يدي

- لماذا لم تذكر أنك عانت برودس؟

- من قال لك؟

- باين

- وكيف علمت؟

- لقد ذهبت في لرك .

- لا بد أنك أسرته بذلك ؟!

- هذا صحيح فإنه خطر لي أن أسراً عاماً لا بد قد استرجع

رحيلك المجاني إلى باريس أنت الذي لم تشرق حي حطة
واحدة منذ أربعة شهور فاشعقت أن تكون قد ركت بك كارتة
أو تكون ذهبت للقاء امرأة غيري .

- يا لك من طغية؟

- ولكني مطمئن الآن فقد عثمت على الأقل ماذا صنعت

ولكني لا أعلم ماذا قيل لك

فلبرزت لها وسائل لي .

قالت :

- لست أسأل عن هذا ولكني أريد أن أعرف ماذا ذهبت إلى

برودس؟

- للقاءتها .

- أنت لا تقول الحق يا لومان !

- ما دمت تريدون الحقيقة فاعلمي إذا . . لقد أردت أن أسألها

عن صحة الخواص . وعنت إذا كانت لا تزال بحاجة إلى معطفك
ومجوهراتك

فاستمع لونها . . ولكنها لم تجب .

واستطردت :

- وقد عثمت ماذا فعلت بالجياذ والمطبخ والمجوهرات

- وهل يقضبك ما فعلت؟

- إنما بعضي أنك لم تكري في أن نسألني حاجتك

فأجبت

- في صلة كالملة التي يسا إذا كانت لدى المرأة بقية من

الكرامة واحترام النفس فإنها تقدم على كل تضحية ممكنة ولا
تسأل عشيقها عقوبة تكسب حبها لوناً لجلالاً .

فأنا وثقة من أنك تحسي . ولكنك لا تعرف صنع ومن المقلد

التي تربط قلب الرجل بأمرأة من طرازي ومن يحس؟ فقد تشوهم

في إحدى ساعات الغضب والسأم أن ما يسا لم يكن إلا حطة مكررة

من تلييري لا يتوار أمواليك !

وبعد فما حاجتي إلى المركبة والجياذ؟ إنني أستطيع الحياة من

دومها وقد تحلست من عقباتي ونكاليها وما دمت تحسي

فذلك كل ما أيمي . ولا شك أنك ستحسي من دون مركبتي

وجياذي ومعطفي ومجوهراتي .

•

قالت كلماتها هذه بلهجة تتم عن الوفاء والإخلاص فاعرفت

عاني بالدموع . وقلت لها وأن أخضط يدها بين يدي

- ولكنك تفكرين يا فتاتي العزيرة انني سأعلم بلهر هذه التضحية

في أحد الأيام وأنتي متى علمت فلن أحمل وقعها .
- لماذا؟

- لأنني لا أريد أن يكون شعورك الكريم معوي سباً في حرمانك من أقل متعة من متعتك ومن يعلم؟ فقد يتواءم لك أيضاً في إحدى ساعات العضب والسأم أنك لو عاشرت رجلاً سواي ما اضطرت إلى الإقدام على مثل هذه التصحية . وإن لا أريدك أن تندي لحظة واحداً على أنك عاشرتي .

كلأ يا عزيزتي مرعوب بعد أيام فلالل سترد إليك مركبتك وجيبك ومجوهراتك إنها ضرورية لك كالهواء الذي تسميه وأن أحيث في تركك أكثرى أحبك في بساطتك وقد يبدو ذلك مضحكاً ولكنه الحقيقة .

- إذاً فأنت لا تحبي!

- يا لك من حمقاء!!

- كلأ! لو أنك أحببتي لشركتني أحبك بطريقتي الخاصة ولكنت ما رأت برى في مناة لا ترضى بحياة الأسراف والبدع بدلاً فتاة تشع دائماً بآلئك مرغم على أن تنفذها أجراً

إن كبرياءك ترفض أوبة حبي . وأنت تنكر على الرغم منك في أنك سوف تهجرني يوماً ما . ونصر على أن تضع راحة شعورك فوق كل شيء .

إنك على حق يا صديقي ولكني كنت أرجو منك خيراً من هذا

وهمت بالهوى . . فأسكت بها وقلت :

- إنني لا أريد غير سعادتك . ولا أحب أن أترك لك سبلاً

للومي والعتب عليّ . . هذا كل ما أريد . .
- وعلى ذلك فلتنا نوشك أن نفرق . .

فصحت

- ولماذا؟ ومن ذا الذي يستطيع التعويق بيثاً؟

- أنت . لأنك لا تسمح بي بأن أهم مركبك وتريد بإصرارك على إحاطتي بما ألفتته من أسباب الشرف والبلخ أن تحتفظ بالهوى الأديبة الحقة التي تفعل بيثاً .

لنت . لأنك لا تؤمن بأنني أحدث حساً بريئاً من المطامع المادية ترفض أن تشاطري إيراثك الذي يستطيع أن يحيا به سعيدين وتأتي إلا أن تورد معك موارد الخراب إرماء لصلفت وتنتك؟

من نظر أنني أفوم حبك بالمركبات والمجوهرات؟ هل تتوهم أن سعادتي في مظهر الخمراء التي يحرص عليها عتف لا يحب أحداً . ولا يقيم بها ورأ عندما يعرف معنى الحب الصحيح؟

تريد أن تقوم على سداد دبري؟ وأن تضطلع بتفقاتي؟ فكمن من الوقت تستطيع الإنفاق؟ ثلاثة شهور على الأكثر ثم تغلب على أمرك وتضل مرعاً كل ما أقدمه إليك وهو ما لا يرضاه الرجل الشريف؟

إن إيراثك في الوقت الحاضر يكمن بالعيش سعيدين وسأبيع من متاعي ما راد عن حاجتي . وولدت بيتاً صغيراً تقضي فيه فصل الشتاء . وكوفاً في الحقول تقضي فيه فصل الصيف . وهكذا نعلم بالشباب والسعادة والخبرة .

فلك يا أرمسان لا ترفني إلى الحياة التي اضطرت أن أحيها فيما مضى من سني حياتي . .

لم أجد ما أقوله وامتنلت عيالي بدموع الحب والإعجاب
قالت :

- لقد أردت أن أجبر أنا كل شيء . فأسدد ديومي وإوثن بيتا
اجديد كل ذلك في الخفاء ودون علمك ولكن ما دامت
بروديس قد حدثت فيجب عليك أن توافق مقدماً بدلاً من أن
توافق مؤخراً . لماذا تقول ؟

- إنني لراضى بـ مرضيك يا مرغريت

واتفقنا على الخطة التي رسمتها فكانت نظير فرحاً وراحت
ترقص وتعي ولا تتحدث إلا من البث الجديد الذي تروي إعداده
لإكاثنا

ورأيت أنها سميدة بهذا التدبير الذي سوف يجمع بيني إلى
الأبد . فلم أضع في سبيله العراقيل

وعزوب من ناحيتي أن أقابل بصحبتهما في سبيلي بالبرول لها
بصمة دائمة من الإبراد الذي ورثته من أبي ولكني كنت عليها
هذا العزوب لأنني كنت واثقاً من أنها لن موافق عليه

وفي أحد الأيام . ذهبت مع مرغريت إلى باريس للبحث عن
مرسل قيم فيه . وانتهرت هذه المروسة ونصدت إلى مسجل
للمنفوق للمصاعم معه على إجراءات التفرول .

كان مسجل المنفوق هذا صحيحاً لأبي . وقد تعودت أن أذهب
إليه مرتين في كل عام لتسلم لمرادي .

ولمّا كان من الضروري أن يعرف الرجل الحقيقة عاجلاً أو
أجلاً فقد ضاعته في الأمر بصراحة وسرّي أنه لم يعرض

رغيتي بصمته صديق لي وسجل عقود الأسرة ووعدي الرجل
في النهاية بأن يتخذ الإجراءات الضرورية لتحقيق غرضي ولا
حاجة بي إلى القول بأنني ألحقت عليه أن يكتم الأمر عن أبي
وانصرفت لمقابلة مرغريت وكانت تنتظري في بيت جوبيا
ديار . ثم أصرعنا في البحث عن مرسل ملائم وروما أخيراً على
هنا

بعد ثلاثة أيام كنت أتناول طعام الإفطار مع مرغريت في بيت
في أوجيغال . ولا شاغل بغير الاستعداد للمستقبل السعيد
حين أقمت نائين وأناشيتي بأن خادمي يريد مقاسمتي
ودخل جورييف . . وقال لي .

- لقد جاء والدك إلى باريس يا سيدي وهو يتنكر في المزور
ودرجو أن تلعب لقابك في الحال .

ورغم ساطعة هذا البدر فقد حملت كل ما في وجه صاحبه
وكأنما توجسنا شراً . . قلت لها وأنا أريت على يدك
- لا تخشي شيئاً

عمممت

- عد بأسرع ما يمكنك . سأنتظرك عند النافذة

وبعد ساعتين كنت يباب منزلي في شارع برونس .

الفصل العشرون

وجدت أبي جالساً يكتب أمام طاوله صغيراً في فضاء

لاستقبال وأدركت حاداً رفع رأسه ونظر إلي أنه يبت أمرأ
وتظاهرت بأنني لم لاحظ شيئاً وسددت على يده بحرارة
وسألت

- متى جئت يا أبي العزير؟

- جئت أمس .

- وهل قصدت إلي هنا مباشرة كالعادة؟

- نعم .

- يؤسفني كثيراً أنني لم أكن هنا لأستقبلك

وتوقعت عدداً أن أسمع الماضرة التي سمعها نجهمة ولكنه
لم يجب بل صق خلاف الرسالة التي كتبها وأمر خادمي أن
يلعب بها إلى صندوق البريد .

ولما أصبح وحيداً بهض أبي راقها واستند برمفه إلى
حافة الموقد . . وقل .

- أريد أن أتحدث إليك في أمر هام يا عزي أرماني

- إنني مصغ إليك يا أبي .

- هل تعدني بأن تكون صريحاً؟

- إنني صريح دائماً

- هل صحيح أنك تعارض امرأة يقال لها مرغريت حوتيه؟

- نعم . .

- هل تعرف من هي هذه المرأة؟

- إنني أعرفها حق المعرفة .

- وهل من أهلكا أعتدت زبارة أختك وريارني هذا العام؟

- نعم يا أبي . . إنني أعترف بذلك .

- وهل تحب هذه المرأة كثيراً؟

- أنت نرى أنني لا بد أحبها كثيراً ما دمت قد أهتمت من أحبها
واحداً من أقدم الواجبات وهو إهمال أعصر إليك في خضوع أن
تعمره

- ولا شك أنه لم يكن بمشوق من هذه الأجوبة الحاسمة
قصيرة . . لأنه فكر لحظة ثم قال :

- وهل أدركت أنك لا تستطيع الاستمرار في هذه الحياة؟

- كنت أحس ألا أستطيع الاستمرار ولكنني لم أدرك ذلك حق
الإدراك .

فقال بلهجة أشد صرامة :

- كان يجب أن تعلم أنني لا أسمع لك بهذه الحياة الجديدة

- لقد فكرت في أنني ما دمت لا أجلب العار على الاسم الذي
أحمله . . فإني أستطيع أن أمها كما أشتي !

وشمرت من دفت الحب الذي ملك علي كل جوارحه من
حورمي بقوة على الضال - حتى ضد أبي - للاحتفاظ بمرغريت .
قال :

- لقد حان الوقت الذي يجب أن تجد فيه من هذه الحياة بديلاً

- لماذا يا أبي؟ !

- لأنك توشك الإقحام على عمل يتنافى مع استثمارك المرحوم
لشرف الأسرة . .

- إنني لا أفهم كلامك يا أبي . !

- سأحدثك في وضوح لا بأس من أن تتحد لك عشيق

مدلك من شؤونك ولا بأس من أن تنقد عشيقتك من السعادة

التي بعددتها عليك ذلك من واجباتك لا بأس من هذا
وذاك . أما أن تهمل أقدس واجباتك من أجل عشيقتك وتسمح
للإشاعات عن حياتك الفاضحة أن تعد إلى القرية التي أعيش فيها
وتتطخ الاسم الشريف الذي أعطيتك إياه ذلك ما لا يجب أن
يكون . . وما لن يكون أبداً .

- اسمح لي يا أبي أن أقول لك بأن لولتك الذين ألتصق عني
هذه الأمور لم يتحروا الحقيقة .

صحيح أنني عشت مرغريت جوثيه وصحيح أنني
أعشرها ولكنني لم أعطها الاسم الكريم الذي علمته علي ولم
أفق في سبيلها أكثر مما يسمح به لإيرادي ولم أتورط من أجلها
في أي دين ولم ألق بمالي موقفاً يجبر لئلا أن يقول لابنه ما
قلته في الآن . .

- إن من حق الأب دائماً أن يحرك به عن طريق الشر متى
رآه يحذر إليه ولقد لم تأت شراً حتى الآن . . ولكنك مقدم
على شر دون شك
- أبي !!

- أبي إنني أعرف الحياة أكثرى تعرفها فاعلم إذا لم
المواطن البريئة لا توجد إلا حيث توجد المرأة الطاهرة وإن كل
(مانون) . جديرة بأد تحلق (دي جيرو)

والآن أليس في نيتك أن تهجر عشيقتك ؟

- يزعمي أن أخرج عني طاعتك يا أبي ولكن هذا
مستحيل

- سأرغمك على تركها .

- من سوء الحظ يا أبي . إنه لا يوجد في هذه الأيام مني
للعائبات كذلك المص الذي أرسلت إليه (مانون) ولو وجد هذا
المص لتبت مرغريت إليه . .

ماذا أستطيع أن أفعل يا أبي إنني ربما كنت على خطأ
ولكنني لن أجد السعادة إلا في حب هذه الفتاة

- انتح عبيك يا أرماني وأهم أباك الذي طرد أحب ولا
يريد إلا سعادتك .

هل تم بشرتك أن تعاشر معاشرة الأزواج فتشاء ملكها الجميع
قبلك ؟

- وماذا يصبرني يا أبي طاك أن أحداً لن يملكها بعدي ؟
ماذا يصبرني ما دامت الصناة تحمي وما دام هذا الحب قد
خلقها خلقاً جديداً ؟

- هل تعتقد إذا أن رسالة الرجل الشريف في الحياة أن يرد البعيدا
إلى سواء السبيل ؟ ترى ماذا يكون رأيك في كلامك هذا متى سمعت
الأربعين ؟ إنك سوف تضحك ساخراً من فراقك إذا وجدت في
مقدورك أن تضحك على الإطلاق ولم يكن هذا المرام قد ترك
في حياتك جراحه الدامية !

وترى ماذا كان يمكن أن يكون شأنك الآن لو أن أباك جرى
على خطتك وأسلم معه لمروات الشباب بدلاً من أن يقف ثابتاً
على دعائم الشرف والائمان الصادق ؟ فكّر يا أرماني . ولا تشتق
بهذه المحادثات إنك ستهجر هذه المرأة أليس كذلك ؟ إن أباك
يضرع إليك .

لم أجب

واستطرد

- أرماد - استخلفك باسم والدتك الطاهرة أن تصعي إلي

انفض من حذائك خبار هذه الحياة التي سوف نأبىها بأسرع ما
تتصور والتي تشدك إليه الأك نظرية جوفاء لا تصمد أمام
الصكير الرعيب والمنطق السليم

إنك لا تزال في الرابعة والعشرين من عمرك معكرو في
مضيقك

أنت لا تستطيع دائماً أن تحب هذه المرأة وهي بدورها لن تحبك
دائماً .. كلاهما يبالغ في تقدير حبه للآخر ..

أنت تسد أمام نفسك دروب المستقبل وإذا غلطت خطوة
أخرى تعدر عليك أن تبرح الطريق الذي تسلكه الآن وقضيت بقية
حياتك دائماً على شاطئ الضائع أسفاً على أملاك المهدوم

ذهب إلى أهلك وانفض عبداً شهراً أو شهرين فبترك الحب
العائتي المقدس من هذه الحسى لأن ما بك ليس إلا نوعاً من
الحصى ..

ألا نذهب يا أرماد؟؟

قال هذه العبارات بلهجة رقيقة صارغة فلم أقو على الكلام

قال بصوت يرغب من التائر

- ألا نحب؟

فاجبه أخيراً .

- لا أستطيع أن أمك بشيء يا نبي إن ما تطلبه مني يعرف
طائفتي ولكن صدقي إنك نبالغ في تقدير نتائج هذه الصنة

مزعزعت ليست الغناء التي تتصورها وهذا الحب أبعد من أن
يصلني من سواء السبيل بل إنه على العكس حقيق بأن يمتي في
مضي نيل الخصال وأكرم المشاعر لأن الحب الصحيح يهدد
الرجل ويصلحه مهما بكر المرأة التي تلهم هذا الحب
لو أنك عرفت مرعرت يا نبي لاقتعت بأنها ليست امرأة
التي تومي إلي ما تحشى

إنها ليلة **كامل النساء** .. ولا تصدر في حيها لي عن معصنة
شخصية أو عرس مادي

- الأمر الذي لم يمتعها من قبول كل ثروتك .. لأن الستة آلاف
فرك التي ورثتها من أمك وتريد أن تزاو لها عنها - تذكر جيداً
ما أقول - هذه الستة آلاف فرك هي كل ثروتك .

ولا شك أنه احتفظ بهذا التهديد كأمر سهم في حميمه
وأمر صدمة بوجهي إلي ولكني كنت أقوى أمام تهديده مني أمام
وجاهته وضارته

سأله .

- من قال لك إنني أقوى الرول لها من هذا المبلغ؟

- صديقي مسجل العقود .. هل ظننت أن هذا الرجل الشريف
يقدم على حمل كهذا دون أن يسألني رأيي؟

إنني لم أحضر إلى باريس إلا لأسمع من السعي إلى خرابك في
سبيل هذه المرأة .

لقد أورتك أمك هذه الثروة لكي تعيش بها عيشة الرجن
الشريف .. لا لكي تقدمها عية لعشيقك

- لوكد لك يا نبي أن مرعرت تجهل أمر هذه الهبة

- إذا ، لماذا وهبتها لها؟

- لأن هذه المرأة التي تمنعها بأبشع الصفات وتطلب إلي أن أصبحها قد ضمت بكل ما تملك .. لكي تحيا معي .
- وهل قلت هذه التضحية؟ أي رجل أنت يا سيدي لكي تسمح بلاكسة مرغريت بأن تضحي بشيء من أجلك؟ كمى كمى لا بد أن تترك هذه المرأة إنسي رجوتك مد لحظة .. لأن الآن فاني أمرك .

إنني لا أسمح بمثل هذه الخلفات في منزلي .

اسمزم أمتك .. وتلعب للرجل معي .

- هههه يا أي .. إنني لا أنوي الرجول ..

.. لأن؟

- لأني بلغت سنًا تجاوز الأطيع أمرك ..

فامتنع وجه أي .. وقال بعد لحظة

- حساً يا سيدي .. إني أعرف الآن ما يجب أن أفعله

وقرع الجرس .. فدخل خادمي .

قال له

- اذهب بالمتني إلى فندق باريس .

ثم نفذ إلى الغرفة المبلورة ليوندي ثيابه

ولما خرج - اقترت منه .. وقالت له

- هل نعدني يا أي بالآ تعمل شيئاً من شأنه أن يؤلم مرغريت؟

فصغمتي بعينه باستنار وأجاب :

- أنظر أنك جئت .

وحرج .. وأغلق الباب وراءه يمشي .. فتسريث لحظة .. ثم انصرفت بدوري . واستأجرت مركبة انطلقت بي إلى «برجيمال» وهناك وجدت مرغريت عند نافذتها تنظر عودتي

الفصل الواحد والعشرون

صاحت وهي تملطي :

- ها أنت قد عدت أخيراً ولكن ما أتد امتنع لوكد؟

وقصصت عليها ما كان بيني وبين أي .. فنهكت :

- آه .. هذا ما حدثني به قسي عندما أعلن جوريف قدوم

أيك .. أرغمت كما يرتحم الإنسان إذا سمع ما سيئاً

ممكن أنت يا عزيزي .. إنني سب هوموت جميعاً .. رى كان

من الخير لك أن تهجري . بدلاً من أن تعصب أبداً؟

ومع ذلك .. إنني لم أفعل ما يستوجب معنته علي .. إننا

نعيش معاً في هدوء .. وستكون حياتي في المستقبل أكثر هدوءاً

وهو يعلم أنه يجب أن تكون بك حبيبة . وكان ينبغي أن يسره

أن أكون أنا حيث لأني أحب . ولا أطمح في غير حبك

هل حدثك كيف وصفا غطت للمضيق؟

- نعم .. وذلك ما ضاعف حنفي . لأنه رأى في غطتنا ذليلاً

على حينا للثبات .

- وما العمل إذا؟

- يجب أن نصدق يا عزيزي مرغريت إلى أن نغير العاصفة

- ولكن هل نغير بسلام؟

- يجب أن نمرّ .

- ولكن أباك لن يقف عند هذا الحد .. أليس كذلك؟

- ماذا تعطين أنته سيمعل؟

- لا أعلم . ولكنه سيمعل كل ما يمكن أن يفعله الأب ليرعم ولده على طاعته . وسيترك باقي . وقد يشرمي بقصة جديدة يخترعها عني ليفرك مني .. ويحكك على هجري .
- أنت تعلمين أنني أحيك .

- نعم . ولكني أعلم كذلك بأنك يجب أن تطيع أباك عاجلاً أو آجلاً . وقد ينتهي بك الأمر إلى الاقتناع بوجهه نظره والخصوع له .

- كلاً يا مرجريت . أن الذي سوف أتعه إنه متأثر بكلام بعض أصدقائه . ولكنه في الواقع طيب القلب . وكريم الخلق . سريع الغفلة .

- وبعد .. فسادا بهتني من خطبه أو رساله؟

- لا نقل ذلك يا أرمسا . إنني أؤثر أي شيء على أن يقال إنني سبب الخلاف والموجعة بينك وبين أبيك . فدع اليوم يمر بسلام . وادع إلى غداً بعد أن تهدأ سورة العصب . وربما استطعتنا التفاهم .

- ولا تحاول دحرة مبادته . وتظاهر بالوصوح لبعض رغباته واقتصاد في حماستك لي . فبهذا بالأ . وبترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي .

- ولا تيأس يا عزيزي . وكما ناقش من أنه مهما حدث فإن مرجريت لن تتحسرك من إخلاصها ووفائها لك .

- هل تقسمين؟

- وهل يجب أن أقسم؟

وفضيت بقية النهار في العنكر والتدبر للمستقبل . ونحن ننتظر في كل لحظة أن يطرا جديد . ولكن لحس الحظ أن اليوم انقضى ولم يحدث شيء .

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي قصدت إلى الفندق الذي انتقل إليه أبي . فبعته في منتصف النهار .

ولكن قبل لي أن ألي قد انصرف . فذهبت إلى منزلي حيث رحوت أن أجده . ثم قصدت إلى مكتب مسجل العفود . ولكني لم أجده أبي عنا أو هناك .

وعدت إلى الفندق . وانتظرت حتى الساعة السادسة . ولكن دون جدوى .

ولمّا عدت أدراحي إلى دوجيمال لم أجده مرجريت في انتظارني كالعادة . رأيتها جالسة بجوار الموقد . مستغرقة في التفكير بحيث لم تشعر بي عندما فنوت منها .

ولمّا قبلت حينها . رفعت رأسها بعدة . كأنها أبطنتها القبة فجأة من موج عقيق ..

قالت

- لقد أزعجتني .. هل قابلت أباك؟

- كلاً . ولا أعرف أين هو . فقد بحثت عنه في كل مكان . اعتاد أن يحتلف إليه .

- إننا ، يجب أن نعيد الكرة غداً

- الراي عندي أن أنتظر حتى يرسل في طلبي وفي اعتقادي أنني فعلت ما فيه الكفاية .

- كلاً يا أرمين هذا لا يكفي ويجب أن تعود إلى ليك غداً على وجه الخصوص .

- لماذا غداً دون أي يوم آخر؟

- فاحرص وجهها قليلاً ولكنها أجابت .

- لأن هذه المواقفة من جانبك تبدو أدل على الإخلاص وحسن النية . . وقد تثير عطف أبيك ولعلب لنا صفحه .

■

ولفت مرغريت بقية النهار مهمومة حرية مكتبة واضطرت أكثر من مرة أن أكرر أسئلتني لها قبل أن تمهي ونحسي وقد سوت كآبتها وتفكيرها وحرمتها بأنهم من تأثير الخوف الذي أوقعته في نفسها مصاجات اليومين الأخيرين

وفي صباح اليوم التالي أصرت على رحيلي إصراراً لم أهتم له معي

ولفصدت بأريس ولم أجد أبي في الفندق . ولكنه كان قد ترك لي بطاقة عليها هذه الكلمات :

« إذا حضرت لمقابتي اليوم فانتظري حتى الساعة الرابعة وإذا لم أجد في الساعة الرابعة فتعال حداً لقضائي وتناول طعام العشاء معي . . فإني أريد أن أحدث إليك »

فانتظرت حتى الساعة الرابعة ولم يحضر أبي فالتصرفت

• •

كانت مرغريت في اليوم السابق حرية مهمومة أنا اليوم فقد وجلتها شديدة الاضطراب والاعمال وما إن وقع بصرها علي حتى أحاطت عني بساعديها وانضجرت باكياً .

ولسنا سألناها عن سر هذا الحزن الفجائي الذي ضاعف مرعي لم أجد عدداً جويلاً شافياً ولبأت إلى الأعداء المصطعة التي نخشعها المرة عادة عدم نزع في كتمان الحقيقة .

ولسنا راء اضطرابها قليلاً حدثتها بتيجة رحلتي وأبرزت لها بطاقة أبي وقلب إن لهجة الرسالة تدعو إلى الصلوات

أما هي فإنها ما كادت ترى البطاقة وتسمع ملاحظتي على مضمونها حتى سالت دموعها مرة أخرى فأشفت أن تتأبها سورة عصبية ودعوت باتي وتعدوت معها على وضع العناة السكنية في غرائها غير أنها ظلت تنكي وهي بمسكة يدي تظلمها بين القبة والعبنة دون أن تنطق بكلمة واحدة

وسالت بغين هل تسلمت سيبتك رسالة ألتها أو هل رارها في غيالي والرائعها ؟ ولكن الوصيعة أجابت سلباً بيد أنني كنت موقناً أن شيئاً لا أعلمه قد حدث . فأحسرت مرغريت أمس ولزعهجها اليوم وهي لا تريد أن تروح لي به

■

وهذا اضطرابها قليلاً في المساء فأجلستني بجانبها وودحت تحمذ عهود حبها وإخلاصها وتسم لي ولكن بجهد . لأن الدموع كانت تملأ عينها بالرغم منها

وفد لحأت إلى كل حبة بمسكة لحملها على الاعتراف بأسباب حرمتها ولكنها أصرت على أجوتها البهمة التي لا تشفي غليلاً

وأخيراً قامت بين ساعديّ . ولكنه كان يوماً متعباً للجسم لا
 مجتهداً لقواه . لأنها كانت نهدي نلوة وتصرخ تارة أخرى
 وتنهض فجأة بين الفينة والفينة . حتى إذا استوتقت من وجودي
 بجانبها طلبت إليّ أن أقسم بأن أحبها دائماً . .
 ثم عنيها العاص آخر الأمر فاستعرت في يوم عيني استعرت إلى
 الساعة الحادية عشرة .

ولما استيقظت . . نظرت حولها . وسألني
 - هل ستذهب الآن؟

- فأجبتهما وأنا أريت على يديها :

- كلاً . فلا يزال الوقت مبكراً

- ومتى تذهب إلى باريس إذا؟

- في الساعة الرابعة . .

- بهذه السرعة؟ إذا فبذل عني حتى يحين وقت الرحيل هل

تبقى عني؟

- طبعاً . . ألا أفعل ذلك دائماً؟

- يا للعادة!! فلنتناول طعام الإفطار إذاً .

- تروني؟

- وهل تزودني بيلاتك إلى أن ترحل؟

- نعم . . وسأهوى بأسرع ما يمكن

فتظرت إليّ بعينين شارفتين . . وخمضت

- وهل تعود حقاً؟

- طبعاً .

- هذا صحيح . إنك مشغورة الليلة وسأنتظرك كالعادة

ومتحمي . ونكون سعيدين كما كنا منذ عرف أحدهما الآخر

•

قالت ذلك بصوت أجوف خيل إليّ أنه يحجب فكرة مؤلمة
 قلت لها

- أصمي إلي أنت مريضة ولا أستطيع أن أتركك هكذا
 ساكنة إلى أبي لكيلا يتظرنني .

فنهضت .

- كلاً كلاً لا تفعل ذلك وإلا أتهمي أبوك بأنني أمدك من
 مقاديرك كلما أراد أن يراك كلاً يجب أن تذهب ثم إلي
 لت مريضة إلي في خير حال كل ما هالك أنني رأيت بين
 اليوم والبطنة حتماً مريحاً
 وحاولت بعد ذلك أن تبدو مريحة مفتبطة .

ولما حان وقت الرحيل قيلتها واقترحت عينيها أن نرافضي
 إلى الحطة عسى أن يمشيها البر والسيم نرافقت وألقت
 على منكبها معطفاً . . ومخرجت معي . .

وخطر لي مائة مرة أن أهدل من الرحيل ولكنني اشتغقت أن
 أعقب أبي أكثر مما أخفيته .

قلت لمخرجت عندما تحرك القطار .

- إلى مساء إذاً . .

ولكنها لم تجب . .

وقد حدث مرة . قبل ذلك . . أنها لم تجب علي مثل هذه
 الكلمات

كان ذلك عندما قضت ليلتها مع الكونت دي ج
 ولكن هذا الحادث وقع مد وقت طويل حتى كذبت أن

إنهاء . وفضلاً عن ذلك فإن حياة مرغريت أصبحت اليوم آخر ما
يشير مخاوفه . .

ولف وصلت إلى باريس . أسرع إلى بيت برودس كي
لرجوعها أن تلعب إلى مرغريت . لتتركها عنها . وتدخل السرور
على نفسها . وجدها أمام أدوات الرينة . فهتعت في شيء من
القلق

- آه . هل جاءت مرغريت برفقتك؟

- كلا .

- وكيف هي؟

- إنها مريضة

- أليس في بيتها الحضور؟

- وهل يجب أن تضر؟

- فاحرص وجهها . . وقالت في لفتة بك :

- كان من الطبيعي أن أنتظر قدومها معك ما دعت قد جئت إلى
باريس !

- كلا . لم تأت !

- وظرت إليها سعدة . فأطرقت برأسها

للت

- لقد جئت يا عزيزي برودس لكي أرحبوك في تفهمي إلى
مرغريت . ونقضي مساء معها . فبقي لم أرها قط كما هي
اليوم . وأخشى أن يصبها مرض
فأجاب

- إني الليلة على موعد لتناول طعام المشاء في باريس . وليس

في استطاعتي أن أذهب إلى مرغريت . ولكي سأزورها عدأ
فشكرتها . وقصدت إلى العنق . وجدت أبي في انتظار
شعرت من نظرت الأولى إلي أن غصبه علي قد امتأ
قال وهو يسط إلي يده :

- سرتي أن تزوري مرتين يا لوردا . هذه الزيارة المزدوجة إذا دلت
على شيء ، فعلى أنت فكرت في الأمر ملياً . كما فكرت أنا فيه
- هل تسمح لي يا أبي بأن أسألك . ماذا كانت نتيجة تمكبرك؟
- كانت أنني شعرت بأنني بالعت في تقدير أهمية الإشاعات التي
سمعتها . وأني فزت أن أكون أرحم بك وأكثر عطفاً عليك
فصحت في جلد :

- ماذا تقول يا أبي العزيز؟

- أقول يا ولدي إن كل شئ يجب أن تكون به حليمة . وإني
أفصل بعد المعلومات التي استقيتها أن تكون حقيقاً للأمة جوتييه
من أن تكون حقيقاً لأمة أخرى .

- يا أبي العزيز . ما أسعني بك

وتحدثنا قليلاً . ثم جلسنا لتناول طعام الغداء .

وكنا أبي حذراً . أما أنا فكنت أنصرف شوقاً للعودة إلى
"بورجيمال" لكي أرف هذا البيا السعيد إلى مرغريت

كنت أنظر إلى الساعة في كل دقيقة . فقال أبي

- أنت قلق . وتريد أن تسرعني بأسرع ما يمكن . أليس كذلك؟
آه . لكم الله أيها الشباب ! إنكم تضحون بالمواقف الخالصة على
صديق المواقف القوية .

- لا تقل ذلك يا أبي . . إن مرغريت تحبني وإني وثق من ذلك

فلم يجب .. ولم يد عليه أنه صفتي أو لم يصفني .
وأخف عليّ في البقاء إلى اليوم التالي ولكني قلت له إن
مرغريت مريضة وإن عيبي سيقفها حتماً ثم وعدته أن أرويه
في اليوم التالي .

وكان الجو صحوّاً فاقترح أن يرافني إلى المحطة
وشعرت بأنني لم أكن في حياتي أسعد مني في ذلك اليوم
وبأنني أحب أبي كما لم أحب من قبل
وقبل أن يتحرك القطار سلّمني مرة أخرى أن أبقي مرغريت
- أنت نجها بإخلاص إذا؟
- بل أحبها حب جنون ..
- اذهب إليها إذا .

وسرّ بيده على حبه كمن يريد أن يقصي خاطراً بضيقه
ولم يحس به بيكلم ولكن عاد منه على يدي بسرعة وقال وهو
يتصرف على عجل :
- إلى اللقاء غداً .

الفصل الثاني والعشرون

كان يبدو لي أن القطار لا يتحرك .
ووصل إلى «بوجيغال» في الساعة الحادية عشرة ولم أُر
شوطاً في أية نافذة من نوافذ بيت فقرعت الحرس مراراً
وانتظرت طويلاً وأخيراً فتحت نقيز الباب وأصامت مصباحاً
سلّمني .

- أين سيدتك؟
فأجبت

- ذهبت إلى باريس .

- إلى باريس؟

- نعم يا سيدي .

- متى؟

- بعد ساعة من انصرافك .

- ألم تترك لي شيئاً أألم تترك لي رسالة؟

- كلا .

- هذا عجيب .. هل قالت لك إنها على موعد؟

- كلا .

وتركتني الفتاة وانصرفت إلى غرفتها .

قلت لنفسي :

- يحتمل أن تكون مرغريت قد أوفت في الأمر وحيث أنني ما
مصدت إلى باريس إلا لاستمتع بالحربة فأرادت أن تتأكد
بنفسها

ويحتمل أن تكون برودس قد كنت إليها تستقدمها لأمر هام
خاص بفيومها .. ولكن ..!

لقد قابلت برودس في باريس ولم تذكر لي شيئاً من رغبتها
في دعوة مرغريت!

وهكذا تذكرت سؤال برودس حين قالت (إذا فليس في بيتها
أن تأتي اليوم؟؟) ..

وتذكرت ترتيباتها حين نظرت إليها بعد هذا السؤال الذي يشتم
منه أيتها كانتا على موعد ..

ثم تذكرت إلى جانب هذا وفك دموع مرعرت وحزنها
الناموس والخاصها علي في الرحيل وسألت نفسي ما معنى كل
هذا؟ ترى هل أقدمت على حياتي واعتمدت على قها تستطيع
المودة قبلي . . ثم غابتها القلوب ١٢٢

وسم أسوك بصري من عقربي الساعة حتى انتصف الليل
وأبنت الأمل في الانتظار .

عسى أنني لم أصدق بعد الذي رأيته من دلائل حبسها
واخلاصها وتضحياتها . . أنها تقدم على حياتي . .

كلأ كلأ لا يد أنها وجدت من يتناح ألتها فذهبت إلى
باريس لهذا المرض وكشمت الأمر عى لكيلا تؤلني ولما
أنسى عليها المساء قصدت إلى بيت برونس .

ثم من يدري؟ فلمعها الآن في طريقها إلى هنا

ولكن . . ما سبب دموعها إذا؟

لا شك أن العاة السكية لم نستطع رغم حبها لي أن نرول
عن مظاهر بلذنها ونمستها دون أن تسكب دمة .

•

وانتظرت بدارج الصبر أن أراها فأضمرها إلى صدري وأقول لها
إنني أدركت سر خيايها .

ولكن الساعات مرت كأنها أجيال ولم تعد مرعرت

واستولى عليّ الترع فضاعف الحمى التي تمشي في قلبي ودمي

ترى هل وقع لها حادث ما ١٢٣

ترى هل جرحت أو مالت ٢٢ لا شك أنها أبطأت لب خارج
من إرادتها

ودفت الساعة الواحدة . فقلت لنفسي «استنظر ساعة أخرى
إذا لم تأت . . انطلقت للبحث عنها في باريس»
ولم أجسر على الاستمرار في التمكير فتولت كتاب «ماتون
ليكون» وتصفحت

حبلى إليّ أنى أرى في بعض صفحاته آثار الدموع .

عسى أنني لم أستطع القراءة طويلا الكتاب وصررت إلى
الغداة وأصبت

ولكني لم أسمع صوت مركبة أو وقع حوار جياذ

ثم دقت ساعة الكنيسة فلتاتها الخيفة . .

وعند استيدي القلق فقصدت إلى حرفة مانين وكانت
العاة بالمة ولكنها استيقظت عندما فتحت الباب . وسألت

- هل عادت مبني ١٢٤

فأجبها :

- كلأ ولكن متى عادت فقولي لها إنني لم أطلق صبراً

واتي ذهبت للبحث عنها في باريس

- في هذه الساعة؟

- نعم .

- ولكن كيف؟ لن تجد مركبة تذهب بك؟

- سأذهب سيراً على قدمي .

- إن السماء قطر . .

- ذلك لا يهمني .

- إن مبني متعود حتماً . وإذا لم تعد فإنك ستجد متسعاً من

الوقت خذاً للبحث عنها .

- إنني أفضل أن أبحث عنها الآن - إلى اللقاء يا ماري

فجاءتني بمطلي ووضعتني على كتيّ واقترحت عليّ أن
توظف مدام أربولد وتساألها عمّ إن كان في الإمكان الحصول على
مركبة ولكنني رفضت هذا الاقتراح حرصاً على الوقت ولاسي
كنت بحاجة إلى الهواء والنفس الختماني للتعلم على تقطعني
وتناولت مفتاح شقة مرغريت في شارع دانتان وانصرفت

•

أخذت أهدو في البداية حتى أرغمني انتصب على الترت
وكان الظلام شديد الخلكة . فالتفتت أن أصطدم بأحدى
الأشجار التي كانت تتراعى لي كأنها أشباح مبللة محوري ورأيت
من الحكمة أن ألهل في سبيري
ومررت مركبة سبب الأرض في الطريق إلى «بوجيسال» فالتفتت
أمامي ورجوت أن أجد مرغريت في هذه المركبة فصرحت
- مرغريت . . مرغريت

ولكنني لم أسمع جواباً واستمرت المركبة في طريقها

•

واشرقت أخيراً على باريس مشددة مظرها عيني وتعتش
فواي . . وأوسعت الخطى .
لم أصادف أحداً في طريقني وخيل إليّ أنني أسير في مدينة
الوقت .

ولست وصلت إلى شارع دانتان كان العجبر قد برع ودقت
ساعة إحدى الكناشي خمس دقائق .

طرقت باب مرغريت . وذكرت اسمي للبوابة وكنت قد

أعطيه من القطع الذهبية ما جعله يعرف اسمي . وعدم أن من
حقني أن أזור الأنة جوتي في الساعة الخامسة صباحاً
ولم أسأله عن مرغريت وهل هي في منزلها خوفاً من أن
أسمع جوابه بالنفي وأثرت الشك مع الأمل على اليأس المطلق
أسرعت إلى شقة مرغريت وأصغيت بابها ولكنني لم أسمع
حركة أو صوتاً .

فتحت الباب ودخلت

كانت جميع اللوازم معدة والتائر مبدلة فتحت نافذة
في قاعة الطعام وانشأ ضوء القمر إلى داخل الشقة
وأسرعت إلى مطبخ مرغريت وفتحتته ونظرت إلى
المرآة . كان خالياً .

•

عدت من باب إلى باب وانفتحت من غرفة إلى غرفة
ولكنني لم أجد أحداً . .
خيل إليّ أنني أجن .

وأخيراً قصدت إلى قاعة شباب وفتحت بابها وبادت
برودنس مراراً . . ولكنني لم أسمع جواباً

•

وعدت إلى اللواب وسأله هل جاءت مرغريت إلى شقتها
في أثناء النهار؟
فأجاب .

- نعم يا سيدي . . جاءت ومعها مدام برودنس . .
- لم تترك لي رسالة؟

- كذا -

- هل تعلم ماذا فعلنا بعد ذلك؟

- انصرفنا في مركبة ..

- وما نوع هذه المركبة؟

- مركبة أجرة .

يا إلهي .. ما معنى كل هذا؟

وطرقت باب المنزل المबार بعته الجواب وسألني

- ماذا تريد يا سيدي؟

- أريد مقابلة مدام برودنس .

- لم تعد بعد .

- هل أنت واثق؟

- نعم يا سيدي . وهذا رسالة وردت إليها أمس ولم تسلمها بعد

ولوح بالرسالة في يده . مرفوع مصري على غلافها وعرفت خط

مرشيت

تأودتها بلهفة ونظرت إليها بإعجاب وفرائ على غلافها هذا

الصوان «إلى السيدة برودنس دمرتوي تسليمها إلى السيد لرمين

ديغال» .

فهمت

- هذه الرسالة لي

فقرأ الصوان بدوره وسألني

- هل أنت السيد ديغال؟

- نعم

- آه . إتني أمرك . فقد رأيتك مراراً عند السيدة برودنس .

وفهمت من المنزل .. وقضت الرسالة

لو أن ساعة انقضت أمامي ما أدهشتي كما أدهشي مضمون هذه
الرسالة

قرأت فيها هذه الكلمات :

«عندت تقرأ هذه الرسالة يا لرمين . أكون قد أصبحت عشيقته
رجل آخر .. وبهذا ينتهي كل ما كان بيننا

بعد إلى أليك يا صديقي ..

«ذهب إلى أختك فهي صبة غراء تجهل كل تمانينا ويوس

وسوف يسبك عظمها ما قدر لك أن يحابه على يد مرشيت

جوتيه . تلك المرأة التي كتب لها الضياع . والتي تدعى لك

بالسحابة القصيرة التي نعتت بها في حياتها» .

■

عندما قرأت هذه الرسالة حبل إلي أن أعطي يكاد يتعجم

وحشيت عبي سحنة مظلمة . واندفع الدم في عروقي بقوة

وأخيراً ملك ممسي قسلاً . ونظرت حولي . وأدهشتي أن أرى

الدماء لا تزال دماً رغم الكارثة التي برئت بي وسحقت علي

لم تكن لدي القدرة على احتمال هذه الصدمة بمفردي . وجرى

خاطري إلى أبي . فهو الوحيد الذي أستطيع أن أفرغ إليه في

صحتي .. والوحيد الذي يستطيع أن يرفهني ..

انطلقت أحدى كفتي كالثور حتى وصلت إلى مذي

باريس .. وصعدت إلى غرفة أبي .

كان يابها معنوحاً وكان لي بغراً فطر لي بقليل من
الدعشة .. وكنته كان ينظر قدومي ..

ألقيت بعسي بين ساعديه دون أن أنطق بكلمة ثم دعوت إليه
رسالة مرغريت .. واتعمجت بأيا

الفصل الثالث والعشرون

قضيت الشهر التالي بين أبي وأختي ولم يعسي عطفيهما
وحناهما عن التفكير في مرغريت ..

كس قد أصبحت هذه المرأة حباً يستحيل معه أن أنساها بهذه
السرعة أو أنسى الطعنة الجلاء التي أدت به قلبي
لم أقصها عن ذهني ولم أستطع إقصاءها وشعرت بأنه
يتمني علي أن أحبها أو أن أكرهها وشعرت أكثر من ذلك
برغبة شديدة في أن أراها تدمر الأخيرة على الأرض

ومكنتي هذه الرغبة حتى لم أطق صبراً على تخفيفها فقلت
لأبي إنني أنوي السفر إلى باريس لشأن من الشؤون على أن أعود
بسرعة

ولا شك أنه أدرك عروضي لأنه أخف علي في البقاء فلما
أصروا أشق أن يؤثروا الفرض في حالتي العصبية فقصني إلى
صدره ورجائي والدموع تنزق في عيني أن أصوب إليه
بأسرع ما يمكن .

ولم يمض لي خمس حتى وصلت إلى باريس وكان أول
ما فعلته بعد أن مضت غبار السفر عن قلبي أني قصدت إلى
الشاتولييه .

ولم تعني صاحبه حتى رأيت مركبة مرغريت مادمة من ناحية
الكونكورده .

لا شك أنها ابتاعت المركبة والجديد من جديد لأنني وجدت
المركبة كما كانت .. وعرفت السائق .

ومرت بي للمركبة .. ولكنني لم أرتأ المرغريت

ومجأة وقفت المركبة ووقع بعصري على مرغريت وهي
تقترب من مركبتها ومعها فتاة لم أرها من قبل .

ومرت الفتاة على مقربة مني ولاحظت أن مرغريت قد
انقضت وعلت شفتيها **إشاعة عصبية** .

أما لما فقد انتفض قلبي بين صلوحي ولكنني تظاهرت بالهدوء
وقلة الاكتراث إلى أن مضت المركبة بالمرتبدين .

كنت وثقاً من أن هذه المفارقة المحالية قد أدهشتها فهي ولا
شك قد علمت بأنني رحلت ماطمأنات وظنت أنها تغلصت
مني إلى الأبد أتت الآن بعد أن ثابست وجهها لوجه
ولاحظت شحوبي وانفعالي فزها سوف تضرب أحساساً
لأحاسيس وتتأمل من غروحي من المودة ولا يهدأ لها بال في
هذه الحال

لو أنني وجدتها شقية تمسة لأمكن إذاً أن أصعب عنها
ولكنني على العكس فقد وجدتها سعيدة وعليها كل مظاهر النعمة
التي أحققها عليها عاشقها الجديد .

كنا من المستحيل ألا اكتنرت بأمر هذه المرأة ولكنني كنت
واثقاً من أن عدم اكتراثي سوف يضيقها أكثر من أي شيء آخر

في الوجوه . لذلك رأيت من الضروري أن أظاھر بقلة
الاكتراث بس اسمها فقط بل وكذلك أمام جميع الذين
يعرفون الصلة التي كانت بيننا .

*

وهكذا قصدت إلى بيت برودس وعلى شفي اسماء
مصطمة

ودعيت بي الخادمة إلى فاعة الاستقبال وانطلقت إلى بيتها
لتبنيها بقدمي

وبعد انتظار بضیع دقائق أتيت برودس ورافقتني إلى
مخدها . وما كنت أجلس حتى سمعت في الغرفة المداورة وقع
أقدام تتحرك بصوت ثم فتح الباب الخارجي وأدنى بصوت
قلت لبرودس

- ترى هل أزعجك قديمي؟

- كلاً . من الإطلاق لقد كانت مرعيت هنا دائماً وكرب
الخادمة اسمك أسرع بالقرار . ولعلك سمعت وقع خطواتها
وصوت الباب

- وإذا فأنا أخبرها الآن؟

- كلاً . . ولكنها تخشى أن يزعجك مرآها .

- وكيف؟ هذه المسكنة قد هجرتني لتسترد مركبتها وأثرتها
ومجوهراتها . . وقد أحست صعباً . . فليس ثمة ما يستوجب حفي
عليها

ثم استلذت بقلة اكتراث :

- إني قليتها اليوم .

- أين؟

- في الشانرليه . وكنت معها شاء أخري على جانب عظيم
من الجمال . . فمن هي هذه الفتاة؟

- هل تذكر أوصافها؟

- إنها شقراء عظام لها عيان زرقاوان . وترتدي ثوباً
أنيقاً

- آه . . هذه هي لوليميا . . إنها جميلة حقاً .

- مع من تعيش؟

- إنها لا تعيش مع أحد . . وتعيش مع كل إنسان . .

- وبينها؟

- شارع مرونيه رقم ١٠ . هل نرحب أن تخطب ردها؟

- من يعلم ماذا يأتي به الغد؟

- ومرعيت؟

- إذا قلت لك إني لم أجد أفكر بها كنت كادها . ولكني من
أولئك الذين يمشون بالقطيعة والبعضاء إلى أقصى حدودها

إن مرعيت بدني ببساطة سمعتي لشعر بلقي كنت معقلاً حين
أحببتها . . لأنني في الواقع . . كنت أحبها .

- لئد أحببتك أيضاً . ولا زالت تحب . ودليل ذلك أنها ما
كانت تترك اليوم حتى أسرعرت إليّ نقول لي ذلك . ولئد وصلت
إلى هنا . . كانت تلهث وترجع إعياء واقعلاً .

- وماذا قالت لك؟

- قالت لي ألا شك أنه سيأتي لزيارتك . ثم صبت إليّ أن أسألك
الصفح عنها .

- لقد سمعت مقولي لها ذلك إنها لم تعمل إلا ما كان يجب علي أن أتوقعه من فتاة مثلاً ..

- ولكنهم ستكون أهدأ بالأبد علمت أنك تدرك الظروف التي أجأتها إلى ما فعلت

لقد هجرتك في الوقت المناسب يا صديقي فقد علم دلتوما أنها تهم سبع ألباتها بتمس مقول لتقوم على ملاد ديومهم فأنفقوا أن نعلت منهم هذه الصفتة وهرروا طرح الأثاث للبيع بعد يومين .. ولؤصال مندوبهم لشركته بتمس بتمس

- والأذن هل فعلت كل ديونها؟

- تقريباً .

- ومن الذي أهدأ بالمال؟

- الكونت دي - نعم يا عزيزي هناك أناس ولدوا لذلك

وقد أعطاهم الكونت عشرين ألفاً من الفرنكات ولكنه مال لربه

إنه يعلم جيداً بأنها لا تحب ولكن ذلك لم يمنعه من أن يعملها بكرم وسخاء فانتاع لها مركبتها وجيادها ورد إليها حلقتها وهو يعطيها الآن أكثر مما اعتاد الدوق إعطائها ..

- وهل تقيم الآن في باريس بصحة دائمة؟

- لقد رجعت المودة إلى برجيسال وعلبت إلي أن أحرم أنتعتها هناك فعملت وحسرت أنتعتك كذلك وهي هنا كلها فيما عدا حقبة صعبة عليها الحروف الأولى من اسمك فقد رغبت مرهنت في الاحتفاظ بها إنك إذا طلبتها لتسردعها سها ..

فعممت

- لتحتفظ بها كما تشاء ..

وصحبت الدموع من قلبي إلى عيني

ولو دخلت مرهنت في تلك اللحظة انطلقت فكرة الانتقام ولفيت بعنسي تحت قدميها .

قالت برودمس :

- عني أني لم أرها قط كما هي الآن إنها لا تنام على الإطلاق وتسرف في اللهو والعبث والشراب إسرافاً قاتلاً هل في نيتك أن تزورها؟

- وما المائدة؟ إنني جئت ليردك لأنت أكرم علي سها ولاشي عرفتك من أن أرحمها ولك وحدك المصل في أنني كنت عشمي والفضل في أني لم أهد كدك أليس هذا صحيحاً؟
- إنني قد فعلت في آخر كل ما أستطيع لكي أسلمها على إصانك وكت على يقين من أنك ستشكرني في النهاية

وتهمي الحديث يسنا . وانصرفت من بيتها وفي عيني دموع غصب وفي صفري صيحة انتقام ..

هكذا كانت مرهنت بغيًا كاسر البقال

وهكذا لم يفر الحبيب الذي رحمت لي هي مقاومة حبها العربي للثرف والبطح . والتبذل وقصبت الليل كله في التفكير والبحث عن كل وسيلة ممكنة لتعذيب هذه المخنوقة البائسة .

وعلمت أن مرغريت اتحدت بأوليميا صديقة لها منذ عودتها إلى
لاريس ونُهي إليّ أن في بنة هذه الأخيرة أن تقيم في بيتها حملة
واقصة وأقيمت أن مرغريت ستشارك في هذه الحملة فسمحت
للحضور على إحدى بطاقات الدعوة وتكفل معي بالاجاز
وقصدت إلى مكان الحملة وحسري مرشح لعاصفة من
المواطف الغاية ووصلت والحملة في غمواتها فأميت القوم
يرقصون ويحسون ووقع نصري على مرغريت وهي ترائض
التكوت دي ر وهذا الأخير يطر حول في شرور وخيلاء كأنه
يريد أن يقول لكل إنسان
- هله المرأة لي .

ولمحتني مرغريت واضطربت ولكني ابتسمت وحيثها بقلة
اكتراث .
على أنني ما كدت أفكر في أنها لم تعد لي ولها ستصرف
بعد الحملة في صحبة هذا الأحسن العبي حتى صعد الدم إلى
وجهي وتناخت نفسي إلى تمكير هائلها بأنة وسيلة

•
واشتهرت إحدى العرص وتقدمت من صاحبة الحملة لأحييها
كانت فتاة حسنة متبذرة الغاية حميلة التكوين واضحة
الأشوة مرتدي ثوباً يكشف عن كتفها البديعين ويرر تقاطيع
صدرها لمعري تألقها طويلاً . ولم يصح إلا الاعتراف بأنها إذا
لم تفصل مرغريت جمالاً وتكويناً فإنها لا تقل عنها بحال
وبحل مرغريت كانت تشعر بذلك أيضاً فإنها لم تمكث بعصرها
عن صديقها الجديدة وهي تتحدث إليّ وقد لاحظت ذلك ونعتق

دهي في الحال عن أبسط وسيلة للانتظام
لم يكن لأوليميا عشيق في ذلك العهد وكان في استطاعة من
يلوئح لها بالذهب أن يملأ هذه الوظيفة الشاغرة ففروت أن تأخذ
هذه المرأة عشيقاً لي وبدأت بأن دعوتها للرفص معي . وكانت
النتيجة أنه لم تفرض وضع دقائق حتى انصرفت مرغريت من
الرفص . . ووجهها شاحب كوجوه الموتى

الفصل الرابع والعشرون

كانت نتيجة لا بأس بها ولكنها غير شافية .
شعرت سلطاني على هذه المرأة واستخدمته بدالة لإدلائها
وتحضيرها فبمصر لي الله ما حلت عليها من الألم والهم
وبعد العشاء بدأ اندحورون يلعبون الجيسر فجلست بجانب
أوليميا وجلست أقامر بطيش ومعه اكنرات لغنا نظرها إليّ ونكبي
كنت حس الحظ فلم تفسد دقائق حتى رجعت مسألة
وخمس جنيهاً

ثم تصاعف ربحي وتضاعفت خسارة أوليميا ولاحظت أنها
نظر في حشع إلى كومة النقود التي أمامي ثم لاحظت أنها كتف
عن اللعب بعد أن خسرت ما معها ولعله كان كل ما تملك
فأعطيتها بمحض التمرد لتواصل اللعب إلى جانبي

•
وحوالي الساعة الخامسة صباحاً نهض اللاعبون
وانصرفوا فانصرفت معهم وكنت أسير في المؤخرة وأوليميا

تبعنا لنودعها فانتظرت حتى انصرف آخر المدعوين ثم تحوكت
إليها فجأة .. وقلت

- أريد أن أتحدث إليك .

فقالت

- عداً

- كلاً الآن

- ماذا تريد أن تقول؟

- هل خسرت؟

- نعم

- كل ما منكسر؟

فتردّدت

قلت

- نكلّمي وكوبي صادقة صريحة

- نعم

- لقد ربحت ثلاثة جنيه . وسبكون لك هذا المبلغ إذا سمحت

لي بالبقاء معك

ووضعت كومة النقود الذهبية على المائدة ..

قالت

- ولم هذا العرض؟

- لأني والله أحبك ..

- كلاً إنك تحب مرغريت وتريد أن تصبح عشيقتي لثائر

سها

إنك لا تستطيع أن تحذع امرأة مثلي يا صديقي العزيز ولكن
من سوء الحظ أنني لست من الكبير واليشاعة بحيث أقبل هذا الدور
الذي تعرضه عليّ

- هل ترفضين؟

- نعم

- فكّري في الأمر يا عزيزتي أولمينا هذا مبلغ لا يستهان به .
ولو أنني وسّطت بيني وبينك أحد الناس وأرسلت معه هذا المبلغ
لقبلت ما أعرضه عليك ولكني أكره التضامن معك بمسير
وساطة خافلي ولا تسألني عن الأسباب والدوافع ولكني فقط
في أنك جميلة وأنه لا غرله في أن أحبك وأحبك مالا

•

كانت مرغريت غانية كأولمينا ومع ذلك لم يسي لم أكر أجرو
قط على أن أقول لها في لول مقابلة ما كنت بهذه المرأة وذلك
لأنني اكتشمت في مرغريت هوائز تنشر إليها هذه الهدوء وقد
شعرت ولما أعرض عليّ أولمينا هذا العرض بأنني أحضرها وأعمر
سها

•

وقبلت أولمينا الصعقة واتحدثني حشيقاً ولكنني انصرفت
من بيتها في اليوم التالي وأنا لا أذكر كلمة واحدة من كلمات
الحب التي رأت من واجبيها أن تصبها في أدبي لأنها أعيدت
حوضاً

•

ومنذ ذلك اليوم أصبحت مرغريت هدماً لفتني واضطهادي

وقد انقطعت الصلة بينها وبين أولمبيا لأسباب سهو إدراكها
وأصغت في الكناية بمرغريت فأهدت عشيقتي الجديدة مركبة
وجياداً ومجوهرات وتوزعت في المقامرة وغيرها من الحمقات
الحلقة برجل يعشق امرأة مثل أولمبيا .

وانحدعت برودس كما انحدر غيرها ولهمت أني قد سميت
مرغريت سبياتاً كاملاً .

أما مرغريت - ولا أعلم هل سعدت بفورها أو أدركت سرّ هذا
الهوس - فإنها راحت تقابل الإهانة والعدوان بالكبرياء وترفع
ونكي لاحظت أنها تتألم وأنها تردد دحلاً وشحوباً وحزناً

وفي بعض الأحيان كانت إذا طبلني بعد إحدى الإهانات
اللادعة نظرت إليّ متوسلة مستعطفة نظرة لا أملك معها من
الشعور بالحجل والدم غاود لو أنطرح على قدميها وأسألها
الصنيع

ونكي هذا الشعور سرعان ما كان يسمح في السيل لرغبتني
الشهيرة في الانتقام والتشفي .

وظلت أولمبيا أنها تمور بالمريد من رعاي كلما شذت النكير
على مرغريت فراحت تهينها في كل فرصة بإصرار وسفالة المرأة
التي تشعر بتشجيع الرجل

وانتهى الأمر بمرغريت أنها كتّت عن التردد على المسارح والملاهي
والمراقص خوفاً من أن تقتلني بها

ولكني لم أتبع بكل هذا ودهمت أذيع عن مرغريت أبعث
الإشاعات وأوقعها .

والواقع أنني كنت أشبه برجل نمل بشوة الخمر الرديء

وانتهى إلى تلك الحالة من الاعمال والهياج التي تستطيع فيها اليد أن
تترك لية جريمة دون أن يكون للمقل ضلع فيها

وخاضع جوشي ما كنت أرى من هلهو مرغريت وسكيتها
وكبرياتها . . وترفعها . . ودلها . .

وصادف أن جناحي أولمبيا في أحد الأيام وفالت لي إن مرغريت
فانلتني في أحد المراقص وقفا لشهرت فرصة انفرادها وأهانتها

والظاهر أن أولمبيا كانت البدينة بالإهانة والعدوان كالعادة وإن
مرغريت غضبت لكرامتها أخيراً فقبلت الإهانة بالمثل .

ومهما يكن من أمر فقد أصدرت أولمبيا عني أن أكتب إلى
مرغريت رسالة لادعه أطالها فيها احترام المرأة التي أحبها . سواء
أكنت معها لم لم أكن .

وعني من الذكر أنني رحبت بهذا الاقتراح وأودعت رسالتي
كل بقاء وقساوة محكمة

وقد لبست أن اللطمة في هذه المرة أشد من أن تحمّلها العتاة
للسكينة دون أن تقول شيئاً . .

والواقع أنه لم تنفض ساهنتان حتى دق جرس الباب
ودخلت برودس

تظهرت بقلة الكراث وأنا أرخف بها وأسألها عن النافع إلى
ربانها غير استطرة ولكنها كانت شديدة الانزعاج والتأثر على غير
عادتها فقالت لي بلهجة رينة وصوت يضطرب إنني لم
أترك فرصة لإيلاء مرغريت في الأسابيع الثلاثة الأخيرة إلا
وانتهرتها وإن حلاوت الأمل ورسالة اليوم قد أزعجا الفتاة
المسكية طرعت هراشها وإن مرغريت ترجوني الكف من هذه

احملة وتقول إنها لا تقوى صحياً ولا ادياً على احتمال هذا السلوك الشائن بحفظها .

فقلت :

- لقد كان للألمة جوتييه كل الحق في أن تبدي .. ولكني لا أسمع لها بحال أن تهين المرأة التي أحبها .

فقلت برودنس :

- يا صديقي أنت تخضع لتأثير فتاة لا قلب لها ولا ضمير صحيح أنك تحبها ولكن ذلك لا يسوغ لك أن تهين امرأة لا تستطيع الدفاع عن نفسها

- إذا فلتوصل لي صديقها الكونت دي .. وشاهدني

- أنت تعلم أنها لن تعمل هذا فدعها وشأنها يا عزيزي أرشدك إنك لو رأيتها كجئت من سلوكك حيالها !

إنها حيلة شاذة تحمل بشدة إنها من نعيم طويلاً ومدت يدها إليّ وأرعدت :

- تعال وانظر إليها إن بهارتك ستجيب لها السمادة

- إنني لا أنوي مقابلة الكونت دي ..

- إن الكونت لا يهتم معها .. إنها لا تليقه .

- إذا أرادت مرغريت مقابلةتي فلها تعرف مكاني

إليّ إذا شاءت أما أن أظل أضاع نفسي في شارع دانتون وهل تشرق بها وتقبلها يا حسداً ؟

- نعم

- أن واثقة من أنها سأتي

- سأأت يوماً

- هل ستخرج اليوم ؟

- بل سأقضي المساء هنا ..

- سأقول لها ذلك .

وانصرفت ..



ولم أكلّف نفسي هذه الكناية إلى أوليبيها لأثبتها بأنني لن أذهب إليها هذا المساء

ثم خرجت تتناول الطعام وعدت على الأثر وأمرت الخادم بأن يشعل النار في الموقد

ولا أستطيع أن أصف لك المشاعر التي كانت يعتصرني في أصماتي وأنا أنتظر مرغريت فلما دق الجرس في الساعة التاسعة استجالت هذه المشاعر إلى انفعال عيب لم أمدك معه ، لا أن أتمد إلى الجدار لأضع نفسي من السقوط ..

دخلت مرغريت وفصدت إلى عرفة الاستقبال وودعت النظار الرقيق الذي يحجب وجهها .

كانت شديدة الشحوب .

قالت

- هلأنا يا أرومان .. قلت إنك تريد أن تراقبي فجلت ..

وأستندت رأسها بين كفيها .. وانفجرت باكياً

فاقتربت منها وسألتها بصوت يرتجف .

- ماذا بك ؟ !

وخفقها العبرات فصعقت على يدي دون أن تجيب

واستمادت بعض هدوئها بعد قليل .. وقالت :

- لقد ألحقت بي كثيراً من الأذى يا أرماني ولم ألحق بك أذى قط

فأجبت وأنا أبتسم بمراوة

- ثم تلحقي بي أذى؟

فاستدركت :

- إلا ما أُرغمتني عليه الظروف الضاغطة .

•

ولا أعلم هل سررت في حبائك أو سيمر بك على الإحلاق مثل النعمور الذي أحببت به عندما رأيت مرعرت كانت هدب رارتي لأخبر مرأ قد حلت في الدعد باسمه الذي تجلس فيه الآن . .

ومد ذلك المهد نذك كل شيء فأصبحت عشقة رجل آخر وارث شعبي حبري رحيم أحب من شعبيها الكثير ما رانا تمراني ومع ذلك صد شعرت بأني م راب أحب كما أحبها من قبل . . بل وأكثر مما أحببتها . .

•

قالت

استصابتك وبارني يا أرماني لأنني حثت لأسألك شبتين أن تصمح عماً بدر مي اسم معو الأكمة أوليحياء وأن تكف عماً أظن أنك مستعد لمواصلته خدي

مد حوديت إلى ياروس يا أرماني وأنت - بقصد أو غير قصد - تعمل على تجريحي حتى أصبحت لا أقوى على احتمال معشار الألام التي عايشتها حتى الآن فهلاً رحمتني - وهلاً رأيت أن

للمرحال في الحياة رسالة أنبل من العشر بمرأة عابلة حرية مثني ؟؟
إيث يدي مالها إني محبوبة وقد عادت فرائي
وحشتك لا لأتص صداقتك وإنما لأتص إضغابك
وصعقت فتولت يدها -

كانت تحترق وتترجف فحركت مقعدها حتى أدبته من لوقد ثم قلت .

- وهل تمتدحين أني لم أناكم ليلة أن انتظرتك فلم تعودني ومحتت عليك فلم أحد إلا تلك الرسالة التي كادت تفقدني صوابي؟ كيف منطعت أن تخدعيني يا مرعرت أن الذي أحببت كما لم يحب الرجل المرأة من قبل ؟

- لا تتحدث من هذا يا أرماني إني ما جئت لأحدث عن هذا الموضوع إنما جئت لكي أشد على يدك للمرة الأخيرة إن بك عشيقه شابة حباً يقال إنك تحبها فكفر سمياً معها . . ولتني -

- وأنت . . إنك سعيدة بغير شك؟

- هل يبدو علي أنني سعيدة يا أرماني ؟؟ بالله لا تسخر من آلامي وحزني !

- إذا لم تكوني سعيدة فإن الحب في ذلك ذنب وحيدك - كلاً يا صديقي إن الظروف كانت أقوى من إرادتي فلم أحصل بوحى شعوري كاملاً مستهجرة . وإنما حدثت بوحى ظروف سوف تعرفها في أحد الأيام وسوف تعرف لي متى عرفتها - ما هي هذه الظروف ولماذا لا تحدثنني بها الآن ؟؟

- لأن ذلك لا يمكن أن يرد علينا سعدنا المتعبة وورعا يفرق
بينك وبين أشخاص ينبغي ألا تفرق عنهم

- من هم أولئك الأشخاص ؟

- لا أستطيع أن أذكرهم لك الآن .

- إننا قللت تكديرا

فهذه واقعة . . وسارت نحو الباب .

كان من المستحيل أن أشهد هذا الحزن اللعيب الصامت دون أن
أناثر فأسرعت إليها ووقفت بينها وبين الباب وسمعت

- لمن تذهبي .

- لماذا ؟

- لأنني مارلت أحبك رغم كل ما مرط منك وسأنتيت هنا

- لكني تطردني فدا ؟ كلاً . هذا مستحيل لقد انقطعت
أسباب ديباي من أسباب ديباك وافتقرت مصالري فإذا حاولت
أن أجمع بين فقد تحطرتي أم الآن . منك لا تستطيع فقط إلا
أن تكرمي .

- كلاً يا مرعيت كلاً سأنسى كل شيء . وستتم معاً
بالمعاودة التي وعدنا بها أنفسنا .

فهزت رأسها في ارتياب ولكنها أجابت :

- أنت أطوع بك من العبد ؟ أنت أطوع لك من الكلب ؟

أفعل بي ما شئت فلئنني لك

وخلعت قبحتها ومعطفها . . وأخذت تحمل ثوبها

وفي هذه اللحظة انشأتها بعملة حادة جافة فوضعت يديها

على فمها . واستطردت :

- فن السائق أن يعود بالركبة

فانطلقت لإتمام أوامرها . ولما عدت وجدها عدة أمام امرؤ
وهي ترجف . وأسنانها تصطك . فترعت ثيابها عنها وحملتها إلى
المراسي وودعت الحرارة إلى يديها بقبلائي .

•

كانت ليلة غريبة أفرحت فيها مرعيت كل حياتها في فترات
وملكتي بها بشوة حببت إلي أن أقتلها حتى لا يمكنها سواي من بعد .
وصحوت عند الفجر فوجدت مرعيت شديدة شحوب
والدموع تحدر من عينيها في سكود وستر عني وجسها كحجاب
الناس

قلت لها في همس :

- هل تلعب يا مرعيت ؟ هل يرحب ياروس ؟

فلجبت في فرع

- كلاً كلاً . ذلك يعجب عليا شفاء لا يعنصر إنني لا
أعدك بالمعاودة . ولكنني أعدك بأن أظل أطوع برعباتك من الكلب
الأمير ظلما في جسدي شريان يمشي

فلذا رعبت في . هي أية ساعة من ساعات الليل والنهار
وجدني تحت قدميك ولكن لا تصل مستقبك بمستقبلي ولا
تعود مصيرك بمصيري . ولأجلت لعمك الشفاء . وجبت لي
الفتنة

إنني مارلت . وسأظل بعض الوقت على شيء من
الاحمال فأفد من جمالي ما استطعت . ولكن لا تسألني بالله أكثر
من ذلك .

•

ولمّا أصبحت . شعرت بالمراع الذي تركته في قلبي وكنتي
وانقضت ساعات بعد انصرافها وأنا لا أزال أتأمل الفراش الذي
تركته فيه طابع جسدها . وأشعر بقلبي نهياً مورعاً بين الحب
والغيرة

وفي الساعة الخامسة كنت في شارع دلتا دون أن أشعر
طوقت الباب . . ففتحت لثني .

قالت لي لورينا :

.. إن ميلتي لا تستطيع أن تستقبلك
.. لماذا ؟

.. لأن الكونت دي . . هـ . . وقد أمرني بالآأأأأ لأأأ
بالدخول .

لمصمت

.. هذا صحيح . . لقد سمعت .

وعدت إلى منزلي وأنا أترج كاثمل .

فهل تعرف ماذا فعلت ؟

قلت لبعسي إن هذه المرأة تسحرني . وأنها تهمني الآن في
أذن الكونت الكلمات معها التي سمعتها بها بالأسر
ثم تناولت ورقة مالية ذات خمسمائة فرنك . وولسرتها إليها مع
هذه الكلمات .

لقد عجبك بالانصراف هذا الصباح فأنستي العجلة أن أشدك
أجرك .

وفي مساء جامي أحد المعلمين برسالة فضضتها ولم

أجد بها سوى الورقة المالية ذات الخمسمائة فرنك .
سألت العلام :

.. من أعطاك هذه الرسالة ؟

فأجاب :

.. سيدة كنت تهتم بالسر . . وقد أمرني أن أحملها إليك بعد أن
يتحرك القطار . .

فهرولت إلى بيت مرغريت . . وأجابني البواب :

.. رحلت إلى إنجلترا في الساعة السادسة . .

وهكذا لم يبق حب أو بعض يفرقي بالفاء في باريس
وكأن أحد أصدقائي يتأهب لرحلة طويلة في الشرق . فاستأذنت
لبي في مرافقته فأذن لي .

وحدث عندما وصلنا إلى الإسكندرية أنني صادقت هناك موطعاً
بالسمارة المرسية . كنت قد قابلته مراراً في بيت مرغريت
فأنبأني بمريض هذه الفتاة المسكية

وأنت تعرف ما حدث بعد ذلك . . ولا ينقصك إلا أن تقرأ هذه
المصحف التي تنازلتها من جول ديبار . فيها خاتمة هذه المأساة .

الفصل الخامس والعشرون

تعب أرمي من الكلام فوضع يديه حول رأسه وأحضر
هـ . . إن لم يكن وأنا لينتس اليوم

وبعد بصع دقائق لاحظت أن أنفاسه تسرعت طه وانتظام
فأدركت أنه أغشى وتناولت الصفحات التي دفع بها إلي
وقرأت فيها ما يلي .

الحسن اليوم في الخامس عشر من شهر كانون الأول / ديسمبر
« كنت أتألم في الأيام الأخيرة ، فلمت فراشي ، واجبو مكهر ،
وأنا حرة ، ولا أحد يجهاني .. »

إنني أفكر حيث يا أرماس . ولنت أين كنت في الساعة التي
أكتب فيها هذه السطور ؟

إنك بعيد عن باريس بعيد جداً كما قيل لي . وربما قد
سبت صاحبك مرعيت فكيف سميلاً يا صديقي . يا من أدين
له بالملاحظات القليلة التي سمعت بها في حياتي .

إني لم أستطع كبح رغستي في أن أقدم إليك إيضاحاً من
سلوكي . وقد كتبت إليك رسالة ولكن الرسالة التي نكتها غفلة
منني قد تعتبر كذبة ما لم يدعمها الموت بطابع الصدق . فصيح
اعترافاً لا رسالة ..

إنني اليوم مريضه . وقد أموت بهذا المرض . فقال حدثني
عليه بأنني سأموت في غضون السبب . وقد ماتت أمي بالسل
الروني . وطبيعة حياتي كان شأنها أن تنجح هذا اللقاء . وهو
الإرث الوحيد الذي ورثته عنها ..

ولكني لا أريد أن أموت قبل أن تصحح رأيك في . وأحملك
نصدر علي حكماً صادقاً . إننا صبح وكنت لا تزال تفكر في الماء
المسكينة التي أحببتك قبل رحيلك .

أنت تذكر يا أرماس . كيف كان قدوم أبيك مفاجأة لنا . وتذكر

الرحمة الغريزي الذي استولى علي يومئذ . وما كان بينك وبينه في
المقابلة الأولى ..

عصبي اليوم التالي . بينما كنت أنت في باريس تبحث عن
أبيك . حامي رجل . وقدم إلي رسالة من السيد ديفال

وفي هذه الرسالة . وأنت ليجدها ها . توسل إلي أبوك بدهجة
جديدة أن أقصيك من امرئ في اليوم التالي بأي عدد ممكن . وأن
استقبله . لأنه يريد أن يتحدث إلي ..

ولعلك تذكر كيف ألحمت عليك أن ترحل إلى باريس في اليوم
التالي .

ولم تقض ساعة بعد رحيلك . حتى جاء أبوك . ولا أحدثك
عن الأثر الذي تركه هبوسة ونجمه في نفسي

كان أبوك مشغولاً بالنظريات المتينة التي تقول بأن العالمة مخلوقة
لا قلب لها ولا عقل . وأنها سرع من لاكات التي تشتري
بالذهب . وأنها كالكالات الحديدية . قد تمزج اليد التي تقدم
الوقود . وتهلك بعير شقيقة أو رحمة الصانع الذي يجعلها تعيش
وعمل

كانت الرسالة التي كتبها إلي تطوي على الاحترام . أما مقابله
فكانت غير ذلك .

كان مرتفع الراس متعرج الأوداج مهبطاً متوقفاً ما
حلمني على أن أذكره بأنني في بيتي . وأنه ليس هناك ما يزعجني
على أن أقدم له حساباً عن حياتي . وأني لم أستقبله إلا بدافع
حبي وإخلاصي لولده

وعندئذ هدأت ثورته قليلاً . ثم قال إنه لن يسمح لولده بعد

الآن بأن يورد معه موارد الخراب والدمار من أجلي وإني فاتية
حقاً ونكس يعني ألا أتحصد من فتني معولاً لهدم مشغل أحد
الشبان بإغرائه على تدبير ما يملك وما لا يملك في سيلي

ونم يكن لدي إلا رد واحد ولا شك أنك توافقي عليه
وذلك هو أن أبزر الأدلة على أنني لم أذخر أية تصحية مهما
عصمت في سبيل أن أبقى مخلصه لك دون أن أحملك من
النفقات أكثر مما تستطيع

وأبررت له وثائق البيع والرهن وقلت له أنني الذي أبيع أثني
كله لأسند دهرني وأعيش معك دون أن أكون عبثاً ثقلاً عليك
وحسنه عن معاشنا وآمالنا وانتهى به الأمر إلى الاقتناع
بسط إلي يده رسالي المصدرة على حلفه وقسوته
ثم قال :

- ما دام ذلك كذلك يا سيدي منسي لا أستعير بالتهديد
بل أسعين بالضرورة لألتصم منك تصحية أعظم من كل تصحية
أخرى يلتفتها في سبيل ولدي ،
فارتفعت ..

واقترب أوك مني وتناول يدي واستطرد بلهجه رقيقة
- لا يحرملك ما سوف أقول يا بيتي وأهمني فقط في الحياة
في بعض الأحيان ضرورتها القاسية على القلب ولكنها ضرورات
لا بد من الخضوع لها والتسليم بها

إنك فتاة طيبة وهي قديمك من المواظب الكريمة ما لا تعرفه
الكثيرات من النساء اللاتي ربما يحتقرنك لأنهن لا يعرفن
تحياتك ولكن فكري في أنه إلى جانب الحب توجد

الواجبات وأنه بعد ثورة الشباب يأتي الوقت الذي يتعين فيه
على الرجل لكي يكون محترماً أن يتربع في مركز خطير .

وولدي لا يملك ثروة تذكر وعلى ذلك فإنه على استعداد
بسرور لك من الإرث الذي حلفته له أمه فإذا هو قبل التصحيات
التي توشك على الإقدام عليها من أجله أصبح من وجه كرجل
يعرف الشرف والكرامة أن يقابل التصحية بمثله ويرى لك من
القليل الذي يملكه لبيك في استقبال شر الحاجة الملحة

ولكنه لا يستطيع أن يقبل تصحياتك لأن الناس الذين لا
يعرفون يردون هذا القبول إلى أفراد غير شريفة يجب ألا تلوث
الاسم الذي تحصله .

ولي يسأل الناس هل يحبك أرماني وهل تحبه وهل في
هذا الحب معاقبة وعودتك إلى سواء السبيل ونكهم سهرين
فقط أن أرماني فقال قد رضي بأن تبيع إحدى العانيات - ومصدرة إذا
استخدمت هذه الكلمة مما أبعي غير المصراحة - سيرى الناس فقط
أن أرماني فقال قد رضي بأن تبيع إحدى العانيات كل ما يملك من
أجله

ثم لا بد أن يأتي بعد ذلك يوم الندم فتشعاب معاً . وتشعرا
معاً بأنكم معلولان بسلسلة من حديد لا تستطيعان مصمها
وعندها صافا مصمها^{١٩} تكويين أنت قد مقيتت جمالك ويكون
ولدي قد فقد مستقبله وأكون أنا - أبوه - قد فقدت مصم
المعطف الذي رجوته من ولدي في شيخوختي ..

إنك في مقتل العمر وعلى جانب كبير من الفتنة ولا شك
أنك ستجدين المرأة والساووي وستكفريين بهذا العمل الكرم

من بعض ذنوب الماضي

إن أرماد قد سبى مد هرفت وقد كتبت إليه أربع رسائل
للم يكثر في الرد علي ولو اخترت الموت ما علم بذلك
ومهما يكن غرمكم على الحياة معاً فإن أرماد الذي يحبك لن
يحقيق العزلة التي تحشمها عليك فنه تروته ومن يعلم ماذا يفعل
عندئذ؟

لقد تورط في المقامرة - كما علمت - دون أن يقول لك - وأنا
وائق من ذلك ..

ولكن هي أنه تورط في المقامرة في ساعة جنون .. ثم تورط في
الدين واصطرمي أن أقعد شرفه بتضحية أمان الذي ادخرته ليكون
مهراً لأخته وملاًداً لي في شيوختي فماد يحدث عندئذ؟
ثم هل أنت واثقة من أن الحياة التي هجرتها من أجله لن تعيدك
إليها مرة أخرى؟

هل أنت واثقة من أنك لن تتعدي من غونه عاشقاً آخر؟

فكثري في كل هذا يا سيدي ..

إنك تحب أرماد صبري على ذلك بالوسيلة الوحيدة التي
بقيت لك الآن برهي على ذلك بتضحية هرامك لمثله
إن الصلة بيكما لم تنصر عن شر أو أدى حتى الآن ولكنها
تسهر ههما حتماً في المستقبل وقد يحدث أهول مما أتوقع
قد يمار أرماد في أحد الأيام من رجل يحث ببلوره ويقتل
وعندئذ كم سيؤلك منظر أبيه عندما يملك حداً عن حياة ولده؟
إنني لم أذكر لك كل شيء يا سيدي ولكنك يجب أن تعلمي
كل شيء ..

إن لي أبة .. وهي صفة حسنة .. طاهرة كاللائكة ..

وابتي تحب وهي كذلك قد وضعت في الحب كل آمالها
وأحلامها إنني كتبت لأرماد من كل هذا ولكنه كان قد شغل
بك من كل شيء آخر

صغرة القول إن ابتي توشك أن تنسج بالشاب الذي تحبه
وهذا الشاب يتسبي إلى أسرته شريعة بيلة تتوقع أن ترى في أسرته
كل شرف .. وبيل ..

وقد وصل إلى سمع الشاب وأسرته ما الحياة التي يحبها أرماد
في باريس فصرخوا بأنهم سيضطرون إلى العدول عن هذه
الروح إذا اسمر أرماد على هذه الحال فبين ينيك إذا مستقر
صبيه لم تلحق بك أدى ولها كل الحق في أن تطمع في السعادة
فهل من حقت وهل تعبدن في مقدورك أن تقترضي هذه
العادة؟

أستحسبك بحدك وبوئيك يا مرغريت أن تمحي ابتي سعادتها

•

أصغيت إليه يا صديقي وبيكت في صمت وما رت أبكي
كلما طافت بأذهني هذه الكلمات
بل لقد قلبت نفسي ما تردد أبوك في أن يقوله لي وما قرأته
على شفعية عشرين مرة

قلت نفسي فماذا أولاً وأخيراً يا سيدي ومهما فعلت وسيظل
عرامي يبسر ثوب الطمع وسيظل ماضياً يكره علي كل حق في
مخيل شريف سعيد ..

•

كانت لهجة أليك ومشاغره السيلة وما يتظري من تقديره أولاً
وتقديره أخيراً كل ذلك حرك في أعصابي عواطف لا عهد لي
بها . . جعلتني أرتفع في نظر نفسي .

وعندما تذكرت أن هذا الشيخ البيل الذي جاسي ضارعا من
أجل مسخيل ابنته سوف يطل إلى ابنته في أحد الأيام أن
تذكرني في صلواتها هانت علي سعادتي وهناك علي هنائي
وطرا علي تحوّل جعلني أضحك بنفسي
قلت لأليك وأنا أجهف دموعي :

- حسناً يا سيدي . . هل تعتقد بأنني أحب أليك ؟

- نعم .

- هل تعتقد بأنني حملت من هذا الحب أمل حياتي .
وحلمها . وكفارتها ؟

- اعتقد ذلك

- إذا قبلني يا سيدي كما تقبل أبتك وأنفس لك أن هذه
القبلة . . وهي القبلة الطاهرة الوحيدة التي تلفتها سوف نشد
عربي على قهر حبي وللي ينقصي أسرع حتى يعود إليك ولذلك
وقد شفي من غرامه إلى الأبد .

فقال وهو يقبل جيسي

- بك هذه قبلة . . وسبجربك الله حتماً تصعب . . أمّا ولدي .

فأخشي ألا تنالي منه جراً

- اطمئن يا سيدي . . فإنه سوف يحقني .

وكان لا بد أن أضيق بيني وبينك حادجراً مانعاً لكلينا فكنت

إلى بروفس أتول لها إني قبست ما يعرضه عليّ الكونت دي -
وإني سأتناول طعام العشاء معها . .

والصفت خلافاً الرسالة وقدمتها إلى أليك دون أن أذكر له
مضمونها ورجوته أن يسلّمها إلى صاحبها في باريس
على أنه سألني عن مضمونها فأجبت
- إنها تتضمن سعادة ولدك .

فقبلني مرة أخرى وشمرت بدمعني وفاء تتساقطان على
جسبي وحيل إليّ أن هاتين الدمعتين قد غسلتا ما عرط من ذنوبي
وخطاياي . .

■

وانصرف السيد ديفال في مركبته . .

أمّا لما هبسي امرأة على كل حال ولست رأيتك دم أهلك من
البكاء . . ولكنني لم أتحول عن عزمي

هل أصبحت يا ترى ؟

ذلك ما أسألك عنه نفسي الآن وأن مرعبة طريقه فرائض قد لا
أبرحه وأنا على قيد الحياة . .

إنك شاهد عدل على ما كنت أقاسي عندما كنت ساحة الفراق
ولم يكن ولذلك مما لك يشفه صرعتي وقد كدت مراراً بدافع
الخوف من غضبك واحتقارك أن أعترف لك بكل شيء ولكن
الله عصبي وشدني صرعتي فكان ذلك دليلاً على أنه قبل
تضحيتي

ولما قابلت الكونت في المساء لم أجسر على التفكير فيما أنا
مقدمة عليه خوفاً من أن تحوسني شجاعتني من ذا الذي كان

يتوقع هذا؟؟ من ذا الذي كان يتوقع أن يوماً سيأتي تشعر فيه
مرغبت جوثيه بأشد الألم إذا اتحدت معها عشيقاً جديداً؟

وأسرفت في الشراب لكي أنسى .. ولما استيقظت في
الصباح .. وجدتني مع الكونت .

تلك هي الحقيقة يا صديقي فأصدر حكمك عليّ وأغفرني
كما عرفت لك إسعادك إليّ منذ ذلك اليوم

•

وأنت تعلم ما حدث بعد ذلك شيء واحد لا يعلمه .. هو
أنني قاسيت كثيراً منذ انفرقا .

وقد علمت أن أبائك ذهب بك .. ولكني أرثيت كثيراً في أنك
تستطيع الحياة بعيداً عني .. ولما قبلتك في الشارليريه بعد
ذلك استولى عني الانزعاج ولكني لم أدهش

ثم بدأت سلسلة الأيام التي حمل إليّ كل واحد منها إهانة
جديدة منك .. وبكفي كنت أرحب بتلك الإهانات ليس فقط
لأنني وجدت فيها الدليل على حبك .. وإنما كذلك لأنه حبل إليّ
أنك كلما أسرفت في اصطهادي كلما ارددت سمواً في معرك
عندما تعرف الحقيقة كلها

فلا يدعشك هذا لاستشهاد المرح يا أرمان .. فإن حبك فتح
قنبي لأنواع من المعاطف اللينة لم يكن بي بها عهد من قبل

ولا شك أن برودس قد حدثك كيف وجدت من الضروري
لي أن أستمع على حباتي المدهنة بالإسراف في الشراب والدهو
والمش .. لكي أنسى .. ولكيلا أفس ..

كنت أرحم بهذا الإسراف أن أقول نفسي بسرعة .. وأعتقد أن

رغبتني مستحقق عما قريب .. فقد ساءت صحتي كثيراً .. ويوم
أرست إليّ برودس في طلب الصبح .. كنت مهوكة القوي
جسدياً وعقلياً .

ولست أدرك يا أرمان كيف كانني عني آخر دليل من أدلة
الحب قدمنه إليك .. ووسط ثمة مضيعة أخرجت من باريس المرأة
التي لم تستطع .. حتى وهي مختصر .. أن تصم أذنيها عن بدائك

أنت طاعتها ببيلة حرام .. فقلت في جبرها أنها تستطيع أن تص
الفاضي بالحاضر .. ثم ما لبثت أن عدت إلى حطتها

وقد كنت أنت على حق فيما فعلت بعد ذلك .. ولكن ليالي سم
تكن دائماً غالية الثمن هكذا يا أرمان؟؟

•

إنني سررت إذاً من باريس .. وبركت كل شيء .. فاحتجت
أوليمبيا مكاني عند الكونت دي وفيل بي فيما بعد إنها
تعضلت فذكرت له أسباب رحلي

أنا أنا فإني رحلت إلى لندن .. حيث يوجد الكونت دي ج
وهو من أولئك السادة العظام الذين يمتحون له فربهم من ركن
واحد وجيوبهم من جميع الأركان .. وقد رحب بي ولكنه كان
عشيق امرأة ذات مكانة في المجتمع هناك .. فأشعق أن يزلنا الناس
معاً .. وفنسي إلى بعض أصدقائه .. وهؤلاء هموني لتناول طعام
العشاء .. ثم اصطحي أحدهم إلى منزله .. ما كان في استطاعتي
أن أفعل غير هذا يا صديقي؟

هل أقول نفسي؟

إنني لم أفعل ذلك حتى لا أحمل ضميرك وور انتصاري

وبعد لماذا يتحضر الإنسان وهو يرى نفسه أدنى ما يكون إلى الموت؟

وهكذا تدرجت إلى الحالة التي يصبح فيها الإنسان جسداً بلا روح وهيكل بلا عقل أو وجدان . وبقيت كذلك فترة من الوقت ثم عدت إلى باريس وسألت عنك فقبل لي إنك ذهبت في رحلة طويلة

وبرحيلك لم يبق لي ما يحكي من الانحدار فعدت إلى الحياة التي كنت أحيها قبل أن أعرفك وحاولت أن أحتدب الدوق ولكنه أبى أن يسي أو يصطحب ودلت شاة الشيوخ جميعاً فإنهم أصبح الناس صديراً وأقلهم صبراً ولعن ذلك لأنهم يشعرون أكثر عما يشعر غيرهم بأنهم ليسوا خالدين

واستد بي امرئ وواد شجوي وبحولي وحري ولعلت نعلم أن أوتشد الذين يشعرون الحب بمحصول الصراحة قل لاحتبار وهي باريس ساء أقوى مني جسداً وأصح سداً وأشد حرجاً . فلا عجب إذا تركت في زوايا النيران ذلك هو الماضي

أما الآن فسي طريحة الفراش وقد كنت إلى الدوق أسأله بعوداً لأني لا أملك شيئاً والدانول لا يكفون عن إزعاجي فتري هل يجيني الدوق؟

لماذا أنت لست في باريس يا أرماد؟ لكي ترورني وترقه عني

٢٠ كانون الأول/ ديسمبر

اجو مغيث . . وأنا وحيدة في المنزل

سيد ثلاثة أيام . وأخفى تهب جسدي ونعمي من الكتابة إليك

ولكن لا جفيدة يا صديقي .

وهي كل يوم أنتظر رساله منك ولكن دون جدوى فما أقدر الرجال على عدم الصنع!

ثم اتسلم رفاً من الدوق وقد عادت برودس إلى روحاتها وغدواتها بين المنزل وحوادث الزهون

أما أنا فسي ما رلت أنت دعاً وسيؤت أن تراني

إنك سعيد لحظ يا صديقي لأنك تعيش في جو دافئ وليس هناك شاة ملج يروح فوق صورك

نعد بهمت فديلاً وظفرت من الدافئة ورايت باريس المنعركة الشيطنة التي انعم رأيي انتزعت منها انفراداً ووقع بصري على أناس أعرفهم مرأيتهم يهرون بباهي فخرين مسرعين معطرين ولكن أحداً منهم لم يرفع عينه إلى نافذتي إنني مرصت من الآن ولم تكن تعصمني ولكنك كنت تستعصر عني كل يوم

وهأنذا مرصنة بعد أن نظمت معاً ستة شهور أحييت في خلالها حباً لم سطو عليه جوانح امرأة فني وهأنذا بعيد عني لا تبعث إلي ولو بكلمة عزاء

٢٥ كانون الأول/ ديسمبر :

حظر عليّ الطبيب أن أكتب كل يوم والواقع أن دكراتي تضاعف الحمى . .

ولكني سلّمت امر رسالة أتعشني مادياً بما تضمنت وحباً بما جعلت .

وقد جاءني الرسالة من أليك .. وإليك مضمونها :
سيدتي :

علمت الآن أنك مريضة .. ولو كنت في باريس لاستعسرت عليك
بنفسي .. ولو كان ولدي على مقربة مني لأتته عني .. فاسمحي
لي يا سيدتي أن أكتب إليك معبراً عن ألي لمريضك .. وأملني في
شفائك ..

سيذهب صديقي الحبيب السيد (ها) إلى منزلك .. فتفضلني
بمقابله .. فقد أوفدته إليك في مهمة أنظر نتيجتها بفروغ صبر ..

تلك هي رسالة أليك ..

إن أباك رجل نبيل الخلق .. كبير القلب .. فاحبه كثيراً يا
أرمان .. فما أقل الرجال الجديرين بالحب في هذا العالم !!
وقد جاء السيد (ها) هذا الصباح .. وقدم لي باسم أليك خمسة
آلاف فرنك .. فأردت أولاً أن أرفضها .. ولكنه أقنعني أن هذا
الرفض سوف يؤلم السيد ديفال .. الذي قلعه بأن يمدني من المال
بالقدر الذي أريد ..

وقد قبلت هذا المبلغ .. الذي لا يعتبر من أليك على سبيل
الإحسان ..

فلذا مت قبل هزتك يا أرمان .. فدع أباك يقرأ ما كتبتك عنه ..
وقل له إن الفتاة التمس التي كتبت هذه السطور .. قد انتهت إلى
الله من أجله .. وخرقت عيناها دموع الشكر والوفاء وهي تكتبها ..

2 كانون الثاني / يناير :

قضيت بضعة أيام مؤلمة .. ولم أعلم الآن أن الجسم يستطيع أن

يحمل كل هذه الآلام ..

لقد أصبحت كبرتني قسمة عادلة بين الحمى .. وهذا السعال
القيء ..

لقد امتلأت غرفتي بالخلوي والهدايا المختلفة التي حملها إلي
أصدقائي .. وبين هؤلاء طائفة من الشباب يرجون بغير شك أن
أصبح عشيقتهم فيما بعد .. ولو أبصروا ماذا فعل المرض بي لولوا
الأدبار فرعاً مني ..

8 كانون الثاني / يناير :

لو عرض الآن للبيع هذا الجسم الذي كان في وقت ما آمن من
كثرة .. فترى كم يساوي ؟
لا بد أننا ارتكينا كثيراً من الآثام قبل أن نولد .. أو أننا سنلهم
بالكثير من السعادة بعد أن نموت .. وألا ما احتوت الحياة كل هذا
العذاب وهذه الآلام ..

12 كانون الثاني / يناير :

ما زلت أألم وأتألم ..
وقد أرسل إلي الكونت دي ن .. مبلغاً من المال أمس ولكنني لم
أقبله ..

إنني لا أريد شيئاً من هذا الرجل .. فهو السبب في أنك لست
الآن بجاني ..

لواء .. ما كان أسعد الأيام التي قضيتها في «بوجيفال» !! أين
هي تلك الأيام .. ؟

إذا قدر لي أن أهرج فراشي على قيد الحياة .. فسأجئ إلى البيت

الذي أقمنا فيه معاً .. وأبقى هناك حتى أموت .

٢٥ كانون الثاني / يناير :

لم يغمض لي جفن منذ إحدى عشرة ليلة ..
إنني أختنق وأناضل في سبيل تشق الهواء ..
ويخيل إلي في كل لحظة أنني ساموت ..

وقد حطر علي الطبيب لأن لس القلم .. ولكن جوليا هيأتني
تسهر عليّ قد سمحت لي بأن أكتب هذه السطور القلائل .
أفلا تأتي قبل أن أموت .

هل انتهت حقاً كل شيء يتنا ؟

يخيل إلي أنك إذا جئت فإني أيرا من سقي .. ولكن لماذا
أطلب الشفاء .. ولأية غاية ؟

٢٨ كانون الثاني / يناير :

أيقظتني اليوم ضجة شديدة .. وسمعت في الغرفة المجاورة
أصوات رجال عديدين .. وصوت جوليا وهو يحاول أن يرتفع على
تلك الأصوات .

ثم أكلت جوليا وهي تبكي .

قالت إن الدائنين يريدون توقيع الحجز على الأثاث .. فأجبتها بأن
الحق يجب أن يأخذ مجراه .

ودخل المحضر غرقتي وقبعته في يده .. وفتح جميع الأدراج ..
روضع قائمة بما وجد . وأحمد الله على أن رحمة القانون قد أحفت
قراشي من الحجز فلم يسجله المحضر في القائمة .

وتفضل المحضر فقال لي إنني أستطيع الاعتراض على الحجز خلال

أسرع . ثم ترك أحد الدائنين لحراسة الأثاث . وانصرف .

فيا إلهي .. ماذا سيكون من أمري !!

٣٠ كانون الثاني / يناير :

تسلمت اليوم رسالتك .. وكنت في أشد الحاجة إليها .. ولكن
ترى هل يصلك الرد في الوقت المناسب ؟ !

إن سعادتني اليوم قد أنستني ما قاميت في الأسابيع الستة
الآخيرة .. حتى إنني بدأت أطمع في الشفاء .. وأطمع في أن
أرقد .. وأطمع في أن أرى الربيع مرة أخرى .

١ شباط / فبراير :

لقد عاد الكوت دي ج . وهو حزين .. لأن عشيقته غدته .
ولكن حزنه لم يمتعه من سداد ديني وصرف الدائن الذي بقي
لحراسة الأثاث .. وقد حدثك عنك .. ووجد بأن يحدثك علي .

وأمر .. أرسل الدوق يستفسر عني .. ثم جاء اليوم
الزباني .. ولا أفهم ما الذي يبقى هذا الرجل على قيد الحياة .

لقد قضى بالقرب مني ثلاث ساعات ولم يطلق بأكثر من عشرين
كلمة .. ولكنه بكى عندما رأى شعوي وهزالي .. ولا شك أنه
تذكر بهته .. فكأنه رأها تموت مرتين .

ولم يقل لي كلمة عتب .. حتى تخيل إلي أنه شعر بالارتياح حين
رأى العلة تقني جسدي .. وتخصد شيايي .. وشعر بالكبرياء لأنه
صحيح رغم شجوعته .. وأنا أموت رغم شيايي .

نعم يا صديقي .. إنني أدنو من الموت .. ولست أندم على شيء
كما أندم على أنني أصحيت إلى إليك ونزلت على إرادته .

ولو علمت أنني لن أعيش أكثر من عام .. لما سمحت لأية قوة
أن تحول بيني وبين قضاء هذا العام في أحضانك .. حتى إذا مت ..
وجدت صديقاً أضع يدي في يده ..
ولكن تلك هي إرادة الله .

١٥ شباط / فبراير :

شعرت أمس بانطلاق شديد .. ووددت لو أنقضي المساء في أي
مكان إلا في هذا البيت ..
واليوم قد جاء الدوق لزيارتي .. فخليل إليّ عندما رأيت هذا
الشيخ الذي غفل عنه الموت أن مرآة يديني من الموت ؟
وبالرغم من الحمى .. التي تلهب جسدي .. قد طلبت إلى
جوليا أن تذهب بي إلى مسرح «الموديل» فلبستي ثيابي ..
وصبغت وجهي وشغني لكيلا أبدو كجثة أفكت من القبر ..
واجلسني في المقصورة التي التقينا فيها لأول مرة .. ولم أحول
بصري طول الوقت عن المقعد الذي تعودت أن أجلس فيه ..
وأخيراً حملت إلى البيت ولنا بين الموت والحياة ..

وفيما يلي رسائل جوليا فيار :

١٨ شباط / فبراير :

السيد أرمان ..

منذ ذهبت مرغريت إلى المسرح .. وهي تثيب بجثة لا حراك
فيها .. وقد احبست صورتها .. وشلت أعضاؤها .. ومن المستحيل أن
أصف لك ما تعانيه هذه الفتاة للسكينة ..
وهي تهذي دائماً .. ولكنها في صحتها أو عقليتها لا ترد غير
اسمك .

وقد أقد الطبيب أنها لن تعيش طويلاً .. وكفى الدوق عن
السؤال عنها .. وامتنعت برودنس عن زيارتها بعد أن وجدت أنها لا
تستطيع أن تقيد منها .

كل إنسان قد عجزها .. حتى الكونت دي ج .. فإنه اضطر إلى
أن يرحل إلى لندن .. ولكنه ترك لها بعض المال قبل رحيله .

لقد فعل هذا الرجل الكريم من أجلها كل ما يستطيع .. ولكن
ذلك لم يمنع بعض الدائنين من توقيع الحجز على أثاثها مرة
أخرى .. وهم الآن ينتظرون موتها بفروغ صبر لكي يبيعوا الأثاث .
إليك لا تستطيع أن تتصور التعاسة الشديدة التي تحيط بهذه الفتاة
المسكينة وهي على فراش الموت .

وهي لا تزال تشعر بما يقع حولها .. ودموعها المندرة تنحدر
بطء وسكون على وجهها الشاحب الهزيل .. الذي لو رأيته الآن ما
عرفت فيه الوجه الجميل الساحر الذي ظالماً أحبيته .

وقد استخلفتني أن أواصل الكتابة إليك عندما يمتصها الضمف ..
وما هي الآن تنظر إليّ ولكنها لا تستطيع أن ترائي .. فقد غشيت
عينيها سحابة الموت .

١٩ شباط / فبراير (متصف الليل) ..

هذا يوم محزون يا سيد أرمان .. فقد تعذر على مرغريت أن
تلتقط أنفاسها .. ونصح لها الطبيب أن تستخدم أحد القفس لكي
تعترف بين يديه .. وتقبل الفقران .

ودعيتي مرغريت إليها .. وطلبت إليّ أن أفتح خزانة الثياب .. ثم
أشارت إليّ ثوب أبيض بسيط .. وقيمة مريضة وقالت :
- إني سأموت بعد أن أعترف للقفس بخطاياي .. قضى مت ..

فالبسني هذا الثوب .. وهذه القبعة ..
ثم قبلتني وبكت ..
وأقبل القس بعد ذلك .. ودخل وهو يقدم رجلاً ويؤخر
أخرى .. ولعله علم في منزل من هو .
فقالت له مرغريت :
- ادخل يا أبت .. ولا تخف .
وقضى القس عندها بعض الوقت ثم خرج وقال لي وهو
ينصرف :
- إنها عاشت بغياً وتموت قديسة .



٢٢ شباط / فبراير :

انتهى كل شيء .. ولم يتعذب شهيد كما تعذبت مرغريت ..
فقد نهضت في فراشها مرتين أو ثلاثاً .. كأنها لتمسك بروحها
وتستردها قبل أن تذهب إلى بارئها ..
وقد نظقت باسمك كذلك مرتين أو ثلاثاً .. ثم سألت من عينيها
دمعتان وأسلمت الروح .
وناديتها فلم تجب .. فأغمضت عينيها .. وقبلت جينيها ..
مسكية مرغريت .. ليتني كنت قديسة لكي تشفع لها قبلي .



٢٣ شباط / فبراير :

شُبعت جنازتها اليوم .. وبكاها بعض أصدقائها بإخلاص ..
ولمّا حمل التابوت في الطريق إلى مونمارتر لم يتبعه إلا
رجلان .. الكونت دي ج .. وقد عباد خصيصاً من لندن ..
والدوق .. وكان يير متكأ على ساعد خادمه ..